

# فكر وإبداع

إصدار علمي محكم

- كولريديج حول الشعر.
- عالمية الشعر المكتوب بالأسبانية.
- مفهوم الأمن القومي في عصر المعلومات.
- دور الجامعات في مواجهة التحديات المعاصرة.
- ديناميات صورة السلطة لدى المسجون في (اللس والكلاب).
- الغزو الثقافي والتحديات الحضارية.
- أداء الحلييات في العزف على الناي.
- المشهد الروائي في روايتي حافة الفردوس، وفارس النسي
- مؤتمر طهران لحوار الحضارات.
- مؤتمر العرب وأوربا عبر عصور التاريخ.
- تاريخية الرؤية المعاصرة في إضاءة التراث النقدي.



العدد (٤)

ديسمبر ١٩٩٩



## قواعد النشر بالإصدار

- يقبل إصدار فكر وإبداع نشر المواد وفقاً للاعتبارات التالية:
  - ١- أن تكون المواد المرسلّة إلى الإصدار، مبتكرة ولم يسبق نشرها.
  - ٢- تخضع المواد للتحكيم النوعي المتخصص .
  - ٣- يخطر الإصدار الكتاب بقرار صلاحية المواد أو عدمها .
  - ٤- لا يقبل الإصدار المواد المنشورة أو المقدمة إلى جهات أخرى.
  - ٥- البحوث والدراسات التي يرى المحكمون تعديل مواضع فيها -  
ترد إلى أصحابها لتنفيذ ملاحظات المحكمين لكي تأخذ  
طريقها إلى النشر.
  - ٦- الإصدار غير ملزم بإعادة الأصول المرسلّة إلى أصحابها سواء  
نشرت أم لم تنشر .

المواد المنشورة بالإصدار تعبر عن آراء أصحابها فقط

## فكر وإبداع

## إصدار متخصص

يعنى بنشر بحوث ودراسات علمية محكمة

المشرف على الإصدار: أ.د. حسن البنداري

## هيئة الإصدار

- أ.د. السعيد الورقي
- أ.د. صلاح بكر
- أ.د. عبد العزيز شرف
- أ.د. عزيزة السيد
- أ.د. علية العنزوري
- أ.د. نادية يوسف
- أ.د. وفاء إبراهيم
- د. فوزي عبد الرحمن
- د. عبد الرحمن سالم
- د. كاميليا صبحي
- محمد قطب
- نبيل عبد الحميد
- د. فهمي حرب
- د. شيخة الخايض
- د. نعيم عطية
- د. نادية عبد اللطيف
- د. رباب عزققول
- د. هالة بدر الدين

## أمانة الإصدار:

- د. محمد العشيري
- د. أحمد عبد التواب
- د. يحيى فرغل
- د. دعاء فتحي

## المراسلات:

جميع المراسلات توجه باسم المشرف على الإصدار: د. حسن البنداري  
القاهرة- مصر الجديدة- روكسي- شارع أسماء فهمي كنيحة البسات- جامعة عين شمس

ت ٥٨٥٦٦٢٢ فاكس: ٥٨٢٨١١٤

# فكر وإبداع

## فكر وإبداع

إصدار متخصص علمي محكم

يصدر عن مركز الحضارة العربية

\*\*\*

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة. تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل.

يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات. والتضامن مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.

- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ونشره وتوزيعه.

- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.

- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

رئيس المركز

علي عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

شارع العلمين - صمات الأوقاف

ميدان الكيت كات - الجزيرة ج. م. ع

تليفاكس : ٢٤١٨٣٦٨

لوحة الغلاف  
للفنان الكبير  
مصطفى أحمد

## مستشارو الإصدار

- \* أ. د. إبراهيم عبد الرحمن  
 \* أ. د. أحمد الشعراوي  
 \* أ. د. أحمد عبد الرحيم طه  
 \* أ. د. أحمد كمال زكي  
 \* أ. د. أميرة مطر  
 \* أ. د. توفيق الفيل  
 \* أ. د. جابر عصفور  
 \* أ. د. حسين أمين (أستاذ الجراحة)  
 \* أ. د. حمدي السكوت  
 \* أ. د. رتيبة الحفنى  
 \* أ. د. رجاء عييد  
 \* أ. د. زكريا عناني  
 \* الفنانة التشكيلية أ. د. زينب السجيني  
 \* أ. د. زين نصار  
 \* أ. د. سامية الساعاتي  
 \* أ. د. السعيد بدوي  
 \* أ. د. صفاء الأعسر  
 \* الفنان التشكيلي: صلاح طاهر  
 \* أ. د. صلاح فضل  
 \* أ. د. الطاهر مكي  
 \* أ. د. عاطف العراقي  
 \* أ. د. عبد الحكيم حسان  
 \* أ. د. عبد الحميد إبراهيم  
 \* أ. د. عبيدہ الراجحي  
 \* الفنان التشكيلي أ. د. عبد الرحمن النشار  
 \* أ. د. عبد الفتاح جلال  
 \* أ. د. عبد المنعم تليمة
- \* أ. د. عزيز الدين حلمي  
 \* أ. د. عمر الدقاق  
 \* أ. د. على أبو المكارم  
 \* أ. د. على السيد  
 \* أ. د. على عيسى  
 \* أ. د. علياء شكرى  
 \* أ. د. فاروق خورشيد  
 \* أ. د. فضيلة فتوح  
 \* أ. د. محمد أحمد العزب  
 \* أ. د. محمد بلتاجي  
 \* أ. د. محمد السعدى قرهود  
 \* أ. د. محمد السعيد جمال الدين  
 \* أ. د. محمد حسن عبد الله  
 \* أ. د. محمد حماسة عبد اللطيف  
 \* أ. د. محمد زكي العشماوى  
 \* أ. د. محمد عبد المطلب  
 \* أ. د. محمد عبد الرحيم كافود  
 \* أ. د. محمد عبد المنعم خفاجي  
 \* أ. د. محمد على الكردي  
 \* أ. د. محمد عناني  
 \* أ. د. محمود فهمي حجازي  
 \* أ. د. نبيل راغب  
 \* أ. د. نفيسة عليش  
 \* أ. د. نهاد صليحة  
 \* أ. د. يوسف الشاروني  
 \* أ. د. يوسف نوفل  
 \* أ. د. يونان البصيب رنق

المحتويات	الصفحة
مقدمة العدد (ختام الألفية الثانية).	د - حسن البنداري ٥
● المادة العربية:	٦
- كولريديج حول الشعر.	د - عبد الحكيم حسان ٢٨-٧
- عالمية الشعر المكتوب بالإسبانية.	د - حامد أبو أحمد ٤٠-٢٩
- مفهوم الأمن القومي في عصر المعلومات.	د - جمال زهران ٦١-٤١
- دور الجامعات في مواجهة التحديات المعاصرة.	د - محمد حسن القبيسي ٩٢-٦٢
- ديناميات صورة السلطة لدى المسجون في (الصح والكلاب) .	د - محمد حسن غانم ١١٤-٩٤
- الغزو الثقافي والتحديات الحضارية.	د - سامية الساعاتي ١٢١-١١٥
- أداء الحليسات في العسزف على الناي	د - محمد عبد النبي ١٢٣-١٢٢
- تاريخية الرؤية المعاصرة في إضاءة التراث النقدي	د - حسن البنداري ١٤٥-١٣٤
● المتابعات:	١٤٦
- المشهد الروائي في روايتي حافة المزدوس	
وقسرس النبي	عبد الرحمن شلش ١٥٩-١٤٧
- مؤتمر طهران لحوار الحضارات	د - محمد السعيد جمال الدين ١٥٨-١٥٧
- مؤتمر: العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ.	د - أحمد إبراهيم الشعراوي ١٥٩
● المادة غير العربية	١٦٠
- QUALITY TEACHER EDUCATION IN AN	
INTER CONNECTED WORLD	1 - 16
Dr. HASSAN MUSTAPHA	
د - حسن مصطفى	- المؤتمر الدولي للتربية
Enfance Vieillesse	17 - 20
D. Nefissa Eleiche	
د - نفيسة عيش	- قصيدة: طفولة وكهولة

بسم الله الرحمن الرحيم

## افتتاحية العدد في ختام الألفية الثانية

د.حسن البنداري

يصدر هذا العدد (الرابع) من فكر وإبداع في آخر شهر من الألفية الثانية - مصحوباً بمشاعر حزن عميق انداحت في الوطن المصري وأوطان أخرى من العالم، نتيجة كارثة سقوط الطائرة المصرية - الشهر الماضي - بجميع ركابها في مياه المحيط أمام الساحل الأمريكي - وهي كارثة زلزلت القلوب والعقول، وفجرت تساؤلات غير مريحة ما تزال تبحث عن سبب مقنع لوقوع هذه الكارثة لتجزي حضاري تحقق في العقد الثاني من القرن العشرين لنهايتها - بعد عمليات تطوير هائلة وتحديث مذهل - ويتناثر فوق سطح مياه المحيط وفي أعماقه قبيل بداية القرن الواحد والعشرين.

كما يصبح صدور هذا العدد شعور بالأسف وإحساس بالفقد مبعثهما رحيل علمين مستنيرين من أعلام الفن التشكيلي المعاصر، منذ أيام بالتعاقب وهما في قمة عطاءهما الإبداعي، وذروة نضجهما الفني، ويروز تأخيرهما في الحركة الفنية التشكيلية منذ بداية ستينيات هذا القرن.

أول هذين العلمين هو: الفنان التشكيلي، مصطفى أحمد الذي يحمل غلاف هذا العدد صورة لأحدى لوحاته الدالة على اتجاذه فني يختص به، يمثل تياراً متميزاً في نهج الإبداع التشكيلي المعاصر.

وثانيهما هو: الفنان التشكيلي الأكاديمي الأستاذ الدكتور عبد الرحمن النشار، أحد مستشاري هذا الإصدار، الذي ساندته بمواقف، تفيض تحملاً له وإقتناعاً به. وبصور لروحانيته، تصدرت اثنتان منها غلاف العدد الثاني (مايو ١٩٩٩)، والعدد الثالث (أكتوبر ١٩٩٩)، وبكلمات، كانت وما تزال دُعماً لعزيمتنا. ودعوة لتجاوز المشاعر المغرصة، والأصوات المعترضة. وكيف يمكن أن ينسى صوت النشار المتفائل المستبشر، النبيل؟

حقاً يجيء هذا العدد الرابع في ختام الألفية الثانية والقلب مضغ «بمشاعر الحزن والأسف»، ولكننا نؤمن بأن هذه المشاعر ستقابل بإصرارنا على تواصل «فكر وإبداع» بأحاسيس الأمل والتفاؤل والبشارة، ونحن ندخل من بوابة الألفية الثالثة لنشارك بعدد جديد من هذا الإصدار في المشهد العلمي الثقافي للقرن الواحد والعشرين.

## المادة العربية

\* البحث

\* المقال النقدي



# كولريديج حول الشعر

د. عبد الحكيم حسان \*



« كان مذهب كولريديج تعبيراً عن ثورة العقل الإنسانى ضد فلسفة القرن الثامن عشر. فقد كان هذا المذهب معرفياً بينما كانت تلك الفلسفة تجريبية، وكان محافظاً بينما كانت ابتداعية، وكان ديتياً بينما كانت ملحدة، وكان تجسدياً تاريخياً بينما كانت تجريدية ميتا فيزيقية، وكان شعرياً بينما كانت نثرية،

ج. س. ميل

رغم توافر قنوات الاتصال بينهما منذ القرن الثالث الهجرى. وكان من أهم آثار هذا الاختلاف أن ركز النقد العربى جل اهتمامه على لغة العمل الأدبى والتقاليد التى تحكم صياغته، وبذلك ضاق مجال التجديد أمام الشعراء من ناحية، وأغفل النقد الاهتمام بالبحث فى مصادر الشعر فى نفس الشاعر أو كيفية تأثير العمل الأدبى فى

هناك اختلاف جوهري بين النقد العربى القديم والنقد الأوروبى، هو أن النقد القديم لم يقيم على أساس فلسفى فى حين نشأ النقد الأدبى الأوروبى فى أحضان الفلسفة. وقد استمرت هذه الظاهرة فى تاريخ هذين التراثين النقديين، وكان لها من التأثير ما جعل كلا منهما يتخذ طابعاً يختلف عن الطابع الذى اتخذته التراث النقدى الآخر،

\* أستاذ الأدب المقارن، بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

يشكل فكر كولريديج صعوبة لكن متصد للبحث فيه لا لخصوبة هذا الفكر فحسب، بل لأن حياته المبكرة يكتنفها شيء من الغموض، ولأنه لا يؤثر عنه كلام منشور يمكن أن يلقى الضوء على هذه الحياة المبكرة إلى أن قارب الأربعين. فليس هناك ما يمكن الاعتماد عليه من مصادر إلا رسائله وبعض العبارات المتفرقة من مذكراته الخاصة وقصائده، ثم كتابه الهام (السيرة الأدبية)<sup>(٢)</sup>

من هذه المصادر القليلة يمكن اكتشاف بعض العوامل الفعالة التي كان لها تأثير في تكيف فكر كولريديج الفلسفي والديني والاجتماعي والفني . فلول هذه العوامل ما حكاه عن نفسه من أنه كان طفلا حساسا انطوائيا لا يقبل على مشاركة رفاقه لعبهم . فقد أبدع لنفسه عالما غير عالمهم وأمن بهذا العالم الخاص الذي استخلصه - إلى حد بعيد - من ( ألف ليلة وليلة ) و (رينسون كروزو) وغير ذلك من كتب الغرائب والخيال المجنح . وبالإضافة إلى ذلك كان يستمع إلى والده بشغف وإعجاب حين كان يحدثه عن النجوم وضخامتها وحركاتها العجيبة، دون أن يتسامح عن حقيقة ما يسمع . «كان عقلي قد اعتاد على الرعب، ولم أنظر إلى حواسي مطلقا على أنها هي معيار اعتقادي، فكل

نفس المتلقى. ولأسباب لا مجال لتفصيلها الآن، كان اتصال النقد العربي بالنقد الأوربي في العصر الحديث أقوى وأعمق تأثيرا وأوسع نطاقا من اتصالهما في العصر القديم . وقد انعكست آثار هذا الاتصال على النقد العربي الحديث فوسعت من اهتماماته وعمقت نظراته وأثارت أمامه من القضايا ما لا عهد له به من قبل . كانت هذه التأثيرات التجديدية التي ظهرت في النقد العربي في النصف الأول من القرن العشرين نتيجة الاتصال بالنقد الرومانتيكي، بالرغم من أن هذا النقد كان قد أصبح تاريخيا في أوربا . لكن هذا النقد الرومانتيكي كان سمة من سمات الفكر الحديث في أوربا بعد أن تحررت من تبعيتها للفكر اليوناني القديم طوال العصر الكلاسيكي .، ولذلك كان هذا الاتصال بداية لتواصل الصلة بين النقد العربي والتطورات النقدية التالية في أوربا. وبعبارة أخرى يمكن أن يقال: إن بداية اتصال النقد العربي بالنقد الرومانتيكي كانت بداية حقيقية لنقد عربي حديث وإذا كانت للنقد الرومانتيكي هذه الأهمية فإن كولريديج يعد أهم ممثلي هذا النقد، بل إنه ليعود : «أول ناقد حديث بالمعنى الصحيح»<sup>(١)</sup>

\* \* \*

1 - Stanley Edgar Hyman, the Armed Vision , (New york 1955) P.13.

2 - J Showcross, Biographta Literaria, By S.T. Coleridge (OUPX1969), Introduction , PP . XI - XII.

دراسة كتب أخيه الطبية التي وجدها في متناول يده .

ويبدو أن القراءة العلمية قد كشفت له عن تفسير جديد للأشياء كان من الصعب أن يتفق مع تأملاته المثالية التي لم تتأثر به حتى ذلك الحين، ومن ثم اتجه إلى قراءة فولتير. «بعد أن قرأت القاموس الفلسفي لفولتير لعب الفكر برأسي ، لكن ضلاله لم يمس قلبي مطلقاً . وهكذا تنبه في ذلك الوقت المبكر إلى وجود تناقض بين العقل والقلب. ذلك التناقض الذي اتخذ من فك ألفارزه مهمة شغلت حياته كلها (٢) .

وتمثل الفلسفة والتصوف ثالث هذه العوامل التي شكلت تفكير كولريديج . ففي السنوات التي تلت تسجيل اسمه في جامعة كيمبريدج كانت اهتماماته كثيرة التعدد بل والاختلاف، مما أعجزه عن أن يحقق إنجازاً ملحوظاً في أي منها. فقد اشتغل بالسياسية واللاهوت والعلوم وما وراء الطبيعة. وقد اجتذبت هذه المجالات انتباهه الواحد بعد الآخر . لكنه بعد أن تعرف على صديقه صودي وبعد أن فضح مشروع «البانتيسمو كراسي» اتجه إلى الإصلاح السياسي والاجتماعي. وفي كيمبريدج التحق بجمعية أدبية كتب من خلال نشاطه

معتقداتي في تلك السن كونتها عن طريق تصوراتي لا عن طريق بصري»، لكن ذلك لم يجعل منه مجرد حالم يقظ أو عبداً لخيالاته المنجحة . فقد أشار في إحدى رسائله إلى أن هذا النوع من المعرفة من شأنه أن يحقق غاية تربوية لها قيمتها بالنسبة للأطفال. وتساؤل هل ينبغي أن يسمح للأطفال بقراءة الرومانسيات وحكايات العملاقة والسحرة والجن؟! وأجاب بالإيجاب لأنه لا يعرف طريقاً آخر يمكن أن يمنح الذهن حب ما هو عظيم وكلي، وأن أولئك الذين كانت حواسهم هي الأساس الوحيد لثقافتهم ينقصهم ما كان يملكه هو .... فالكون بالنسبة لهم ليس إلا كومة من الأشياء الصغيرة (١) . في حين أن حقيقة الكون أنه كل عضوي هائل . ويعني هذا أن الفلسفة التجريبية التي ارتكزت عليها النهضة العلمية، والتي كانت سائدة قبل أواخر القرن الثامن عشر - كانت غريبة كل الغرابة منذ البداية بالنسبة لتفكير كولريديج . وهكذا لم يلق نيوتن ولا فلاسفة القرن الثامن عشر وبخاصة لوك قبولا لديه.

وثاني هذه العوامل: ثقافته العلمية. فقد جذب العالم المادى انتباهه وهو لا يزال صغيراً، وكان لوصول أخيه لوقا إلى لندن لدراسة الطب في إحدى مستشفياتها أثر في توجيه فكره هذه الوجهة . فقد أكب على

J - Showcross, Biographia Literaria, By S.T. Coleridge (OUPX1969),

IntroductIntro , PP . XI - XII.

2- J . Shaw cross , (op . Cit.) PP . XII - XIII

ملكاتي . وإذا كنت أرغب في التحصيل بوصفي فيلسوفاً أو شاعراً فإنني أضرب إلى الله أن أظل أحس بما أحس به الآن من أن دافعي الأعظم للرغبة في هذا أو ذاك، إنما هو أن معرفتي به من شأنها أن تعينني على الدفاع باقتدار عن الدين، وأن أوجه الانتباه - من خلال اشتهاى بذلك - إلى الدفاع عنه(٢)، وفي الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٧٩٧ أخبر كولريديج تيلوال قائلاً : « إن عقلي يحس بما يشبه الألم من أجل أن يدرك شيئاً عظيماً، شيئاً واحداً لا يتجزأ. فبالإيمان بذلك وحده أجد في الصخور والشلالات والجبال والكهوف الإحساس والجلال، وبهذا الإحساس تكون كل الأشياء محاكاة للانهاية»(٣)

\* \* \*

هذه العوامل شكلت فكر كولريديج من ناحية، وأسهمت في تكوينه من ناحية أخرى ، وأعطته تلك الطبيعة المتعددة الجوانب التي لا تخلو عناصرها المتنوعة من تضارب بين ما يتطلبه العقل وما يتطلبه القلب. بهذا الفكر أقبل كولريديج على الشعر قرصاً ونقداً، وإن كان هذا الإقبال لم يأت إلا في وقت متأخر بعض الشيء . فقد ظلت موهبة كولريديج الشعرية خامدة زمناً طويلاً إذ كانت محاولاته الأولى في فرض الشعر -

فيها مجموعة من المقالات (خضعت مع الأسف) رد الاعتبار فيها لشيكسبير، وعرض بعض أعماله عرضاً نقدياً . ولو بقيت هذه الأعمال لالقت ضوفاً على ما يثار دائماً حول صلة كولريديج بالفكر الألماني . وعلى أي حال ، فقد بقيت تأملاته بعد ذلك فترة ما على تعددها . وفي تلك السنوات «أضاف إلى قراءة أفلاطون والأفلاطونيين المحدثين قراءة جاكوب بومه ومتصوفين مسيحيين آخرين. بينما تلا فولتير قراءة لوك ولايبنتس وهارثلي . وكان هذا الأخير أقواهم تأثيراً على نظريته في الخيال . وظل كولريديج لعدة سنوات معروفاً بأنه تابع لفلسفة هارثلي وإن كان الإيمان بالجبر لم يتمكن من كيانه كله (١)

والعامل الرابع الذي أحاط بالحياة الفكرية لكولريديج عامل الدين . فمصر المعروف أنه فقد والده في وقت مبكر من حياته، وأنه بدأ تعليمه في مدرسة خيرية، وأشتغل بالوعظ في صدر حياته . وقد اجتذبت فصاحتها جماهير المتدينين إليه. والواقع أن اهتمامه بالأدب والفلسفة والعلم والاصلاح السياسي والاجتماعي لم يكن إلا من خلال صلة ذلك كله بالدين بطريق مباشر أو غير مباشر. فقد كتب في إحدى رسائله : «لصالح الدين أوجه باخلاص كل

1 - Ibid , PP. XiV - XVI

2 - P.S . Sastri, Coleridge's Theory of poetry , ( New Delslhi, dete)p.3

3- See, Ibid , p.247.

كولبريدج للفكر الألائى .

ظل كولبريدج من الناحية الفكرية مقسماً فترة من الزمن بين الفلسفة التجريبية الإنجليزية من ناحية والفلسفة المثالية التي ترجع إلى الأفلاطونية الجديدة والتصوف المسيحي من ناحية أخرى. وينبى أن فكرة الترابط أوتداعى المعانى كما تمسى احياناً، والتي أخذها كولبريدج من فلسفة هارتلى والدراسات النفسية فى اسكوتلندا - كانت هى الأساس الذى أقام عليه فكرته عن الوهم ، وأن الفلسفة الأفلاطونية الحديثة التى كان لها أتباع نشطون فى كيمبريدج والتصوف المسيحي كانا أساس نظريته إلى الغيال، وإن كان لم يكن قد وصل إلى التمييز بين هاتين القدرتين من قدرات الذهن الإنسانى فى ذلك الوقت . وبينما ظلت المقدمات العقلية فى ذهنه صحيحة من الناحية العقلية فإنها، لم تستلم أن تشبع حاجاته الروحية . وكان طبيعياً أن يشك فى قدرة العقل على أن يكون هاديه فى كل الأحوال. ولهذا كرس السنوات التى قضاها منعزلاً فى ستوى للتفكير فى الأسس التى يقوم عليها الدين والأخلاق. بالرغم من أن التفسير الرمضى للطبيعة والاستخدام الرمضى لصورها كانا - فيما ينبى - موضوعاً لتأملات كولبريدج حتى قبل أن يستقر فى ستوى، إلا أنه لا يوجد مايدل على أنه كان قد حدد - قبل هذا

وهو لا يزال فى المدرسة الثانوية - لا تزيد كثيراً عن التمارين الآلية حين لم تجد موهبته الكامنة ما يثيرها. لكن هذا المثير وجد حتى قبل انتهاء دراسته الثانوية - ممثلاً فى صونيتا بويلز، التى وجد فيها كولبريدج أول معالجة غير تقليدية للطبيعة وأول منبر أصيل للكشف عن إبحاءاتها . وتبع ذلك مثير آخر، هو اتصاله بمارى ايثانز. وكان كولبريدج قد تعلم قبل أن يغادر المدرسة الثانوية من أستاذه بوير أن للشعر - بما فى ذلك أرقى القصائد وأكثرها خروجاً على النمط العادى - منطق الخاص الذى لا يقل صرامة عن منطق العلم. وربما يزيد عليه صعوبة لأنه أكثر رقة وتعقيداً واعتماداً على مقدمات لا تفتأ تتفقت من اليد. وقد ساعد هذا على توجيه النشاط التأملى لكولبريدج - منذ أواخر حياته المدرسية وأوائل حياته الجامعية - إلى البحث عن : «أساس متين يمكن أن أقيم عليه بصفة دائمة أرائى فى القدرات المكونة للذهن البشرى وقيمة هذه القدرات وأهميتها» (١) . وبالرغم من أن هذه الاتجاهات المبكرة لم تكن لها ثمرة تستحق الملاحظة فإنها تبين إلى أى مدى تكونت لدى كولبريدج فى وقت مبكر من حياته عادة تطبيق المبادئ الفلسفية على نظراته فى الشعر والدين . ومرة أخرى ينبى أن يوضع هذا فى الحسبان عند تقدير دور

1 - See, J. Shawcross (op. cit.) XIII - XIV

The Borderers فاعجب بها أيما أعجاب . وذلك لما ظهر في القصيدة من موهبة أصيلة في توزيع النغمات وللجو العام في القصيدة وعمق العالم المثالي فيه وسموه . وقد قاده هذا الإعجاب إلى تكرار التأمل في القصيدة . وقد أدى به طول التأمل إلى الظن الذي تحول مع التحليل الدقيق للقدرة البشرية ومظاهرها ووظائفها وتأثيراتها إلى اقتناع كامل بأن الوهم والخيال قدرتان متميزتان تختلف إحداهما عن الأخرى اختلافاً بينا ، ولم تكونا - كما كان يظن من قبل - اسمين لمسمى واحد ، أو اسمين لأعلى درجة وأسطر درجة لقدرة واحدة . ومعنى هذا أن فكرة التفريق بين الوهم والخيال نشأت في ذهن كولريديج لا في ذهن وردزورث ، أما تفاصيل الفكرة فقد أصبحت موضوع مناقشات متكررة بين الشاعرين وإن كان اهتمام كولريديج قد اتجه إلى المصدر الحقيقي للشعر في الذهن البشري ، بينما اتجه وردزورث إلى مظاهر التفريق بين الوهم والخيال في الشعر نفسه . والذي يبدو أن مظاهر هذا التفريق في الشعر - وليس اختلاف هاتين القدرتين في الذهن الإنساني - هو الذي شكل موضوع المناقشات بين الشاعرين . فقد كان الهدف من وراء هذه المناقشات عملياً لا تأملياً . وهذا الهدف هو أن يقوم الشاعران بإبداع نوع أصيل من الشعر عن طريق إضفاء

التاريخ - قدرة معينة من قدرات الذهن الانساني تختص بهذا المجال الرمزي أو أنه أطلق على مثل هذه القدرة اسم الخيال . ففي رسالة له بعث بها إلى نيلوال قبل سفره إلى ستوى مباشرة تحدث فيها عن الصور في الكتاب المقدس على أنها أعلى نمط من استخدامات الوهم Fany ، في حين أنه بعد أن اكتشف الخيال وفرق بينه وبين الوهم ، بعد ذلك تحدث عن هذه الصور ذاتها على أنها مثال من أمثلة عمل الخيال . ذلك أن الفلسفة الإنجليزية كانت لا تزال تستخدم كلمة الخيال فيما سماه كولريديج فيما بعد باسم الوهم . وقد جاء أول تعبير عن هذا من هوبز الذي كان له تأثيره على كثير ممن كتبوا بعده ففي كتابه ، Leviation : أننا نظل بعد أن نزيل موضوع الرؤية أو بعد أن نفلق أعياننا نحفظ بصورة الموضوع الذي رأيناه ... وهذا ما يسميه اللاتنين: بالخيال اشتقاقاً من الصور الحاصلة عن الرؤية . لكن الأغريق يسمونه: الوهم وهو ما يدل على المظهر (١) .

\* \* \*

كان لقاء كولريديج بوردزورث وبداية الاحتكاك الفكري بينهما نقطة تحول فيما يتصل بنظرية كولريديج في الخيال ، ومن ثم في ظروف تأليف السيرة الأدبية . ففي سنة ١٧٩٦ وفي واحد من اللقاءات بين الشاعرين استمع كولريديج إلى قصيدة لوردزورث

1- See , P.S. Sastri , p.21 .

إنما نشأت نتيجة لمناقشات تكررت بيننا - مع استثناءات قليلة - فإن أياماً لا يستطيع أن يدعى بشكل يقيني أنه كان صاحب فكرة بعينها . إنني اتحدث عن مقدمة الطبعة الثانية ومع ذلك فإنا أبعد ما نكون عن أن أذهب مع ورد زورث إلى المدى الذي ذهب إليه (١) . أما القدر المشترك بين الشعارين في هذه المقدمة فهو الجزء الخاص بطبيعة الشعر ووظيفته، والذي يعد مبدئاً رومانتيكياً مشتركاً. لكن الأجزاء الأخيرة من المقدمة والتي يورد ورد زورث فيها آراءه حول لغة الشعر ووزنه تختلف عن آراء كولريديج حول الموضوع إلى حد أنه أعلن أنه لا يستطيع قبولها. إن آراء ورد زورث النقدية سواء في هذه المقدمة أو غيرها هي في الواقع من مخلفات القرن الثامن عشر، في حين كان شعره يختلف تماماً عن شعر القرن الثامن عشر لأنه كان يعد جديداً كل الجدة . ولهذا نرى كولريديج يعدّ ورد زورث أعظم شاعر في الإنجليزية بعد شيكسبير بينما يفند آراءه النقدية وبخاصة فيما يتعلق بلغة الشعر ووزنه.

\* \* \*

وكما كان تأمل كولريديج لقصيدة ورد زورث The Borderers تمر نقطة الانطلاق إلى ابتدائه لنظريته في الخيال، كان إنكاره لبعض آراء ورد زورث النقدية حول لغة الشعر ووزنه في مقدمة (سنة ١٨٠٠) نقطة البداية لتأليف كتابه السيرة

الجدة على مظاهر الطبيعة، ورأيا أن ذلك يمكن أن يتم بطريقتين: إحداهما إضفاء أهمية إنسانية على عناصر أو مواقف مما فوق الطبيعة، وذلك بواسطة فعالية العواطف التي من شأنها أن تصاحب هذه العناصر أو المواقف لو حدث أنها تحولت إلى واقع. والطريقة الثانية: توجيه اهتمام الذهن إلى ما في العام المألوف من جمال وعجائب أضفى عليها التعود نوعاً من الألف غلى على هذا الجمال وهذه العجائب . وقد اتفق الشاعران على أن يبدع كولريديج بالطريقة الأولى وأن يبدع ورد زورث بالطريقة الثانية وأن ينشر هذا الشعر الجديد في ديوان مشترك عنوانه «الأنشاصيص الشعرية الوجدانية» Lyrical Ballads ، وقد ظهرت الطبيعة الأولى لهذا الديوان سنة ١٧٩٨ ثم ظهرت الطبعة الثانية سنة ١٨٠٠ مصدرة بمقدمة كتبها ورد زورث.

لقد أشار كولريديج في رسالة إل دانيل سياتوار في سبتمبر ١٨٠٠ إلى أن هذه المقدمة (سنة ١٨٠٠) نتيجة لفكر مشترك بينه وبين ورد زورث حول الشعر. وربما يقصد كولريديج بذلك تلك المناقشات التي دارت قبل ذلك بين الشعارين حول الشعر، والتي سبقت الإشارة إليها منذ قليل، وأنه فوجئ بعد ظهور المقدمة بوجود اختلاف في الرأي بينه وبين ورد زورث في بعض ما جاء بالمقدمة من آراء. فقد كتب إلى صوذي في يوليو (سنة ١٨٠٢) يقول : «بالرغم من أن مقدمة ورد زورث ابن مشترك لأهنيئا وأنها

1- See, ) . Shawcross, (P.eit).

وجزءاً - على الأقل - من آراء كولريدج حول الخيال . لكن هذه المقدمة وقد طالت تبين أنها لم تعد تصلح مقدمة وأنها هي تحتاج إلى مقدمة . وفي أغسطس (سنة ١٨١٥) أرسل كولريدج بقدر من المخطوطة إلى ناشر في بريستول بعد أن تم الاتفاق على نشر جزءاً واحد يتضمن ترجمة ذاتية جزءاً آخر يضم بعض القصائد . لكن كولريدج مضى في الكتابة - أثناء الطبع وقد ضلله الناشر كما يقول - إلى أن زادت المادة التي كتبها عن أن يستوعبها جزء واحد . وكان ذلك سبباً في نشأة خلاف بينه وبين الناشر لم ينته إلا في إبريل (سنة ١٨١٦)، بالاتفاق على إخراج المادة المطبوعة في ثلاث أجزاء ، جزأين للسيرة الأدبية (والثالث للشعر) ولم يلبث خلاف آخر أن دب بين كولريدج وناشره دام بضعة أشهر أخرى وانتهى بإنهاء الاتفاق بينهما وتحویل الكتاب إلى ناشر آخر في لندن .

وتبين في لندن أن الجزء الثاني لم يكن من الطول بحيث يتناسب مع الجزء الأول . وقد عاق كولريدج عن بسطه خلافات نشأت بينه وبين الناشر الجديد . فقد كتب كولريدج في الثالث والعشرين من سبتمبر (سنة ١٨١٦) : «سأبدأ في الأسبوع القادم في الموضوع الذي أرغمتي كذب الناشر وخطئه الجسيم على إضافته إلى «الحياة» الأدبية لكي يكون الجزآن في حجم متماثل» . وقد

الأدبية . وقد تحدث كولريدج في السيرة الأدبية عن الكيفية التي نما بها الكتاب حتى صار إلى شكله الذي ظهر به ، لكن حديثه غامض . وقد ألحق السيد Shawcross بمقدمته للسيرة الأدبية تعليقا (١) أوضح فيه الظروف التي أحاطت بظهور الكتاب ، ومن هذا التعليق يفرج القارئ بالحقائق التالية : في مارس (سنة ١٨١٥) كتب كولريدج إلى كوتل أنه كان قد جمع مسودات لقصائد مبعثرة تكفي لتكوين ديوان نون أن يضمّن حديث هذا أية إشارات إلى مقدمة . لكنه في مايو من السنة نفسها أشار عرضاً في رسالة كتبها إلى ورد زورث إلى أنه عاكف على كتابة مقدمة سيفرغ منها خلال يومين أو ثلاثة وليست هناك أية إشارة إلى طبيعة هذه المقدمة (وما إذا كانت نقدية أو ترجمة ذاتية أو كليهما) لكن المعتقد أن البذرة الأولى للسيرة تكمن في هذه المقدمة . فبعد شهرين كتب كولريدج إلى دكتور برايان أن أنه عاكف على بسط ما قصد به أصلاً أن يكون مقدمة لسيرة ذاتية أدبية تتضمن تخطيطاً لحياته وأرائه الأدبية فيما يتصل بالشعر ونقده . والذى يبدو أن المقدمة الأصلية قصد بها أن تكون ترجمة ذاتية أدبية لكنها طالت بحيث تطلبت هي أن تكتب لها مقدمة . لقد كان هدف كولريدج من وراء بسط ما كان أصلاً مقدمة أن يعرض الجدل الدائر حول شعر ورد زورث ونظراته النقدية

١ - يقع هذا التعليق فيما بين صفحتي XC - XVII في آخر المقدمة Showcross . See .



كثير من الضجيج، والذي وضع له عنوانا «فى الخيال أو القدرة الموحدة» - أن يعرض نظريته الهامة هذه بالتفصيل، فيقدم إيضاحا كافيا لطبيعة كل من هذين النوعين من الخيال يحدد طبيعة كل منهما ويوضح الفرق بينهما . لكنه بدلاً من ذلك تعلق بتصيحة وصلته من صديق، أن يمسك عن التفصيل فى هذا الموضوع لأن تأملاته حوله ستكون مستغلة كل الاستغلاق بالنسبة للعقول التى لم يسبق لها أن استعت لذلك . ثم يعلق كولريديج بقوله : «نتيجة لهذه الرسالة البالغة الحكمة والتي اقتنعت بها اقتناعا كاملا سوف اكتفى الآن بعرض النتيجة الأساسية للفصل الذى احتفظت به لعمل ينشر فى المستقبل، سيجد القارئ، نشرة، تفصيلية عنه فى آخر الجزء الثانى(١) لكن ذلك العمل لم ينشر كما لم تظهر النشرة التفصيلية التى لا وجود لها فى آخر الجزء الثانى.

\* \* \*

ومع هذا الإجمال، فإن كتاب السيرة الأدبية يقدم للقارئ، نظرية متكاملة لكولريديج عن الخيال فقد تلا هذا الإجمال فى التفريق بين الخيال الأولى والخيال الثانوى فى آخر الفصل الثالث عشر من الكتاب تفريق مفصل بين الوهم والخيال فى الفصل الرابع عشر . ولا أدل على ذلك من أن هذه النظرية استحوذت على أفتباه النقاد

تضمن هذا الموضوع الجديد (الذى يوجد الآن فى الفصل الثانى والعشرين فى الجزء الثانى من السيرة الأدبية ) تقديراً عظيماً لشعر ورد زيرث كان قد استبعد قبل أكثر من عام من النظرية الخاصة بمعالجة لغة الشعر. ومع هذه الإضافة ظل الجزء الثانى اصغر من أن يتناسب حجماً مع الجزء الأول. ولذلك رثى أول الأمر ملء الفراغ بمسرحية (زويلا) التى كان كولريديج قد كتبها منذ وقت قصير. لكن الرأى استقر آخر الأمر على (رسائل المانية) لأنها أكثر مناسبة من عدة وجوه. كما أضيف نقد لشعر برترام - وكان قد نشر قبل ذلك - كما أضيف فصل ختامى وصفحات على سبيل التقديم. وعلى هذا ظهرت السيرة الأدبية فى صيف (سنة ١٨١٧).

من شأن هذا التعليق أن يكشف عن سبب ما يبدو على السيرة الأدبية من تفكك لغت نظر النقاد والقراء على السواء . ولقد أخذ النقاد على كولريديج أن أقل مناقشاته إقناعاً فى الكتاب هى تلك التى أدارها حول أهم نظرية فيه وهى نظرية الخيال. ففى ما لا يزيد كثيراً عن صفحة واحدة فى آخر الفصل الثالث عشر من السيرة الأدبية، عرض كولريديج نظريته فى الخيال وقسمه إلى خيال أولى وخيال ثانوى . لقد كان يتوقع من كولريديج أن يعرض فى هذا الفصل الثالث عشر الذى وصل إليه بعد

(١) راجع الفقرات الأخيرة من الفصل الثالث عشر من السيرة الأدبية.

طريق الحواس . وهذه الفلسفة تتناسب تماما مع طبيعة التأمل العلمى الذى مثله فى ذلك الوقت نيوتن . وقد اتفق الفلاسفة والعلماء على تفسير الكون تفسيرا أليا بمعنى أنه كان فى نظرهم آلة ضخمة أو كومة من الأشياء المتفرقة ضم بعضها إلى بعض . وفى هذا إهمال تام للنفس الإنسانية وما ركز فيها من قدرات ونزعات ، لكن الثورة ضد هذه الفلسفة ما لبثت أن اندلعت منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر . فلم تعد الانطباعات والمدرجات الحسية هى منشأ كل المعلومات الممكنة كما كان يعتقد من قبل ، بل أصبح نور هذه الانطباعات والمدرجات الحسية قاصرا على تزويد طاقة من طاقات الذهن الإنسانى هى الوهم بمادة يحتفظ بها ، ليقدمها عند الحاجة إلى طاقة أخرى تعمل عليها تعقلا أو ابداعا ، هذه الطاقة التى تسمى الوهم Fancy هى عند كولريديج شبيهة بالذاكرة متحررة من الزمان والمكان . لأن العلاقة بين هذه الانطباعات والمدرجات الحسية هى الترابط ، بمعنى أن الواحد منها يستدعى الآخر لعلاقة تربطه به . وهذه العلاقة غير علاقة الزمان والمكان ، لأن علاقة الزمان والمكان هى التى تربط بين ما تحتفظ به الذاكرة . ولهذا رأى كولريديج أن الوهم نوع من الذاكرة منهجرة من الزمان والمكان ، ووظيفة الوهم هى تقديم

ولا تزال حتى الآن . فالخيال كما عرفه الرومانتيكيون : قدرة مبدعة خلاقة قاسوا عملها على العمل الإلهى فى الخلق . ولهذا فإن أهميته عندهم تبلغ درجة التقديس . وقد كان عندهم أساسا لنظرية عميقة فى الشعر يختلف اختلافًا كبيرا عما سبقها من نظريات . فالشعراء قبلهم استحسنوا الاستخدام الجيد للصور الشعرية التى قصصوا بها الانطباعات البصرية والاستعارات ، لكن الأهمية القصوى للشعر عندهم كانت صدقة فى تصوير المواطن . لقد كانوا يتحدثون حديثا عاما عن التجارب المشتركة بين الناس ولم يهتموا بالخطرات الشخصية فى خلق عوالم جديدة . والشاعر عندهم مفسر لا مبدع ، يهتم بالكشف عن جمال ما نعرف أكثر مما يهتم باكتشاف الخفى وغير المألوف . كانوا يهتمون بمظاهر الحياة أكثر مما يهتمون بأسرارها ، وكانوا يعتقدون أن مهمتهم هى أن يعرفوا ذلك بأكبر قدر من الجمال والصدق . أما الخيال عند الرومانتيكيين فهو أساسى لأن الشعر بدونه عندهم غير ممكن (١) .

لقد سادت فى إنجلترا - ولدة قرن - فلسفة لوك التى كانت ترى أن العقل فى حالة الإدراك ليس له إلا نور سلبي هو التلقى ، فهو بمثابة صفحة بيضاء تسجل عليه الانطباعات المختلفة التى ترد إليه عن

(١) راجع الفقرة الأخيرة من الفصل الثالث عشر من السيرة الأدبية .

1- C. M. Bowra , The Romantic Imagination, (1961), P.I

الانطباعات أو المدركات الحسية للخيال. فالوهم قدرة مجمعة ترايطية ليس لها ما تعمل عليه إلا الثوابت والمحسوسات، أى أن عمله لا يعدو أن يكون نوعاً من الإدراك الحسى . من هذا يتبين أن كولريديج يؤكد أهمية العالم الخارجى الطبيعى، لا على أنه ظل لعالم مثالى، ولا على أنه إبداع ذاتى من جانب الفنان بل على أنه عالم حيوى عضوى ناتج عن عملية اكتشاف. وعلى ذلك فالفن - بوصفه وسيطاً بين الإنسان وبين الطبيعة وبوصفه مفسراً للواقع الخارجى - يجب أن لا يرخى قبضته عن المادى العضوى، ولا أن يسمح له أن ينقلب إلى مجرد تجريد . وعلى الرغم من أن الوهم لا يعمل إلا على الثوابت والمحسوسات أى على العالم المادى، فإنه كان مصدراً أساسياً من مصادر الإبداع الشعري لدى كثير من الشعراء وبخاصة شعراء القرن الثامن عشر. لكن هذا الشعر لم يكن من ذلك الطراز الذى يرضى عنه الرومانتيكيون بصفة عامة، وكولريديج بصفة خاصة لأن المدركات الحسية للوهم تظل فى الشعر على طبيعتها مالم يتناولها الخيال بالعمل.

أما الخيال فهو القدرة التى تعمل فيما يقدمه إليها الوهم من انطباعات حسية، فيرتفع بهذه الانطباعات وينظمها وينتج فيها من طبيعته فيوفق بين المتضادات وبين الجزئى الذى يقدمه الوهم والكلى الذى يقدمه هو . بين الخاص والعام وبين المحدد

والمطلق وبين المحدود والمجرد وبين الصورة والفكرة وبين الفردى والنموذج، كل عن طريق ما يحققه من استبصارات فى الواقع الخارجى حين يتجه إليه. ومن هنا كانت المقارنة التى عقدها كولريديج بين الخيال وبين المبدأ الخلاق فى الطبيعة فى عبارته المشهورة : «إن الخيال هو تكرار فى الذهن المحدد لعملية الخلق الخالدة فى الوعى اللامتناهى» ، ويعنى هذا أن قدرتى الوهم والخيال - رغم تمايزهما من حيث الطبيعة والوظيفة - متكاملتان لأنهما تشاركان فى عملية الإبداع ، بل إن كلا من القدرتين تعتمد على الأخرى فى هذه العملية . فالخيال يعتمد على الوهم لأنه يعمل على ما يقدمه إليه الوهم من انطباعات ومدركات حسية، والوهم أيضاً يعتمد على الخيال لأن التصورات الذهنية يستحيل أن تتحقق فى الوهم إذا لم يكن هناك عون من الخيال. والخيال بهذا المعنى (الأولى) موجود فى كل عملية إدراك بدائية. وبهذا الخيال ندرك أمور حياتنا اليومية . وهذا الخيال يفسى صفة الفردية على كل استبصار عقلى فيما هو كلى. وبذلك يصبح عمله هذا تكراراً فى الذهن لعملية الخلق الخالدة . وبهذا ينطوى الفردى الملموس على قيمة الكلى أو مغفراه. والخيال بهذا المعنى خلاق لأنه يجعل من الممكن قيام عالم من المدركات أمام النفس. وفى هذا نمارس ملكتنا الإدراكية بطريقة غير واعية، وبدون ذلك لا يمكن أن يكون

(الخيال الثانوي) يتعايش مع الإرادة الواعية، فهما يتحدان في نوع العمل ويختلفان في الدرجة والطريقة (١).

وتتمثل عملية الإبداع التي يقوم بها الخيال الثانوي في أنه يكون في لحظة التوتر انفعالا شعريا، وينفث في مادة التجربة وموضوع التأمل من روحه، فيضفي عليهما مغزى وأهمية لم يكونا فيهما من قبل. وبهذا تنشأ المتعة الجمالية لا من الموضوع قبل لحظة الإبداع بل بما يضيفه عليه الشاعر. فقبل عملية الإبداع لا تكون المادة التي تتكون منها التجربة موحدة ولا يكون لها من الدلالة والمغزى والأهمية ما يكفي لانفعال المتلقي بها، لكنها بعد أن يوحد الخيال الثانوي للشاعر ويضفي عليها من الدلالة والمغزى ما أدركه هو فيها نتيجة لانفعاله بها تكتسب من القدرة على التأثير في المتلقي ما لم يكن لها من قبل. ومن أجل ذلك يستخدم الخيال الثانوي كلمات اللفظ استخداما رمزيا، فيرتفع بالكلمات إلى مستوى الأشياء، أو على الأقل يستخدم كلمات اللفظ استخداما مجازيا، فالاستعارات مثلا ندرك أساسا على أنها صور. ويصنر الصور عن الخيال الثانوي تحمل معها طبيعة الانفعال الذي مر به، فتتحرك الصور بنفس الإيقاع الذي نتج عن الانفعال في الخيال الثانوي. وإذا كان الخيال الأولي موجوداً لدى كل الناس فإن

هناك إدراك. فالخيال الأولي هو الملكة الحية والعامل الأول في كل إدراك إنساني. وكل ألوان النشاط الذهني الأخرى إنما هي تطورات ونتائج لهذا النشاط الأساسي الذي يقوم به الخيال الأولي.

وهكذا يهتم الخيال الأولي بمظاهر الأشياء، لكن الخيال الثانوي الذي يعدد كولبريدج صدئ للخيال الأولي وأنه يشبهه في طريقة عمله يختلف عنه في أنه يهتم بحقائق الأشياء، فالخيال الأولي نفعي أما الخيال الثانوي فإنه لا يعبر عن أي اهتمامات نفعية، بل عن قيم. والخيال الأولي يبقى على ازدواجية الحياة العادية. أما الخيال الثانوي فيحاول أن يتجاوز العالم الخارجي بالارتفاع به إلى مستوى المثال وتوحيده معه. هذا الخيال الثانوي هو الذي يتضمن بذور كل تطور خلقي أو علمي، وهو الخاصة المميزة للإنسان من حيث هو كائن متقدم متطور، لأنه يجمع الظروف المتعددة في لحظة من لحظات الوعي، وهو الذي يحقق غاية كل فكرة إنسانية أو شعور إنساني. إنه أعلى ملكات الذهن البشري على الإطلاق. إن التفريق بين الخيال الأولي والخيال الثانوي يتضمن التفريق بين النشاط الذهني غير الواعي والنشاط الذهني الواعي. وإذا كان كولبريدج يؤكد أن الخيال الثانوي هو في الحقيقة صدئ الخيال الأولي فإنه بين اختلافه عنه في أنه

1- See, P.S. Sastri, (Op . Cit.) P.31

الخيال الثانوى لا يوجد إلا عند قلة منهم . هؤلاء هم المبدعون الذين ولدوا بهذه الموهبة (١).

\* \* \*

كانت اهتمامات كولريديج فى السنوات التى سبقت اتصاله بورنزوث تتجه إلى الدين وما وراء الطبيعة بقدر ما كانت تتجه إلى الجمال. ويبين هذا أن جهود كولريديج فى تحليل قدرات الذهن البشرى كانت طويلة وشاقة. ومن الجدير بالملاحظة أن كولريديج كان قد قام - قبل أن يفرق بين الوهم والخيال - بالتفريق بين قدرتين أخريين من قدرات الذهن الإنسانى هما قدرة التحقل Reason وقدرة الفهم Understanding، وهو تفريق غير مقطوع الصلة بالتفريق بين الوهم والخيال فى النظرية الشعرية، ويحتل فى مجال الدين وما وراء الطبيعة مكانا مركزيا، كذلك الذى يحتل التفريق بين الوهم والخيال فى مجال الشعر. بل إنه يمكن القول إن التفريق فى الحالتين واحد وأن القضية ليست إلا قضية اختلاف المجال. فنسبة التحقل للفهم هى نسبة الخيال للوهم . فقد فهم كولريديج التحقل على أنه أداة لإدراك ما وراء الحس، وأن الفهم أداة لترتيب ظواهر الإدراك وتعميمها. التحقل هو معرفة القوانين التى

تتحكم فى الكل بوصفه وحدة، والفهم علم الظواهر. إن التحقل أداة الوصول إلى الغايات، أما الفهم فإنه يدرس الوسائل. التحقل هو مصدر الحق المجرد وجوهره والفهم ملكة تحكم حسب قوانين الحواس. التحقل هو عين الروح والموهبة التى بها يدرك الواقع الروحى إدراكا روحيا أما الفهم فهو عقل الجسد (٢). هكذا يفترض كولريديج وجود جانبين هامين فى الذهن لكل منهما وظيفة تختلف عن الوظيفة التى يؤديها الجانب الآخر، ولكن الوقوف عند هذا التقسيم الثانى فيه إفساد للمفهوم العضوى للطبيعة. لأن الطبيعة كما يراها كولريديج ليست هى العالم المادى فقط وإنما هى نشاط يتطور عضويا من قبل هذه الطبيعة المادية بالتوافق مع شكلها الكلى. والفن فى محاكاته للطبيعة لا ينظر إلى هذه الطبيعة المادية وحدها ولا إلى شكلها الكلى وحده، لا يتجه إلى الفردى المعين وحده ولا إلى الكلى وحده، وإنما يتجه إلى تلك النقطة التى يتركز فيها التفاعل بينهما فيقوى كل منهما الآخر. بمعنى أن يضفى الشكل الكلى المجرد على الفردى المعين فحوى ومعنى ودلالة . أى أن يسمح للفردى المعين للشكل الكلى أن يحقق ذاته بالفعل وأن يبرز من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، وأن يضفى الشكل الكلى ذلك على

1- See, P.S. Sastri, (Op. Cit.) P.40

2 - Basil Welley, Nineteenth - Century Studies, Coleridge to Matheo Arnaod (Penguin Books 1964), p.37.

الفردى المعين مغزى ودلالة لم تكونا له من قبل . ولما كان التعلل هو القدرة الخاصة بإدراك الكل وحده وكان الفهم هو القدرة على إدراك الفردى المعين وحده فإن أيا منهما لا يستطيع أدراك الطبيعة بذلك المعنى الذى مرَّ . لأن الطبيعة بهذا المعنى هى التفاعل بين الفردى المعين والشكل الكلئى، أى أنها تجمعهما معا . ولذلك فالذهن لا يستطيع أن يحقق ذلك الإدراك الشامل للطبيعة إلا بواسطة قدرة أخرى تستطيع أن تجمع وتوحد ما أدركه التعلل وما أدركه الفهم، أى أن توحد الفردى والكلئى، أى أن توحد بين الأضداد . وهذه القدرة هى الخيال . فالخيال إذن هو القدرة المبدعة التى تخلق الجديد عن طريق التوحيد والتوفيق بين ما أدركته القدرتان السابقتان . وتوضيح ذلك يفضى كولريديج ليفرق بين الوهم والخيال بعد أن كان الخلط قد غطى على استخدام هذين المصطلحين(١).

\* \* \*

هذا هو الأساس الفلسفى أو النظرى لنظرية كولريديج فى الشعر . وهو أساس يمتاز أكثر ما يمتاز بصفتين هما الشمول والوحدة . أما الشمول فلأن هذا الأساس يشمل عالمي الحس والمثال معا ، ويخصص لكل منهما ما يناسبه من قدرات الذهن الإنسانى . وأما الوحدة فلأن التوفيق بين المتضادات من عناصر هذين العالمين هو

الأساس لكل عملية إبداع . وهو الهدف الأسمى التى تتعاون قدرات الذهن المختلفة على تحقيقه . وفى تعريف كولريديج للخيال بأنه القدرة التى تعمل على التوفيق بين المتضادات ، استطاع أن يخرج مزجا تاما بين الخصائص المميزة للشاعر وبين ما يقابلها من مميزات العمل الأدبى ، حتى إن السؤال : من الشاعر؟ عنده يساوى السؤال : ما الشعر؟ . وكما كانت علاقة كولريديج بورذورث أساس نظريته فى الخيال إذ كان استماعه إلى إحدى قصائد ورد زورث هو الشرارة التى فجرت فى قلبه اليقين بأن الوهم والخيال قدرتان من قدرات الذهن الإنسانى ، وليس الاصطلاحان اسمين لمسمى واحد ولا لدرجتين فى قدرة واحدة ، كانت هذه العلاقة أيضا هى الأساس لنشأة نظرية كولريديج فى الشعر . أو على الأقل - لصياغتها فى شكل متكامل . فقد كان الخلاف بين كولريديج ووردزورث حول فقرات وردث فى المقدمة التى كتبها ورد زورث لديوان الأناشيص الشعرية الوجدانية (سنة ١٨٠٠) بعد مناقشات مستفيضة حول الشعر جرت بين الشاعرين ، فبعد أقل من سنتين من نشر الطبعة الثانية للديوان وهى الطبعة التى ضمت هذه المقدمة ، كتب كولريديج إلى صديقه صوذى : أنه بالرغم من أن مقدمة ورد زورث نتاج مشترك لذهنينا ، فإننى أظن أن هناك فى مكان ما اختلافا

1- See, Walter Jackson Bate Prefaces to Criticism, (New yow 1959) P.163

بيننا في آرائنا النظرية فيما يتعلق بالشعر، وإننى سوف أجاهد الفوص إلى أساس هذا الاختلاف. لكن الذى يبدو أن النقد الذى سطره كولريديج لورد زورث فى السيرة الأدبية كان ثمرة الأربعة عشر عاما من التأمل فى الموضوع (١). وقد أوضح كولريديج أنه لا يعترض على التجربة التى قام بها فيها ورد زورث لابتداع أسلوب شعري جديد وإنما يعترض على محاولة توسيع هذا الأسلوب بحيث يشمل كل أنواع الشعر. كما أن بعض فقرات المقدمة تعد خطأ لأن بعضها يناقض بعضها، ومن ذلك الفقرات التى يقيم فيها ورد زورث مقابلة بين الطبيعة والصنعة أو الفن. بمعنى أن القصيدة لا تكون طبيعية إذا كانت فيها صنعة. أما كولريديج فيرى أن القصيدة تحتوى على نفس العناصر التى يحتوى عليها التأليف النثرى. ولهذا فالاختلاف بينهما لابد أن يكون ناشئا عن ضم بعض هذه العناصر إلى بعض نتيجة لاختلاف الهدف المطروح. فضم بعض العناصر لابد أن يكون متمشيا مع الهدف، وأن تكون الأجزاء المتناسبة فيما بينها متمشية مع الكل، وأن تكون الأسباب متمشية مع الغاية ومع اختيار التقاليد الشعرية ذات الطبيعة الخاصة التى هى الخصائص المميزة للفن.

ويبدأ كولريديج بتعريف القصيدة فيقول:

«إنها ذلك النوع من التأليف الذى يتعارض مع المؤلفات العلمية بأن يجعل المتعة لا الحقيقة هدفه المباشر. ويتميز عن كل الأنواع الأخرى (التي تشترك معه فى نفس الهدف) بطلبه ذلك النوع من المتعة من الكل الذى يتلق مع الإشباع الواضح من كل جزء من الأجزاء» (٢). وهذا التعريف يجعل القصيدة بمنأى عن المفهوم الذى وضعه لها وردزورث. فقد رأى هذا أن اللغة الطبيعية ربما تكون غير موقعة، ولذلك فإن فرض نظام موسيقى ما على القصيدة يبدو أمرا غير طبيعى، وإنما هو اختراع أو تقليد، ومن ثم وجد نفسه مضطرا لأن يعدّ الوزن حلية إضافية. ولكنه مع ذلك يرى أن لهذه الحلية ما يسوغها لأنها تحدث متعة إضافية تخفف من ألم الانفعالات العميقة. والفرق بين الرأيين فيما يتصل بالوزن واضح، فبينما يعده وردزورث حلية إضافية، أى يمكن أن توجد وأن لا توجد، رغم اعترافه بما تمنحه للقصيدة من متعة إضافية، يعده كولريديج جزء عضويا لا يتجزأ من القصيدة، لا يمكن الاستغناء عنه، لأن ما يمكن أن يضاف أو أن يستبعد لا يمكن أن يكون عنصرا عضويا من الكل، وفى تعريف آخر للقصيدة يذهب كولريديج إلى أنها فن التعبير عن أى شيء نريد التعبير عنه شريطة أن يجمع بين التعبير والإثارة وذلك بغرض تحقيق المتعة

1- M. H. Abrams, The Mirror and the Lamp (1953), P.116

٢ - انظر : الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية

اليومية، وهم يمرّون بانفعالات طبيعية تدفعهم إلى التعبير بهذه اللغة الطبيعية. ومثل هذه اللغة التي تصدر عن تلك الانفعالات الطبيعية لا تختلف عن لغة النثر الجيد، حتى في أكثر القصائد جودة. وذلك يظهر الطابع النثري أحياناً في فقرات أحسن القصائد. ويضرب وردزورث مثلاً لذلك بالشاعر ميلتون ويستشهد بأحدى صوتيات جراي ليبين أن ليس هناك فرق بين لغتها ولغة النثر من حيث النوع وإن وجد فرق في الدرجة. ويضفي وردزورث مؤكداً أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد فرق جوهري بين لغة النثر ولغة التكايف الشعرى، فالمادة والشكل في اللغتين سواء، لأن اللغة وسيلة مشتركة وتأثيراتها متشابهة - وهو هنا يتجاهل الفروق بين استخدامات الشعراء للغة، وهي فروق فردية لا يمكن إخضاعها لهذه القاعدة الكلية - ولكنه ينتهي إلى القول: إن الفرق بين لغتي الشعر والنثر ليس أساسياً لأنه قاصر على التفاصيل الصغيرة. وهكذا يتحول من إنكار وجود فرق بين اللغتين إلى الاعتراف بوجود ذلك الفرق، لكنه في رأيه قاصر على التفاصيل الدقيقة. وهو موقف لا يخلو من تناقض(١).

ويقصد وردزورث باللغة الواقعية real Language اللغة الطبيعية natural Language. وهو يراوح أحياناً بين الوصفين natural, real ويقصد بذلك

بطريق مباشر. ولما كانت القصيدة تتسم بالوحدة فإن ذلك يستلزم وضع كل مكون من أجزاء القصيدة، بحيث يقدم ذلك القدر من المتعة الذي يتوافق مع المتعة المستخدمة من الكل. والوزن عنصر من هذه العناصر يقصد به تقديم قدر من المتعة يتوافق مع ما تقدمه القصيدة بوصفها كلا. وعنصر بهذا الوصف لا يمكن أن يوصف بأنه مجرد حلية إضافية، وإنما هو عنصر مكون من مكونات القصيدة لا يمكن الاستغناء عنه، لأن أي تغير في العنصر المكون المتسق مع الكل لابد بالضرورة أن تنتج عنه تغييرات في العناصر الأخرى، ومن شأن هذه التغييرات أن تخرج الكل عن هويته التي كانت له. وكما مر فإن ما يمكن إبقاؤه أو استبعاده لا يمكن أن يكون عنصراً أساسياً في الكل.

وكما اختلف كولريديج وردزورث حول الوزن اختلفا حول عنصر آخر من عناصر القصيدة هو اللغة. والعنصران مترابطان، ولذلك فإن وردزورث وقد أبى على الوزن أن يكون عنصراً مكوناً من عناصر القصيدة، وجد نفسه مضطراً لأن يرفض ذلك النوع من اللغة الذي يرتبط بالوزن أشد الارتباط تلك اللغة التقليدية الطنانة التي توارثها الشعراء بحكم التقليد. وعند وردزورث أن لغة الشعر ينبغي أن تكون تلك اللغة الطبيعية التي يتحدث بها الناس في حياتهم

1- See, P.S. Sastri, (Op. Cit.) P.218



وما لبثت هذه اللغة الشعرية أن تغلبت على اللغة الطبيعية على أقدام الشعراء وتوارثوها جيلا بعد جيل.

هكذا ينحاز وردزورث انحياز كاملا إلى الطبيعة رافضا الفن (الصناعة) ورفضاً تاماً. وبالرغم من أن كولريديج يتفق مع وردزورث على ضرورة الانفعال في الشعر إلا أنه يفرق بين انفعال استثير بطريق مباشر - وهو ما يرفضه - وانفعال ناتج عن تحريك تقنيتين أساسيتين في الشعر هما أوجه البلاغة والوزن، وهنا يتقبل كولريديج النظريات الطبيعية البدائية للقرن الثامن عشر فيذهب إلى أن الانفعالات العنيفة تتطلب للتعبير عنها لغة مجازية، وأن الأوجه البلاغية هي في الأصل ولادة الانفعال، وأن الانفعال القوي يتطلب لغة أكثر إيقاعاً من لغة الحديث العادي، وأن الوزن نفسه ينطوي على نوع من الانفعال . ويصفه عامة يوافق كولريديج على وجهة نظر وردزورث فيما يتصل بتاريخ اللغة وانحدارها من لغة طبيعية تعبر عن مشاعر أصيلة إلى مجرد صناعة وزخرف. لكنه يرفض ما ذهب إليه وردزورث من أن لغة فلاحي منطقة البحيرات تمثل اللغة الطبيعية . إن نظرية كولريديج في الخيال ترفض بطبيعتها مبدأ وردزورث في المقابلة بين الطبيعة والفن. فقد سبقت الإشارة إلى أن عمل الخيال الثانوي أو الخيال المبدع يتمثل في التوفيق بين المتضادات ومزجها في كل هو أعلى

اللغة، التي يستخدمها الناس العاديون في حياتهم اليومية بشكل طبيعي . وهذه اللغة عنده ليست خاصة بالشعر بل هي لغة البشرية كلها حين يتحدث بها الناس وهم يعبرون بانفعالات عادية، فتأتي اللغة طبيعية غير منحرفة إلى استخدام كلمات أو تراكيب متعددة، وهذه اللغة هي التي استخدمها الشعراء الأقدمون الذين كانوا يقرضون الشعر بشكل طبيعي . أما ما يمثل هذه اللغة في العصر الحديث فهو تلك التعبيرات البسيطة غير المصنوعة الصادرة عن مشاعر صادقة لدى قوم ملتصقين بالطبيعة . وهذه اللغة بصفة عامة هي الفيض الغريزي التلقائي للمشاعر في شكل كلمات. وهذه اللغة التلقائية تقابل اللغة الناتجة على الترتيب المتعمد للغايات على الوسائل والمتسكة بتقاليد شعرية أملاها العرف وأنتجتها الصناعة؛ فانثقت عنها صفة التلقائية وأضفى عليها طول الاستعمال نوعاً من العادة. إن ما يسمى باللغة الشعرية إنما نشأ في رأي وردزورث من استخدام أوجه البلاغة استخداماً آلياً، بعد أن ظلت زمناً تستخدم بشكل طبيعي للتعبير التلقائي عن انفعالات أصيلة وصادقة . وبهذا الاستخدام الآلي المتعمد الذي طرأ على اللغة الطبيعية استخدمت أوجه البلاغة في التعبير عن مشاعر وانفعالات ليس لها وجود أصيل في نفوس الناس. وبذلك نشأت تلك اللغة المصنوعة التي يسمونها لغة شعرية،

فى النثر. وبعبارة أخرى فإن قانون الطبيعة الذى ينطبق على لغة الحديث العادى ليس له ما يسوغه فى لغة الشعر، وبخاصة حين ترد هذه اللغة فى قصيدة لها غاياتها ووسائلها المختارة لتحقيق هذه الغايات. وعلى ذلك فالقصاصد التى تجمع بين اللغة الطبيعية واللغة المصنوعة، بين التلقائية والقصد، بين الطبيعة والفن، هى التى تمثل الشعر الأصيل. وإذا كان كولريديج يتفق مع ورد زورث على ضرورة الانفعال فى الشعر، فإنه يرى أن كل انفعال يتطلب نمط التعبير المناسب له. أى أن اختلاف الانفعالات يقتضى تنوع أنماط التعبير التى تناسب كلا منها. ولكل حالة نفسية تعبير يتناسب معها. وكما يتطلب نوع الانفعال نوعا معينا من اللغة - فكذا الوزن - لأن العناصر المكونة للقصيدة يتأثر بعضها ببعض. إن كولريديج يرى الوزن تأثيرا مزدوجا ناشئا عن التتابع الزمنى والعروضى. وترجع متعة الشعر جزئيا إلى ما يكون لدى المتلقى من توقع سابق. ففى القراءة جذبات تتمثل فى التقدم والتقهر، يشبهها كولريديج بحركة الأفعى. ولهذا فالوزن ليس حلية إضافية كما ذهب إلى ذلك وردزورث لأنه عنصر من عناصر القصيدة لا بد أن يتفاعل مع بقية عناصرها لتحقيق الهدف المباشر لها وهو المتعة. والشعر على ذلك ليس فيضا تلقائيا للمشاعر بل هو عمل شاق تلتقى فيه الطبيعة والفن.

مستوى منها. وهذه المتضادات لا توجد فى عالم الطبيعة وحده وإنما توجد فى العالم المادى وفى عالم الفكر. وبذلك يحل التوفيق بين المتضادات عند كولريديج محل الطبيعة التى نادى بها ورد زورث. وإذا قيل أن المتضادات هى الطبيعة فإن التوفيق بينها هو الفن. لذلك يرفض كولريديج ما ذهب إليه وردزورث من أن لغة الشعر لا تختلف ولا يمكن أن تختلف عن لغة الحديث العادى لأهل الريف حين يعالجون أمورهم اليومية ويمرون بإنفعالات عادية. فاللغة عنصر من عناصر القصيدة كما أن الانفعال عنصر من عناصرها، ولابد أن تتوافق هذه العناصر مع غيرها من عناصر القصيدة لتسهم فى انساق وانسجام فى تحقيق الهدف المباشر للقصيدة وهو المتعة. ولتايد وجهة نظره يستشهد كولريديج بشعر وردزورث نفسه ليبين أن كثيرا من قصائده تخرج على مبدئه الذى ذهب إليه من حيث اللغة والموضوع على السواء، ويضيف أن الحياة الريفية تستتبع بالآخرى الضخونة وضيق الأفق لا الامتياز فى المشاعر واللغة. وأما تأكيد ورد زورث أن ليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك فرق بين لغة الشعر ولغة النثر، فإن كولريديج يرى أن هناك أنماطا من التعبير تصلح للنثر بطبيعتها لكنها لا تتسجم مع الشعر الموزون، وأن هناك نوعا من المفردات وأوجه البلاغة يناسب القصائد الجادة، ويبدو غريبا وشاذا

متسقا مع بقية عناصرها لأنه كغيره من هذه العناصر من إبداع الخيال.

\* \* \*

هكذا عرف كولريديج القصيدة، وبقي عليه كما وعد في الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية أن يعرف الشعر «من حيث النوع أو من حيث الجوهر»، لكنه قدم لهذا التعريف بملاحظة من شأنها أن تجعل للشعر مفهوما مستقلا عن مفهوم القصيدة. فقد لاحظ «أن كتابات أفلاطون وببشوب تيلور والنظرية المقدسة لبيرنيث تقدم أدلة لا تنكر على أن أرقى أنواع الشعر يمكن أن يوجد بدون وزن، بل حتى بدون الأغراض المميزة للقصيدة. فالفصل الأول من أشعيا شعر بكل ما في الكلمة من معنى . ومع ذلك فإنه يكون من غير المعقول بقدر ما هو غريب تأكيد أن المتعة وليست الحقيقة كانت الهدف المباشر للنبي. وباختصار فأيا كان المعنى المحدد الذي ننسبه لكلمة «شعر» فسوف تتضمن الكلمة بالضرورة - باعتبار ذلك نتيجة ضرورية - أن قصيدة أيا كان طولها لا يمكن أن تكون ولا ينبغي أن تكون كلها شعرا» (٢)، ومعنى ذلك أن الشعر جوهر لطيف يمكن أن يوجد في القصيدة كما يمكن أن يوجد في غيرها من أنواع الكلام - وإذا أخذنا في الحسبان أن هذا الجوهر هو من إبداع الخيال استطعنا أن نقول -

ومن العناصر المكونة للقصيدة والتي أولاها كولريديج قدرا كبيرا من الاهتمام عنصر الرمز، ذلك أن الفن ليس محاكاة للطبيعة فقط بل هو كذلك رمز لها . ذلك أن الخيال يعمل في الطبيعة وهي كما مر ليست الطبيعة المادية فقط وإنما هي تلك النقطة التي يرتكز فيها تفاعل ما هو مادي وما هو مثالي . وهنا يبدأ عمل الخيال الذي هو التوفيق بين هذه المتضادات والتوحيد بينها، فيوحد بين المادي والمجرد ثم ينفث في الكل الذي ينشأ عن هذا التوحيد من طبيعته، فيرتفع إلى مستوى أرفع من مستوى الموضوعات الخارجية، ويحول الكلمات التي يعبر بها عنه إلى أشياء عن طريق الرمز. والفكرة والرمز الذي يعبر عنها هما وسيلتا الشاعر لتمثيل روح الطبيعة أو الطبيعة الكلية، لأن الرمز هو الوسيلة التي يمكن بها تمثيل الفكرة . ولذلك يقابل كولريديج في السيرة الأدبية بين الرمز Symbol والكتابة Allegory كما قابل بين الخيال والوهم، وكما قابل بين العضوى والأولى. فالرمز وحدة الكلى والمعين لأنه يشارك فيما يرمز إليه، وبذلك يدل بوضوح على الكل (١) والرمز متضمن في الفكرة التي يمثلها، أما الكناية فهي ترجمة المجردات إلى صور. والرمز بهذا المعنى عنصر أساسي في المحاكاة لا تتم إلا به، ويوصفه عنصرنا من العناصر المكونة للقصيدة لابد أن يكون

1- See, P.S. Sastri, (Op . Cit.) P.218

(٢) راجع الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية.

طبيعتنا .

وإذا كان القارئ لم يخرج من هذا الفصل بتعريف منطقي للشعر كما خرج بتعريف منطقي للقصيدة، فإن كثيراً من الموجودات التي لا يتطرق الشك إلى حقيقة وجودها تستعصى على مثل هذا التعريف .

\* \* \*

ذلك تلخيص للخطوط الأساسية لنظرية كولريديج في الشعر . وإذا كان المذهب الرومانتيكي قد أصبح تاريخياً بوصف مذهباً أدبياً، فإن كثيراً من مبادئه لا يزال يسبح في جو الحركة النقدية إلى الآن . ومن الطبيعي أن يرجع أكثر ما بقي إلى اليوم إلى كولريديج، لأنه كان من بين الرومانتيكيين الذي ترك نظرية متكاملة في الشعر ونقده أرساها على أسس فلسفية وجمالية . لقد سار كولريديج في بحثه في هذه النظرية على مبدأ محاولة التعرف على الصفات المميزة للشعر والـ *raison d'etre* لهذه الصفات . وكما يقول « تبدأ الفلسفة بعملية تمييز وتنتهي باكتشاف كيف تشكل هذه الخصائص المميزة وحدة فيما بينها؟ كيف تختلف القصيدة عن الطرق الأخرى لاستخدام اللغة؟ وما نقطة الاختلاف بين هذا وذاك؟ وكيف نستطيع التعليل لنقاط الاختلاف على أساس من وظيفة القصيدة وطبيعتها؟ وهذا ما يمكن أن يسمى بطريقة التعرف على جوهر الأشياء - *onthologi* »

وفي كل أنواع النشاط الإنساني الذي يتسم بالعيقرية . ولذلك فليس من الضروري أن نقيّد الشعر بما تقتيد به القصيدة من وزن وقافية، وإذا لم يكن من الضروري أن تتكون كل أجزاء القصيدة من هذا الجوهر فإن صفة الشعرية لا تنتم لها إلا بوجوده . ونحن نوجد في بعض أجزاء القصيدة لأبد أن ينسجم مع بقية عناصر القصيدة التي لا يوجد فيها، لأن وحدة القصيدة لا تتحقق إلا بهذا الاتساق . ويرى كولريديج أن السؤال: ما الشعر؟ هو من الدنو من السؤال: ما الشاعر؟ بحيث تكون الإجابة على أحدهما متضمنة للإجابة على الآخر. ذلك أن الموضوع الذي يكيف الصور والأفكار والعواطف في ذهن الشاعر ناتج عن العيقرية الشعرية نفسها . ثم يمضي في وصف الشاعر في كماله المثالي بأنه يدفع روح الإنسان من كل أطرافها إلى النشاط مع ترتيب قدراتها المختلفة الواحدة أدنى من الأخرى حسب قيمة كل منها. ولذلك فإن إعجابنا بالشاعر إنما هو تابع لتمامنا مع الشعر. ويختم كولريديج هذا الفصل الرابع عشر من السيرة الأدبية بقصيدة للسير جون ديفيز عن الروح، ويرى أن القصيدة أكثر مناسبة للخيال الشعري . ومنها:

أما أنها تحول

الأجساد إلى أرواح عن طريق التماسي  
الغريب كما تحول النار الأشياء التي  
تحرقها إلى نار، وكما نغير نحن الطعام إلى

ريتشاردز يرد قدر كبير منه بمناسبة تحليل موضوع من الموضوعات على طريقة كولريديج، ويتجلى هذا بشكل أوضح عند إمبسون تلميذ ريتشاردز(٢).

ومما يتصل بعلم المعاني أيضا زيادة كولريديج للاتجاه الرمزي . فقد آمن كولريديج بأن الكلمات تخلق المعرفة . وذلك جزء من نظريته في الخيال باعتبار أن الشعر يبدهه الخيال عن طريق الوساطة بين الذات والموضوع. يقول كولريديج في رسالة له إلى جوبوين(١١ سبتمبر ١٨٠٠):

«أود أن تألف كتابا عن قدرة الكلمات ..... وهل التفكير غير ممكن دون علاقة اعتباطية؟ وإلى أي مدى تعد الكلمة الاعتباطية خطأ؟ ليست الكلمات... إلخ أجزاء عضوية؟ وما قانون نموها؟ في شيء من هذا وددت أن أحاول تعظيم المقابلة القديمة بين الكلمات وبين الأشياء متساميا بالكلمات إلى أشياء، وأشياء حية». إن كثيرا من التطورات الأخيرة في النظرية الأدبية يمكن أن نقرأ على أنها محاولات للإجابة على الأسئلة التي وضعها كولريديج أمام جوبوين. لقد شغل فلاسفة العصر الحاضر- كروتش وكولينجود وكاسيرر وسوزان لانجر - أنفسهم بالقوانين التي تحكم نمو الكلمات. ويمكن أن

cal approach أي النظر إلى الظاهرة ومحاولة التحليل لما هي عليه عن طريق الوقوف على وظائفها، وبهذا أدخل كولريديج هذا المنهج إلى نقد الشعر لأول مرة في إنجلترا . نقد تحدث سيدني قبله عما يمكن أن يوظف فيه الشعر ، وتحدث درايدن عما يمكن أن يصنعه الشعر، وتحدث وردزورث عما يجري في عقل الشاعر . لكن كولريديج مستخدما منهج أرسطو- وإن لم ينظر بالطريقة نفسها إلى الظاهرة - يعيد المسئولية إلى البحث الجمالي(١).

ومن الأفكار التي بقيت وأزدهرت بعد اختفاء المذهب الرومانتيكي - وهي ترجع إلى كولريديج - تحليلاته السيميائية وفحصه الدقيق المستوعب للتعقيدات اللفظية . وتكشف الإشارات المتكررة في السيرة الأدبية والمناقشات التي درت حول معاني الألفاظ، وخاصة ما أورده عن الوهم والخيال - من أن كولريديج كان واحدا من علماء المعاني. فقد اهتم بالكشف عن معاني الكلمات وحرص على معرفة سلوكها في الشعر. وقد قدم نماذج رائعة لتحليل الشعر، ومن ذلك مناقشته لفقرة من مسرحية (فينوس وأنونيس) لشيكسبير . وقد التقط ريتشاردز هذا الموضوع من كولريديج وأفاض في شرح العلاقات المتبادلة بين الصور المختلفة، لدرجة أن النقد العلمي عند

1 - David Daiches. An Introduction to the Study of Literature, pp. 100 - 101.  
2 - William Wimsatt and Cleanth Brooks, Literary Criticism, (New York 1959) pp. 639 - 37

الأمريكي الإنجليزى الحديث الذى يعرف بالنقد الجديد ، فقد استند هذا النقد إلى مفهوم «الشكل العضوى» الذى يرجع إلى كولريديج . ويفسر هذا المفهوم العمل الأدبى - وبخاصة فى الشعر - على أنه يبدأ بمثابة البذرة تنمو على غير وعى من الشاعر متشعبة بعناصر مختلفة . وقد استند النقاد الجدد على هذا فى تأكيدهم وحدة العمل الأدبى ، فأجرواؤه وعناصره لا يمكن بحثها منفردة لارتباطها الوثيق فى إطار ما يسمى بالشكل العضوى (٢).

إن كتاب السيرة الأدبية يمكن أن يعد بحق إنجيل النقد الجديد، وقد مال النقاد المعاصرون إلى أن يفترضوا إليه على أنه أعظم عمل نقدي فى اللغة الإنجليزية، وفى الصفحة الأولى من الكتاب يجد القارئ ما يمكن أن يعد بياناً بالنقد الجديد إذ يقول كولريديج : «..... ليكون ذلك مقدمة لعرض مبادئ فى السياسة والدين والفلسفة، وتطبيق القواعد المستخرجة من المبادئ الفلسفية على الشعر والنقد» . لقد سبق كتاب السيرة الأدبية زمانه بقرن من الزمان. ولم يمنع كولريديج من إرساء قواعد النقد الجديد كاملة إلا عدم كفاية المعلومات المتاحة. إنه على كل حال - باستثناء أرسطو - أعظم رواه (٤) .

يقال: إنهم قطعوا شوطاً بعيداً فى تحطيم المقابلة القديمة بين الكلمات والأشياء (١).

لقد كان كولريديج فى المجال الرمزي رائداً لصف طويل من النقاد الانجليز كما كان كذلك أيضاً بالنسبة للتجريديين الأمريكيين . فقد انغمس أتباع كولريديج من الأمريكيين فى معالجة قضية الرمز أكثر مما انغمس الانجليز. وكان رائداً لـ «پو» ومن ثم لـ «بودلير» والرمزيين الفرنسيين . كما أخذ أمرسون من كولريديج بطريق مباشر، وإذا كانت كتابات پو قد قدمت أول وثائق الحركة الرمزية . فقد صاغ منها أديبا صمغ ما أصاب الرومانتيكية من تفكك، وشذب ما كان فيها من مبالغات، وقد كان هناك قدر كبير مشترك بين شعريو وأشعار الرومانتيكيين مثل كولريديج فى «كوبلاخان». ويرى ويليك أن النقد الرومانتيكى يمكن أن ينظر إليه على أنه إقامة نظرة جدلية رمزية إلى الشعر . إنها تنشأ عن القياس العضوى ثم تنظر إلى الشعر على أنه وحدة الأضداد ونظام من الرموز . وتبدو هذه النظرة قيمة وصحيحة بصفة جوهرية حتى فى هذه الأيام . ونجسدها فى ذلك الوقت خارج المائتيا عند ناقدين بارزين هما كولريديج وهوجو (٢).

لقد كان كولريديج - مع كروتشه والرمزية الفرنسية - من السوابق المباشرة للنقد

1 - Ivid , p . 584 .

2 - Rene wellek, Ahistory of modern citicism, (op . it.) p . 3 .

٣ - رمان سيلون، النظرية الأدبية المعاصرة، ترجمة جابر عصفور (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩١) ص ١٥٥ هامش ٢١ .

4 - Stanley Edgar Hyman, The Armed Vision (New york 1955) pp . 13 - 14 .

## عالمية الشعر المكتوب بالإسبانية

## خوان رامون خمينيث والشعر

## فى

## إسبانيا وأمريكا اللاتينية

## د . حامد أبو أحمد \*

خوان رامون خمينيث شاعر إسباني كان له دور كبير في تأصيل عدد من الاتجاهات الشعرية في الشعر الإسباني خلال النصف الأول من القرن العشرين مثل حركة الحداثة، والحركة الرمزية، والشعر الصافي، وهذا الاتجاه الأخير بالتحديد يستحق فيه بجدارة صفة «الرائد» لأن دواوينه التي ظهرت فيه مثل ديواني «صيف» و«يوميات شاعر حديث الزواج» تعد من الأعمال المهمة التي كان لها أصداء قوية وتأثيرات حاسمة على الأجيال التالية. ولذلك فإنه من هذه الزوايا يعد الأستاذ المباشر أو الأب الروحي لأهم جيل في الشعر الصافي في إسبانيا وهو جيل ١٩٢٧.

تجده في أشعاره وفي كلماته النثرية يفخر بنسبته إلى موجير وإلى الأندلس، وكان يطلق على نفسه دائما صفتي «الأندلس العالى». ومن أقواله في ذلك: «إن مستقبلي، مثل ماضى، كامن في الأندلس. ونحن الأندلسيين لابد أن نهيم بحبها، ونرفع ذكرها في كل أنحاء العالم، بحيث لا تصبح

وخوان رامون خمينيث شاعر ينسب لمنطقة الأندلس الواقعة في جنوب إسبانيا، فقد ولد عام ١٨٨٩ في قرية موجير التابعة لإقليم ويلية Huelva، ويعد خوان رامون من الشعراء الذين يتميزون بإحساسهم الغامر تجاه المكان الذي ولوا فيه، وعاشوا على أرضه فترة طفولتهم وصباهم، ولهذا

\* أستاذ الأدب الإسباني بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر .

ومن أمثلة هذه اللغة النثرية الشعرية نقتطع المثال التالي من الفصل رقم ٩ الذي يحمل عنوان «التين»، يقول: «كان الليل نائماً تحت أشجار التين المعمرة مئات السنين بجذوعها الرمادية التي تتصل بطرافها القوية في الظل البارد كائنها تحت رداء، وكانت الأوراق العريضة التي وضعها آدم وحواء تخرن نسيجاً رقيقاً من لؤلؤ قطر الندى الذي تميل معه خضرتها الناضرة إلى شحوب، ومن هناك جعل يتراعى بين الياقوتة السفلى الفجر وهو يصبغ بلونه الوردي حجب المشرق التي لا لون لها» (٢).

فهذه المراثية الأندلسية كما أسماها المرحوم الدكتور لطفى عبد البديع عندما ترجمها ونشرت باللغة العربية عام ١٩٥٩، تدل على الهيام الذي كان يملك على خوان رامون جماع نفسه تجاه كل شارع وكل مكان وكل صخرة وكل شجرة.. الخ في موجير. ولهذا عندما عاش بعيداً عن إسبانيا بعد عام ١٩٣٦ أى عند نشوب الحرب الأهلية الإسبانية، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٩٥٨ كتب إلى موجير يقول: «وأنا منسحق وبعيد سأفعل من أجلك يا موجير، في عالم المثل، ما لم يرد أن يفعله مايا من أجلك هؤلاء الذين مسوك بالإثم، وهم المحتالون والأشباح والأناثيون. سأحملك يا موجير إلى كل البلدان، وكل الأزمان، وستكونين يا قريتي المسكينة خالدة بسببي رغم أنف الانتهازين» (٤).

هي عالمية، بل يصبح العالم كله أندلسياً (١) ولا شك أن هذه الكلمة، بما تنطوي عليه من مبالغة محبة، تدل على الحب الشديد الذي كان يشعر به خوان رامون تجاه الأندلس. واعتقد أن هذا الحب الغامر، الذي لم يقتصر فقط على الأرض بل تعدى ذلك إلى كل ما هو موجود على الأرض من ناس وكائنات أخرى حيوانية أو نباتية، كان هو الدافع وراء كتابته لعمله الشهير «حمارى وأنا» (Platero y yo)، والذي كان من أهم الأعمال التي أهدته للحصول على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٦ وهذا الكتاب عبارة عن مقطوعات، كل مقطوعة في حدود صفحة أو أقل أو أكثر من النثر الشعري أو الشعر المنثور، ترد على شكل تأملات أو على شكل حوارات شعرية بين الشاعر والحصار، لهذا فإن فصول كتاب «حمارى وأنا» ليست إلا قصائد نثرية تخلت تماماً عن المعمار التقليدي للشعر واستعاضت عنه بالموسيقى الداخلية، وبالصور الشعرية البسيطة والمركبة، وبالتحليق في سباحات الخيال، وبناء عالم غير مألوف على الرغم من استناده إلى أجزاء الواقع الحى. وقد تميزت اللغة بالكتكثيف القائم إما على الإيجاز أو السرعة أو البطء. كما يبدى الشاعر مرونة كبيرة في استخدامه للجملة النحوية، وفي بنائه للصورة الشعرية، حتى لينبئ عالمه الشعري في بعض الأحيان وكأنه عالم أسطوري لا يمت إلى الواقع بصلة (٢).



عامة، لكن يبدو أن إسبانيا قد أقسحت المجال لنشوء ثقافات قومية في البلاد التابعة لها، ومن هنا بدأت تظهر شخصيات أدبية مهمة، بل وثقافية مثل فرأى بارتولومي دى لاس كاساس (١٤٧٤ - ١٥٦٦م)، الذى يعد أول مؤرخ كبير في أمريكا اللاتينية، وله كتاب عنوانه «التاريخ العام لبلاد الهند الحمر» يقال إنه كتبه عام ١٥٢٠م لكنه لم يطبع إلا في عام ١٨٧٥م، وكتب أيضاً «الوجيز في التعريف بتخريب بلاد الهند الحمر». وقد قدم هذا الكتاب إلى العاهل الإسباني عام ١٥٤٢م مما أدى إلى دعوة مجلس مدينة وادي الوليد Valladolid للانعقاد بحضور الامبراطور نفسه حيث دافع لاس كاساس عن حرية الهند الحمر على عكس ما كان يطالب به قناصله آخرون. وقد أسفر احتدام المناقشات داخل المجلس عن ظهور «القوانين الجديدة» التى أصدرها الامبراطور شارل الخامس خلال عامى ١٥٤٢ و ١٥٤٣، والتى حرم فيها لأول مرة نظام «المنح»، الذى كان يسهل عمليات استعباد الهند الحمر. ومن الملاحظ أن أهالى بلدان أمريكا اللاتينية للأمريكين قد استوعبوا اللغة القشتالية (الإسبانية) بسرعة، ومن ثم لم تلبث أن ظهرت شخصيات أدبية كبرى مثل الإنكا جارتيلاسودى لابيغا الذى ولد في كوتكو عام ١٥٣٩، وكان أبوه من قادة الفتح الإسباني بينما كانت أمه إيزابيل شيمبو

وفى هذه الدراسة سوف أتناول شعر خوان رامون خمسينيث من خلال ثلاث أطروحات مهمة هي :

١ - حركة المناخفة (أو التأثير والتأثر) في مجال الأدب بين إسبانيا وأمريكا اللاتينية.

٢ - عالمية الشعر الإسباني خلال النصف الأول من القرن العشرين.

٣ - إسهام الشعر الإسباني في ظهور حركة الشعر الحر في العالم العربي .

فيما يتعلق بالأطروحة الأولى نجد أنها تمثل موضوعاً مهماً في مجال تبادل التأثير والتأثر بين الشعوب والحضارات، فمعروف أن الوجود الإسباني في بلدان أمريكا اللاتينية بدأ منذ عام ١٤٩٢م أى منذ اكتشاف الأمريكتين على يدى كريستوفر كولومبس (والإسبان يسمونه كولون Colon) بدعم وتمويل من الملكيين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيل. ومن العادة أن يقارن مؤرخو الثقافة والحضارة بين ما فعلته إسبانيا في البلدان التى كانت خاضعة لها والتي سميت بلاد أمريكا اللاتينية أو الإسبانية وما فعلته دول أخرى مثل إنجلترا في المناطق الخاصة بها. وتأتى المقارنة عادة لصالح إسبانيا على الرغم من المجازر البشعة التى حدثت للهند الحمر وغير ذلك من صنوف النهب والاستغلال التى عرفت عن المستعمرين الأوربيين بصفة

مجموعته الشعرية الأولى «رسائل وأشعار» عام ١٨٨٤م ثم صدر ديوانه الثاني «أزرق» Azul عام ١٨٨٨ . وهذا الديوان أثار انتباه النقاد في إسبانيا بعد أن نوه به أكبر أديب إسباني في ذلك الوقت وهو خوان باييرا Juan Valera ثم ظهر ديوان «نثرات دنيوية» PROSAS PROFANAS عام ١٨٩٦ . وقد قال الشاعر الناقد دامسو ألونسو ( من جيل ١٩٢٧ ) عن هذا الكتاب «إن ديوان «نثرات دنيوية» قد نقل إلى إسبانيا روح قرن كامل من الشعر الفرنسي. وأعتقد أنه منذ يوم غرناطة الشهير لم توجد لحظة أكثر تفاعلاً وأكثر امتلاءً بآثار الفجر العذراء من هذه اللحظة . ويوم غرناطة الذي يشير إليه دامسو ألونسو يوم مشهود في تاريخ الشعر الإسباني في العصر الذهبي (القرنان السادس عشر والسابع عشر) لأنه اليوم الذي التقى فيه ناباخيرو Navajero قنصل إيطاليا في غرناطة مع خوان بوسكان أحد الشعراء الإسبان في تلك الفترة، والذي كان يبحث عن طريق جديد للشعر الإسباني، ووجه ناباخيرو سؤالاً إلى بوسكان: لماذا لا تجربون كتابة الشعر على الطريقة الإيطالية المستحدثة، أي الأوزان الجديدة والمعاني الجديدة التي أبدعها شاعر عصر النهضة الإيطالي بترارك. ومن العجيب أن الشاعر الذي اقتنع بهذه الفكرة ومثلها خير تمثيل في شعره هو جارتيلاسو دي لايبجا صديق بوسكان وزميله في

أميرة من قبائل الإنكا، وأهم أعماله كتاب «تعليقات واقعية»، الذي نشر في جزاين عامي ١٦٠٥ و ١٦١٦م، وهذا الكتاب يعد تاريخاً، وملحمة، وقصة في آن، وقد قال ناقد من أمريكا اللاتينية منذ فترة قليلة: «إن الأدب الحقيقي في هذه القارة بدأ بأديب من بيرو هو الإنكا جارتيلاسو دي لايبجا، وبلغ قمته في أيامنا الحاضرة بأديب آخر من بيرو أيضاً هو ماريو بارجس يوسا». وهناك أيضاً سور خوانا إنيث دي لاكروث (المسيك ١٦٥١ - ١٦٩٥م)، وتعد من أكبر شاعرات المكسيك وأمريكا اللاتينية. وللشاعر المفكر أوكتابيويث (نوبل في الآداب ١٩٩٠)، كتاب كبير ومهم عنها.

وهكذا أخذ يتوالى ظهور الشخصيات الأدبية المهمة في بلدان أمريكا اللاتينية. لكن الأدب والثقافة بصفة عامة في تلك البلدان - فيما عدا ثقافة التمرد والتحرر من المستعمر بالطبع - ظلت متأثرة بما يحدث في البلد الأم (إسبانيا) إلى أن جاءت الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي، وهنا أخذت الآلة تنقلب، لأن جانباً كبيراً من التأثير منذ تلك الفترة بدأ يأتي من أمريكا اللاتينية. وأول من بدأ هذا التأثير المهم والقوي هو شاعر نيكاراجوا روبن داريو (١٨٦٧ - ١٩١٦)، الذي يعتبر بحق رائد الحداثة في الشعر المكتوب باللغة الإسبانية، وكان تأثيره في إسبانيا لا يقل بأية حال عن تأثيره في أمريكا اللاتينية. نشر روبن داريو

فى حالة واحدة فقط هى عندما يتحول الشيء الجميل إلى عمل فنى ذى قيمة. ولعل هذا هو الذى جعل داريو يفكر فى أن تجسيد الجمال فى الشكل الشعرى أمر تحدده الموسيقى .. ومن ثم فإن نور روبن داريو فى التجديد المروضى فى غاية الأهمية»(ه).

وبهذا كان تأثير روبن داريو فى الشعر الإسباني حاسماً وقوياً، وقد بدأ الشعراء فى إسبانيا ، حتى الكبار منهم مثل سلفادور روبدا وفرانثيسكو بياسبيسا يتأثرون به وينضمون إلى حركته المسماة حركة المداثة EL MODERNISMO، وأخذ شباب الشعراء يتطلعون لهذه الحركة، وينضمون أيضاً إليها، وشاعت لدى الجميع مقولة «التضامن للدفاع عن حركة المداثة»، لدرجة أن بياسبيسا أرسل إلى الشاب خوان رامون فى أوائل عام ١٩٠٠م بطاقة موقعة أيضاً من روبن داريو (الذى كان قد حضر إلى إسبانيا) يخاطبه فيها بالأخ ويدعوه للذهاب إلى مدريد (وترك موطنه فى الأندلس) للكفاح معهم من أجل الموديرنزم وقد فرح خوان رامون بهذه الدعوة فرحاً شديداً، وحزم حقائبه وتوجه إلى مدريد، ليبدأ الرحلة الأولى فى طريقه الشعرى الطويل شاعراً من شعراء الحركة الحديثة، ويصدر بعد ذلك بقليل ديوانيه «حوريات» Ninfeas و «أرواح البنفسج» Almas de violeta ، وهما ديوانان ظهرت فيهما

البحث عن طريق جديد للشعر الإسباني. وما يهمنا هنا هو الربط الذى قام به دامسو ألونسو بين يوم غرناطة المذكور، الذى أدى إلى حدوث تغيير جذرى للشعر الإسباني فى القرن السادس عشر، وبين تلك اللحظة من عام ١٨٩٦، التى ظهرت فيها كتاب «نثریات دنيوية» لروبين داريو، لأن داريو هو الآخر قد قام بمهمة شبيهة، إذ نقل إلى الشعر الإسباني روح مرحلة مهمة من الشعر الفرنسى، وهى التى تألفت أثناءها، خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، مدرستان فى غاية الأهمية وهما البرناسية والرمزية. وفى هذا يقول الناقد النمساوى الدارس للثقافة الإسبانية جوستاف سييمان: «إن أعمال روبن داريو كانت بمثابة حلقة اتصال استطاع الشعر الإسباني من خلالها أن يقترب من الشعر الأوروبى الذى عاش فترة ازدهار هائلة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ولهذا نجد موضوعات روبن داريو تتميز بكثرة العناصر الأوربية حيث نجد بها أساطير قديمة، وحكايات من العصر الوسيط، وذكريات من العصر الذهبى ومن الرومانتيكية الفرنسية. كما أن الفنون الأخرى مثل الرسم والنحت والموسيقى قد لعبت لوراً مهماً فى أعمال داريو. وثمة شيء آخر هو أن النسق الشعرى عند داريو، مثله فى ذلك مثل أى شاعر أوروبى حديث، له أهمية حاسمة: فالشعر لا يمكن تبريره إلا

متجردة.....، وغطوا بالقبلات البيضاء قلبها الأبيض!

ولا شك أن خوان رامون خمينيث لم يلبث أن ابتعد عن شعر الحداثة بحثاً عن طريقه الخاص وأصالة الشعرية، وأثناء ذلك اتصل عن قرب بالحركة الرمزية عندما ذهب إلى المدينة الفرنسية بورو للاستشفاء في إحدى المصحات القريبة منها، وقد كتب عدداً من دواوينه الشعرية تحت تأثير هذه الحركة التي وصلت دائماً بآثارها كانت كونيّة، أي كان لها تأثير عامر على كل شعراء العالم في تلك الفترة وكثيرون منهم اشتبكوا فيها إما بانتقالهم جسدياً إلى باريس أو بتعمّل خصائصها عن بعد. ولكن خوان رامون سوف يكتب بعد ذلك شعره الصافي، الذي يمثل إبداعه الحقيقي والذي كان له تأثير كبير وأصداء واسعة لدى الجيل التالي له. وقد أعلن خوان رامون في قصيدة مشهورة له (تعد بمثابة بيان أو مانيفستو لتطوره الشعري) تمسكه إلى الأبد بهذا الشعر، على نحو ما يقول:

جاءت، في البداية، صافية،

ترتدى رداء البراءة

فأحببتها مثل طفل.

ثم أخذت في ارتداء

أزياء لست أدري كنهها...

فأخذت أكرهها، دون أن أدري

خصائص الحركة الصديشة مثل تلوين الإحساس، والتعبير بالرمز والأسطورة، والتحرر والتجديد العروضي وغير ذلك مما نجده في تلك الكلمة التي قدم بها فرانثيسكو بياسيسا لديوان «أرواح البنفسج»، إذ قال: «إن الاتجاهات الأدبية الحديثة تجذب يوماً بعد يوم عدداً كبيراً من الأرواح المتحمسة. وعلى الرغم من أننا لا نعدم وجود بعض الاتجاهات المسكينة التي تخصي شخصيتها كي تصبح مجموعة من الخصيان ضمن حريم الشيوخ العاجزين، فإن الشباب، الشباب المكافح الواعد يتجمع حول العلم (يفتح العين واللام)، عازمين على غزو الاتجاه الامثل في جد ومثابرة. إن الفن الجديد متحرر وكريم وكوني. إنه يجمع مميزات الشباب ونقائصهم، وهو خالد بالطبع، صوفي بالوراثة، وثق بالمزاج» (٦)، ومن أشعار خوان رامون في تلك الفترة نقتطع هذا الجزء من قصيدة «شذى»  
Perfume من ديوان «حوريات»:

آه أيتها الورد، أيتها الأزهار أيتها  
السنابل، أيها الياسمين!

آه أيتها الزهور العذراء بالحدائق  
المنعشة!

أعطوا للأزرق الهادي أغنييتكم  
الصافية....

ولتشابك ثورياتكم .... ، وفي باقة  
مستجة، طوقوا الجبهة النبيلة لزهور

الحاسم في قصائد هذا الديوان: إنه إيقاع الحب والبحر والشوق والتفكير، وهو إبداع الكلمة في حركتها عند الذهاب وعند الإياب، حيث تتبع من تجربة جياشة، والشاعر ينطلق في معظم الأحيان - وإن لم يكن بالضرورة - من حدث أو شيء أو اسم ماء (٨) وقد توالى بعد ذلك دواوين أخرى مثل «خلوديات»، و«حجر وسماء»، و«جمال»، و«شعر»، وكلها تسير في طريق الشعر الصافي، حتى كانت المرحلة الأخيرة من شعره أثناء إقامته في أمريكا اللاتينية، حيث ظهرت دواوين «المحطة الكاملة»، و«حيوان من الأعماق»، و«والله المريد والمراد»، وهي - كما هو واضح من عنوانها - تنزع نحو الشعر الصوفي، وهو شعر كانت المدارس الفرنسية ابتداء من الرمزية قد توسعت فيه، وكانت له أصداء واسعة في كل أنحاء العالم، بما في ذلك عالمنا العربي، حيث من المعروف أن أنونيس (على أحمد سعيد) كان أكثر شعرائنا تأثراً بهذا الاتجاه، وقد انتقل هذا التأثير بشكل موسع إلى الأجيال التالية وخاصة من نطلق عليهم جيلي السبعينات والثمانينات (٩) ولا شك أن هذه التوجه الصوفي عند خوان رامون شديد الاختلاف عن التوجهات الفرنسية، لأن خوان رامون بعد تأثره الأول بحركة الحداثة كان شديد الحرص على استقلاله الذاتي لدرجة أنه حاول أن ينفي أى تأثير عليه للرمزية الفرنسية (١٠).

ثم أصبحت ملكة،  
مزينة بكثير من الكنوز  
يالها من أشياء بلا معنى!  
... لكنها أخذت تتعري  
وأنا أبتسم لها.  
ثم عادت إلى مسوح  
براعتها القديمة،  
فأمنت من جديد بها.  
ثم رفعت مسوحها،  
وظهرت عارية بالكامل...  
أه يا حلم حياتي، أيها الشعر  
العاري، أنت لى إلى الأبد. (٧)

ولعل أخصب فترة في حياة وأعمال خوان رامون خمينيث هي فترة العقدين الأول والثاني من القرن العشرين، وقد ظهرت أثناءهما أهم أعماله الشعرية والنثرية، والأخيرة يمثلها بالتحديد كتابه المذكور «حمارى وأنا». أما أعماله الشعرية من الشعر الصافي فتتمثلها دواوين «صيف» Estio عام ١٩١٥، وديوان «يوميات شاعر حديث الزواج» (١٩١٦) وغالبية النقاد يعتبرون ديوان اليوميات أفضل أعماله على الإطلاق. وفي ذلك يقول ناقده ريكاردو جيون: «إنه كتاب مجدد بشكل عظيم، كما أنه أضفى على الشعر الإسباني مرونة وحيوية وحرية، والإيقاع هو العنصر

عالمية الشعر الإسباني في النصف الأول من القرن العشرين،

شهد النصف الأول من القرن العشرين نهضة شعرية قوية، كان لها إرهابات ومقدمات خلال الربع الأخير من القرن السابق، وربما قبل ذلك بقليل لدى ظهور الشاعر الإشبيلي جوستافو أدولفو بيكر، والشاعرة الجليقية روساليا دي كاسترو وكلاهما ينسب للحركة الرومانسية لكنهما كانا معاصرين للحركة البرناسية في فرنسا وأيضاً لطلائع الحركة الرمزية، لكن يبدو أنهما لم يكونا على صلة مباشرة أو غير مباشرة بهاتين الحركتين، وكأنهما قد تركا هذه المهمة لكي يقوم بها فيما بعد الشاعر النيكاراجوي روبن داريو كما رأينا من قبل. وقد بدأت الأجيال الأدبية والشعرية تتوالى بعد ذلك، حيث ظهر في نهايات القرن التاسع عشر جيل ٩٨ نسبة إلى عام ١٨٩٨ وهو العام الذي شهد هزيمة إسبانيا أمام الولايات المتحدة الأمريكية في ميهاء بويرتوريكو والفلبين، ومن ثم ضياع آخر مستعمرتين للإسبان فيما وراء البحار. لهذا كان جيل ٩٨ هو جيل البحث عن أسباب الهزيمة، وبالتالي فهو الجيل القومي بامتياز. وربما بسبب انشغاله بالقضايا الوطنية والقومية لم يكن يهتم كثيراً بمسائل التجديد الشكلى والجمالى للشعر. وكان كل هم أقراده هو التنقيب عن الأشياء التى تزيج الهزيمة عن كاهل إسبانيا وتدفعها إلى

النهوض. ومن أهم أفراد هذا الجيل الشاعر الفيلسوف والروائى والناقد والاستاذ الجامعى ميغيل دى أونامونو، والشاعر أنطونيو ماتشادو وكاتب المقال الفلسفى المختصر خوسيه مارتينيث رويث (أثورين)، والروائى بيو ياروخا.. الخ ويلاحظ أنهم كانوا ينسبون إلى مناطق مختلفة فى إسبانيا، فعنهم الباسكى، والقشتالى، والأندلسى والقطالانى وغير ذلك. وقد تزامن ظهور هؤلاء مع إنشاء معهد التعليم الحر فى مدريد، وهو مؤسسة تعليمية حرة لعبت دوراً مهماً فى النهوض فكرياً وثقافياً بإسبانيا. وبعد جيل ٩٨ ظهر جيل آخر يضم مجموعة من كبار الكتاب والشعراء أشير من بينهم إلى شاعرنا خوسان رامون خمينيث، والفيلسوف المشهور خوسيه أورتيجا إي جاسيت. ويلاحظ أنه فى نفس المراحل السابقة بدأت تظهر أجيال متوالية من المستعمرين الإسبان الذين كان لهم أيضاً دور كبير فى البحث عن الأصول والجنود فى الثقافة الإسبانية. وهذا الفرع الثقافى، أقصد البحث عن الجنود، برز فيه عدد كبير من المفكرين سواء من داخل دائرة الاستعراب أو خارجها، ويكفى أن نذكر هنا اسم العلامة رامون ميثينديث بيدال الذى لم يكن يعرف العربية لكنه أثنا بحثه عن الأصول والجنود عرج على موضوعات إسلامية كثيرة، تدل على ذلك عناوين بعض كتبه مثل «إسبانيا حلقة وصل بين المسيحية

جيل الشعر الصافي في إسبانيا، وقد اعترفوا بريادة خوان رامون خمينيث لهذا اللون من الشعر، وأكد النقاد الإسبان هذه المقولة، ومن ذلك ما قالته الناقدة أوريلا دي ألبورنوس من أن خوان رامون هو الشخصية الشعرية التي جاءت بعد روبن داريو، ومارس تأثيراً كبيراً على شعر إسبانيا وأمريكا اللاتينية خلال السنوات الأولى من هذا القرن، وقد أشارت إلى أن أثره بدأ يظهر في شعر بدور ساليانس الأول، وعند خورخي جيين في ديوانه «أغاني» Cantico، كما ظهر كذلك في أشعار لوركا ورفائيل ألبرتي، وهما أكثر شعراء هذا الجيل ميلاً إلى الشعر الشعبي مثل الرومانس Romance والأغنية (١١).

وهذه العالمية في الشعر الإسباني تردفها وتضيف إليها عالمية الشعر في أمريكا اللاتينية أيضاً خلال تلك الفترة، فبالإضافة إلى الأسماء التي ذكرناها مثل أويديرو وبايخو، نجد أسماء أخرى كثيرة نالت شهرة عالمية في مجال الشعر مثل بابلوتيرودا (شيلي) ولويس بورخيس (من الأرجنتين)، والمكسيكي أوكتابيوس، وجابرييلا ميسترال وسواهم. وكل هذا يدل على أن الشعر في إسبانيا وأمريكا اللاتينية اكتسب مساحات عالمية واسعة، وتخطى مرحلة التأثير المحلي ليكون له تأثيره القوي في كل أنحاء العالم.

والإسلام، و«الشعر العربي والشعر الأوربي»، و«السيد القبيطور» عن إسبانيا في عصر السيد، صاحب الملحمة الشهيرة «ملحمة السيد» التي تتناول فترة مهمة من وجود العرب في الأندلس.

تعود إلى الشعر فنجد الشعر الإسباني خلال العقد الثاني من القرن العشرين ينطلق بصورة قوية سواء على يد شعراء إسبان مثل خوان رامون وأنطونيو وما نويل ماتشادو وغيرهم، أو على يد شعراء من أمريكا اللاتينية كانوا رواداً لما سمي الحركات الطليعية Las vanguardias مثل بيثنتي أويديرو رائد الحركة الإبداعية Creacionismo، وثيشار بايخو وسواهما. ثم شهد العقد الثالث من القرن العشرين ظهور أعظم أجيال الشعراء الإسبان على الإطلاق وهم جيل ١٩٢٧، ومن أبرز أعلامه فيديريكو جارتيا لوركا، ورفائيل ألبرتي، وبيثنتي أكساندر (نويل في الأدب ١٩٧٧)، وخورخي جيين، وخيراريدو ديبيجو، ولويس ثيرنودا، وما نويل التو لاجيري وغيرهم. وهذا الجيل بالتحديد هو الذي وضع الشعر الإسباني في مصاف أهم الشعر في القارة الأوربية ولهذا احتفى الألماني هوجو فريديش بهؤلاء الشعراء في كتابه المهم «الشعر الحديث من بودلير حتى الوقت الحاضر»، وهو الكتاب الذي ترجمه الدكتور عبد الغفار مكاي وتوسع فيه تحت عنوان «ثورة الشعر الحديث». وجيل ٢٧، هو

فإذا ما وجدوا أن إليوت استخدم كلمتي «الأرض الخراب» وجاء شاعر عربي واستخدم الكلمتين (لأن waste land يمكن ترجمتها بترجمات مختلفة وليس بالأرض الخراب فقط) قالوا إن هذا الشاعر قد تأثر بإليوت . وإذا ما استخدم شاعر آخر الحوار داخل القصيدة، والحديث اليومي قالوا إنه متأثر به . ولكننا عندما نفحص معظم هذه الدراسات - والكلام مازال الليبائي - نجد أنها دراسات بائسة تنفقر إلى العمق.

وإذا كان هذا هو رأي الليبائي في تأثير إليوت على جيله من الشعراء فإن رأيه في تأثير لوركا مختلف تماما . وفي ذلك يقول: «أما بالنسبة للوركا فهو نسيج وحده . ولعل الموروث الشعبي والفولكلوري والأسطوري والفنائي الذي ورثه عن شعبه (شعب الأندلس) هو تراث مشترك بين شعوب البحر المتوسط قاطبة، نظراً للتشابه الجغرافي، والبيئي، والتاريخي، والديني، والسيكولوجي والاجتماعي، وخاصة أن الأندلس لازالت تحتفظ بموروثها العربي الإسلامي وبذاكرتها الجماعية العربية الإسلامية» (ص ١٠٠). ويوضح الليبائي كيف يكون التأثير قائلاً: «إنه ليس التأثير الذي يتحدث عنه الدارسون والنقلا بشكل بئس سطحى. فرسام عظيم مثل بيكاسو سئل ذات مرة عن سر عبقريته وعظمته فقال لأنه تغذى ويتغذى باستمرار على المواهب

الشعر الإسباني وحركة الشعر العربي الحر؛

قد تكون هذه فرصة لمناقشة مشكلة شبه دائمة في الثقافة العربية المعاصرة وهي أن الترجمة في كل الأحيان انتقائية في جميع المجالات، أو بتعبير آخر تتم على أيدي أفراد مهما كانت قدرتهم على الاستيعاب فإنها لا تتجاوز حدود الطاقة الفردية. حدث ويحدث هذا في كل فروع المعرفة بما في ذلك الآداب والفنون، ولذلك كثيراً ما نجد شاعراً أو كاتباً عالمياً مشهوراً (وفي أحسن الظروف عدداً من الكتاب والشعراء) هم الذين يستحوذون على كل الاهتمام في العالم العربي . وعلى سبيل المثال فإن أشهر شاعرين كان لهما أصداء قوية عندنا إبان ظهور حركة الشعر الحر في أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات هما من العالم الأنجلو ساكسوني ت . س . إليوت، ومن إسبانيا فيديريكو جارشيا لوركا . وأذكر أنني ناقشت الشاعر عبد الوهاب البياتي في هذه القضية في حوارى المطول معه الذي نشر في كتاب تحت عنوان «القيثارة والذاكرة» (١٢)، وكان رأيه أنه قد بولغ في تأثير إليوت على الشعر العربي، وكان ذلك بسبب حملة الشهادات الذين درسوا في معاهد الغرب، وعادوا لكي يكونوا كُتّاباً، ولكنهم لا يملكون إلا رسائلهم التي كتبوها استرضاء لأساتذتهم أو تملقاً لثقافة البلد الذي درسوا فيه، أو خدمة مجانية لوجه الله. وقد بدوا يؤلفون الكتب في هذا التأثير



ولا شك أن هناك حادثة مشهورة وقعت في الستينات تدل على أن خوان رامون في ذلك الحين كان يحظى بمعرفة واسعة لدى المثقفين، بمن في ذلك كتاب النقد الصحفي السريع، وهذه الصادرة هي اتهام كاتبنا المسرحي الكبير توفيق الحكيم بأنه سرق أعماله عن الصمار من هذا الشاعر الإسباني. وقد درست هذه المسألة دراسة أكاديمية متمهلة في مقالتي المذكور في الهامش «بين حمار الحكيم وحمار خمينيث» واكتشفت أن الصلة بين الصمارين وأهية جدا، مما يدل على أن الصحافة الأدبية تخلق في كثير من الأحيان قضايا وهمية لشغل القراء بأشياء ساذجة وبسطية. لكن الحملة الصحافية ضد توفيق الحكيم كان لها دلالة على أن خوان رامون كان ملء السمع والبصر في ذلك الوقت في العالم العربي. ولعل هذا من الأسباب التي حفزتني إلى دراسة شعره في أطروحتي للدكتوراه والتي تقدمت بها لجامعة مدريد - Com-plutense في مارس ١٩٨٣، ثم ترجمتها بعد ذلك إلى اللغة العربية تحت عنوان «رائد الشعر الإسباني الحديث خوان رامون خمينيث»، ولعلها - حسب معلوماتي - هي الدراسة الوحيدة باللغة العربية المستقاة من مصادر إسبانية، لأن كتاب العقاد كتب من خلال لغة وسيطة هي الإنجليزية. وقد ترجمت قصائد كثيرة لخوان رامون في العالم العربي، من ذلك ثلاث عشرة قصيدة

الصغيرة. وهكذا الأمر بالنسبة للشعراء المبدعين: إنهم يتأثرون بكل ما يحدثونه، ويرونه، ويسمعونه، ويشمونه، ويقرأونه، ويجربونه. وكما أن الأشجار المثمرة في الغابة لا يمكن أن تقف وحدها هكذا عارية في الغابات والبيساتين بدون وجود المشائش والأشجار المثمرة الأخرى فكذلك الأمر بالنسبة للشعراء» (ص ١٠٠ - ١٠١). وبهذه الكلمات وغيرها في الحوار المذكور اعترف البياتي صراحة بتأثير بلوركا على النحو الذي فهمه هو وغيره من الكتاب والشعراء الموهبين بخصوص التأثير والتأثر. والسؤال الآن لماذا كان لوركا هو أكثر الشعراء الإسبان تأثيراً على جيل الخمسينات الشعرى العربى؟ ولعل أكثر الإجابات قرباً من الصدق - في رأينا - هي أن موت لوركا المأسوي في بداية الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ كان له نور في ذلك، إضافة إلى قامته لوركا الشعرية العالية بالطبع. وإذا كان خوان رامون أيضاً من القامات العالية فإن التعرف على أعماله في العالم العربي لم يتأخر كثيراً عن لوركا. لقد كان فوزه بجائزة نوبل في الآداب عام ١٩٥٦ فرصة طيبة لأن تبدأ الكتابة عنه وترجم بعض أشعاره إلى اللغة العربية، وما كتب عنه الكتاب المشهور لمباس ومصمود العقاد «شاعر أندلسي وجائزة عالمية»، وترجم الدكتور لطفى عبد البديع - كما أسلفت - كتابه الشهير «حمارى وأنا»،

نشر جرينوس، مدريد، ١٩٧٣، ص ٧٦ وما بعدها .

(٦) من مقدمة فرانثيسكو بياسيس ديوان «أرواح البنفسج»، الأعمال الكاملة للشاعر خوان رامون خمينيث، المجلد الأول، ص ١٥١٧ .

(٧) خوان رامون خمينيث، الأعمال الكاملة، الجزء الثاني، ص ٥٥٥ .

(٨) ديكاردو جيون، تحول في شعر خوان رامون، مجلة إنسولا Insula، العدد ٤١٦ - ٤١٧، ص ٥ .

(٩) انظر في ذلك، كمال نشأت، «شعر الحداثة في مصر - الابتداءات، الانحرافات، الأزمة»، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨ .

(١٠) فصلنا هذه المسألة في كتابنا «رائد الشعر الإسباني الحديث خوان رامون خمينيث» بالفصل الخامس وعنوانه «خوان رامون والشعر العربي الأندلسي»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦ .

(١١) وردت هذه الكلمة ضمن الدراسة التي قدمت بها الناقدة المذكورة لكتاب «المختارات الجديدة لخوان رامون»، برشلونه، ١٩٧٣ .

(١٢) عبد الوهاب البياتي - القيثارة والذاكرة، مواقف عربية لنذن - روما، ١٩٩٤ م .

ضمن مختارات الدكتور عبد الغفار مكاوي في الجزء الثاني من كتابه المذكور «ثورة الشعر الحديث». وعلى أية حال سوف يظل خوان رامون، ذلك الأندلسي العالمي كنزا للشعر والإبداع نعترف منه حين نشاء.

هوامش:

(١) من خطاب أرسله في ١٩ يولييه عام ١٩٢٤ إلى أخت الشاعر المشهور جارشيا لوركا واسمها إيزابيل. وقد نشر بعد ذلك في كتاب «Olvido de Granada» (نسان غرناطة)، مكتبة الكُتَّاب والموضوعات الغرناطية، غرناطة، ١٩٦٩، ص ٦٣ .

(٢) انظر لكاتب هذه السطور دراسة مطولة تحت عنوان «بين حصار الحكيم وحصار خمينيث» ضمن كتاب «قراءات في أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية» الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣ .

(٣) نقلنا هذه الفقرة من ترجمة أستاذنا المرحوم الدكتور لطفى عبد البديع للكتاب كاملاً تحت عنوان «أنا وحصاري مرثية أندلسية» نشر دار المعارف بالقاهرة، عام ١٩٥٩ .

(٤) وردت هذه الكلمة في كتاب جارشيا ب . دي نيميس، حياة وأعمال خوان رامون خمينيث، دار نشر جرينوس، مدريد، ١٩٧٤، الجزء الأول، ص ١٥ .

(٥) جوستاف سييمان، الأساليب الشعرية في إسبانيا منذ عام ١٩٠٠، دار

# مفهوم الأمن القومي في عصر المعلومات



د . جمال علي زهران \*

قبل أن ينتهي القرن العشرين ، نندخل إلى ، أو يدخل علينا ، القرن الحادي والعشرين ، فإننا عايشنا عصرًا جديدًا ، هو عصر المعلومات الذي تبلور بعد أن بدأ ، ثم يشهد تطوراً متلاحقاً دونما توقف ، لذلك فإن التسميات العديدة لهذا العصر ومنها ، التدفق المعلوماتي ، والفيض المعلوماتي ، وثورة المعلومات ، والانضجار المعلوماتي أو المعرفي ، ، تعكس مدى الاهتمام العالمي بهذه القضية التي تؤكد أن العصر الذي نعيش فيه في ظل ثورة المعلومات ، هو عصر الهيمنة المعلوماتية ، وليس مجرد الهيمنة الاقتصادية أو العسكرية ، وهذا يرجع إلى مدى الأهمية التي تمثلها المعلومات والأدوار المتعددة التي تلعبها المعلومات في حياة الدول والشعوب ، وصناع القرارات في كافة أنواعها السياسية والاقتصادية ، سواء أكانت استراتيجية طويلة المدى أم تكتيكية قصيرة المدى .

\* أستاذ ورئيس قسم العلوم السياسية بكلية التجارة ببورسعيد . جامعة قناة السويس .

وسائل الإتصال المعلوماتية.

ولتبيان العلاقة بين الأمن القومي وعصر المعلومات الذي نعيشه الآن، يمكن تحليل مفهوم الأمن القومي وأبعاده المختلفة، وكذلك توضيح إشكاليات المعلومات وأبعادها المختلفة، للوصول إلى تحليل الجسور التي تربط هذين العنصرين وكيفية الوصول إلى إطار لهذه العلاقة بحيث لا يؤدي هذا التطور الضخم في وسائل المعلومات، إلى التأثير السلبي على الأمن القومي للدولة في مصر .

أولاً: تعريف مفهوم الأمن القومي:

يعتبر «الأمن القومي» من الموضوعات الهامة والحيوية، التي تحتاج باستمرار الوقوف عندها ومعرفة التطور الذي يلحق بها، وذلك إستناداً إلى أن الأمن القومي يمثل الهدف النهائي للدولة، يعيش ويتعايش معها، ويسعى القائمون على حكم الدولة في لحظة تاريخية ما إلى تحقيق الحدود المعقولة منه، في ضوء الظروف والمعطيات التي تفرض نفسها على صنّاع القرار آنذاك. ولذلك فليس غريباً إذن أن نقول أن أحد مداخل تقييم الحكم في فترة تاريخية ما، يتمثل في كيفية تحقيق الأمن القومي للدولة، والحفاظ عليه في مواجهة الآخرين وخاصة الأعداء الخارجيين.

ومفهوم الأمن القومي هو مفهوم نسبي، يختلف باختلاف الدول، سواء من حيث

فبعد أن كان التقدم في الآلة العسكرية هو معيار الهيمنة الدولية، ومعيار لتصنيف الدول إلى دول قوية ودول ضعيفة، ودول كبرى ودول صغرى، أصبح التقدم في مجال المعلومات والتقنيات اللانهاية التي شهدتها هذا المجال هو أساس التعنيف المعاصر لمكانة الدول مع نهاية هذا القرن العشرين، والقرن القادم، وبعد أن شهد العالم العديد من الثورات على مدار التاريخ الإنساني، ومنها الثورة الزراعية ثم الصناعية ثم التكنولوجية في القرن العشرين، إلا أن هذا القرن أبى أن ينتهي دون أن يمهّد الطريق للثورة الرابعة وهي ثورة المعلومات «إبتداء من الآن وحتى القرن القادم» الصادي والعشرين».

ومع تصاعد هذه الثورة المعلوماتية وما شهدته من تطور هائل في تكنولوجياتها، فإن هذه الثورة قد جسدت نفسها فيما يعرف بالتكامل أو التعدد في وسائل الاتصال "Multimedia" (١)، فأجهزة الرئيسيفر - أي الاستقبال للأقمار الصناعية، وشبكة «الانترنت» والفاكس، وغيرها تؤكد مدى القدرة المتاحة لحركة المعلومات على المستوى العالمي، متجاوزة كل حواجز قومية.

وقد أثار هذا التجاوز المعلوماتي للحدود القومية للدول، قضية العلاقة بين الأمن القومي للدولة، وهذه الثورة المعلوماتية، وما تشهده من تطورات تكنولوجية متسارعة في

كونها دول كبرى أم صغرى، متقدمة أم متخلفة، ديمقراطية أم غير ديمقراطية أو في الطريق لذلك .

كما أن هذا المفهوم يتداخل مع كثير من المفاهيم الأخرى مثل مفهوم المصلحة القومية، والأهداف القومية، والقوة والسلطة، وهو ما يحتاج إلى تحليل لمضمون هذا المفهوم وتطوره سعياً نحو طرح محاولة للتعريف تتسق وفكرة هذا البحث من حيث العلاقة بينه والثورة المعلوماتية الجديدة .

#### ( ١ ) التطور التاريخي للمفهوم :

يرجع بعض الباحثين هذا المفهوم، إلى القرن التاسع عشر، وذلك من خلال الربط بينه وبين المفهوم الامبريالي الاستعماري، حيث كان يقوم على فكرة التوسع وانتشار المصالح الامبريالية، وأدى ذلك إلى ظهور ما يعرف بالاستراتيجية الكبرى (Grand Strategy)، كذلك فإن تطور المفهوم الامبريالي للأمن، قد اتجه إلى ضرورة التعاون بين القوة الامبريالية والمستعمرات التي تتمتع بالحكم الذاتي، وهو ما أفرز استراتيجية الدفاع التي تمثل نمطا للعلاقات يسود عادةً في التحالف أكثر من كونها تعبيراً عن علاقات القوة المركزية. والمهم هنا هو تبعية حماية وأمن المستعمرات، باعتباره يمثل نطاق الأمن القومي، ومسئولية العاصمة الامبريالية، والمثال الواضح لذلك: بريطانيا

ومستعمراتها(٢). إلا أن النقلة النوعية في هذا المفهوم، فإنها ترجع إلى الاستخدام الأمريكي له في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية. فاستناداً إلى ما أظهرته التطورات التكنولوجية خاصة في مجال الأسلحة النووية، من أن المسائل العسكرية لا يمكن النظر إليها على حدة، بل من الواجب ربطها بالاعتبارات السياسية والاقتصادية وعلى المستويين الداخلي والخارجي. وترجمة لذلك، ففي عام ١٩٤٧ أصدر الكونجرس الأمريكي فضلاً عن تشريعاً خاصاً بالأمن يهدف إرسال ودعم السياسات والإجراءات المتكاملة على مستوى الإدارات والهيئات وكذلك الوظائف الحكومية التي لها صلة بالأمن القومي. وفي أعقاب هذا الاهتمام المحفوظ من جانب السلطة التشريعية في الولايات المتحدة، أن بادرت الإدارة الأمريكية بالتجاوب مع الكونجرس، وصدر قرار للرئيس الأمريكي آنذاك بإنشاء مكتب الرئيس للأمن القومي عام ١٩٤٧، سرعان ما تطور إلى مجلس الأمن القومي National Security Council، وأصبح جزءاً من هيكل الإدارة الأمريكية والبيت الأبيض(٣). ومن ذلك الحين انتشر استخدام هذا المفهوم بمستوياته المختلفة وحسب طبيعة الظروف المحلية والنوعية.

وقد أشارت الدراسات الأولى إلى الأمن القومي على أساس أنه المقابل للمسائل

بريطانيا وفرنسا قد وجهتا الاتهام لألمانيا في ميونيخ عام ١٩٣٨، وإذا لم تكن الولايات المتحدة قد تبنت سياسة العزلة في الثلاثينات. ولذلك فقد اتفق عدد كبير من المحللين حول هذا المفهوم باعتباره يمثل أداة تحليلية لتحديد مدى فاعلية وكفاية السياسة الخارجية للدولة في الماضي والحاضر والمستقبل(٤).

بهذا المعنى، فإن مفهوم المصلحة القومية هو مفهوم نسبي يختلف من دولة لأخرى طبقاً للظروف والتحديات. فما يعتبر ذات مصلحة قومية وحيوية لدولة ما قد يختلف عن رؤية دولة أخرى لذات المصلحة. ومن ذلك مثلاً ما كان يراه الأمريكيون ازاء مصالحهم القومية، حيث حددوها في ثورة الحرب الباردة، على أنها القدرة على مقاومة العدوان العسكري السوفيتي، والتدمير الايديولوجي، ثم اختلف الأمر بعد انتهاء الحرب الباردة مع بداية التسعينات، حيث تفكك الاتحاد السوفيتي وخرج من المنافسة الدولية، لتضع الولايات المتحدة مصلحة قومية أخرى مضمونها ينور حول القدرة على مقاومة التيارات الدينية الأصولية، وهو التحدي الذي واجهته السياسات الأمريكية طوال هذا العقد الأخير من القرن العشرين، وفي كتاب نيكسون «انتهزوا هذه الفرصة السانحة» ما يؤكد ذلك. وقد اختلف كثير من الفقهاء حول العلاقة بين مفهوم الأمن القومي، والمصلحة القومية. فالبعض يرى أن

العسكرية والقوة، وهو يمثل الدائرة الضيقة لمفهوم الأمن القومي. ثم اتسع المجال في الستينات وما بعدها لتجاوز الشؤون العسكرية البحتة إلى نطاقات أخرى وسياسية واقتصادية، رغباً على أن المسائل المتعلقة بالاستراتيجية والتكتيك والأسلحة والقوة ظلت اهتمام الغالبية من الدارسين حتى الآن، ولكن مع التطور في وسائل الاتصال والتطورات التكنولوجية التي لحقت بها، وانعكاسات ذلك على تطور تقنيات المعلومات، أصبح مفهوم الأمن القومي يحتاج إلى مراجعة في ضوء مستجدات العصر، الذي أصبح هو عصر المعلومات.

### (٣) حدود العلاقة بين الأمن القومي والمصلحة القومية :

يتداخل مفهوم الأمن القومي مع العديد من المفاهيم الأخرى، لعل من أبرزهم مفهوم «المصلحة القومية»، وهو ما يستوجب في تقديرنا تبين حدود العلاقة بينهما. فالموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية تشير إلى تحديد لمفهوم المصلحة القومية، حيث استخدم هذا المفهوم لأول مرة من جانب رجال الدولة الأمريكية مع بداية الثلاثينات من هذا القرن. كما أن هذا المفهوم يرجع تطوره إلى هؤلاء الباحثين الذي انصب اهتمامهم الرئيسي على تقييم السياسات الخارجية التي أدت إلى نشوب الحرب العالمية الثانية، والذين اعتقدوا أن الصراع العالمي كان يمكن تفاديهِ، إذا لم تكن

تعددت التعريفات التي سعت لتحديد مفهوم الأمن القومي، كما تعددت التصنيفات التي ضمت الغالبية من هذه التعريفات، والتي من أشهرها تقسيم هذه التعريفات إلى مدرستين الأولى: هي المدرسة القيمية الاستراتيجية، والثانية: هي المدرسة الاقتصادية غير الاستراتيجية (٧). ومع ذلك يمكن بلورة الاتجاهات الرئيسية لتحليل مفهوم الأمن القومي كما يلي :

#### ١ - الاتجاه الأول : الأمن القومي

##### كمفهوم عسكري:

حيث يربط أصحاب هذا الاتجاه بين الأمن القومي والقوة العسكرية، وذلك باعتبار أن النواحي العسكرية هي الهدف والجوهر والوسيلة لتحقيق الأمن القومي للدولة. وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه هو اتجاه تقليدي كلاسيكي، يرتبط بنشأة هذا المفهوم، إلا أنه لازال له مؤيدوه حتى الآن، لدرجة يتصور معها البعض بأنه لا يمكن الفصل التام بين الأمن القومي والأداة العسكرية إعمالاً للسيادة القومية وحماية الدولة من الأخطار والتهديدات الخارجية، وأن استخدام القوة العسكرية وقت اللزوم تعتبر الوسيلة الوحيدة لصد أي تفكير عدواني على كيان الدولة الهدف. فلازالت الموسوعة البريطانية وعدد من الموسوعات العالمية الأخرى، تؤكد على هذه المعانى. حيث تعتبر الأمن القومي هو تعبير عن قدرة الدولة على حماية قيمها الداخلية من

المصلحة القومية تشكل جانباً هاماً من جوانب الأمن القومي، إلا أنها تختلف عنه باعتباره يستند إلى القوة. على حين يرى آخرون أن المفهومين مترادفان، فالأمن القومي والمصالح القومية يصعب الفصل بينهما، وهما متشابهان في المفروض والمرئاة والنسبية (٥).

وكذلك يرى البعض أن مفهوم المصلحة القومية هو أحد مكونات مفهوم الأمن القومي وأنه على الرغم من التشابه بينهما، إلا أن الأخير أوسع نطاقاً من المصلحة القومية. إذ أنه بتحقيق الأمن تتحقق بالضرورة مصالح الدولة، وتحقيق المصالح القومية بالتالي قد يؤثر إيجابياً على أمنها القومي، ولكن ليس كل أمنها القومي (٦).

ومن جانبنا فإننا نميل إلى الرأي الأخير، الذي يعتبر أن المصلحة القومية هي جزء من كل، بل والقلب في دائرة الأمن القومي التي تتسع لتشمل كل ما يمكن تسميته بالمصلحة القومية، إلا أنها تتجاوزها دائماً باعتبار أن الأمن القومي هو السياق الأكبر والأوسع الذي يعبر عن تعاقب التاريخ والجغرافيا في لحظة إدراك معينة في ضوء مقدرات القوة التي تمتلكها الدولة لتحقيق مصالحها القومية من أجل حماية أمنها القومي.

#### (٣) الاتجاهات الرئيسية في تحديد

الأمن القومي:

التحديات الخارجية. كذلك فإن علماء مثل والتر ليبمان (Walter Lippman) كان من أوائل الذين اهتموا بهذا المفهوم، وذلك يعرفه بأن الأمة الآمنة ليست هي التي لا تضطر إلى التضحية بمصالحها المشروعة تجنباً لحرب ما، كما أنها تصبح آمنة عندما تكون قادرة على حماية مصالحها وصيانتها بالانتصار في الحرب إذا ما واجهت التحدي.

كذلك يرى «والفرز - Walfers»، أن الأمن القومي يعني: حماية القيم التي تم اكتسابها وغياب الخوف من أي هجوم على تلك القيم. بالإضافة إلى ما يراه (فرانك تريجر Frank Trager)، بأن القيم القومية الحيوية (Core Values)، هي التي تشكل جوهر سياسة الأمن القومي، وأنه على الحكومة حماية هذه القيم ضد الأعداء الحاليين والمحتملين (٨). ومن المدرسة العربية، فإن د. حامد ربيع يقع في المقدمة ممن اهتموا بهذا الاتجاه، حيث يرى أن مفهوم الأمن القومي هو في جوهره مفهوم عسكري ينبع من خصائص الأوضاع الدفاعية للأقليم القومي، يتحول في صياغة تنظيرية بحيث يصير قواعد للسلوك الجماعي والقيادي بدلالة سياسية وجزءاً لا يقتصر على التعامل الداخلي. بميزة أخرى فإن الأمن يفرغ من على الدولة أن تفرض على الدول المتعاملة معها مراعاتها لتستطيع أن تضمن لنفسها نوعاً من

الحماية الذاتية الوثائق الإقليمية، وهذا لا يتأتى إلا بما يتوافر لدى الدولة من قدرات عسكرية (٩) ويتفق عدد من الباحثين مع هذا الاتجاه، منهم على سبيل المثال:

د. هيد الوهاب الكيالي في موسوعته السياسية، حيث يعرف الأمن القومي، «بأنه تأمين سلامة الدولة من أخطار داخلية وخارجية قد تؤدي بها إلى الوقوع تحت سيطرة أجنبية نتيجة ضغوط خارجية أو انهيار داخلي» (١٠) بالإضافة إلى تعريف / لواء عدلي سعيد، الذي يرى الأمن القومي على أنه «الحفاظ على بقاء الدولة بكامل سيادتها على أرضها وتماسك شعبها في مأمن من أطماع أو تهديدات الغير وتوفير الحد اللازم من الاستقرار والسلام الذي يضمن لها نواصير التقدم وصولاً إلى رخاء شعبها مع صيانة كل ذلك بالقدرة على دفع أي طرف دولي عن النيل من استقرارها واستقلال أمنها» (١١).

وفي ضوء ما سبق يتضح أن الأمن القومي كمفهوم عسكري ينور حول حماية السيادة وحماية الكيان، بل وصيانة المجتمع من أي تهديد خارجي أو حتى داخلي، وهو ما يستلزم الاستعداد بالقدرة العسكرية كوسيلة لتحقيق ذلك.

ب - الأجزاء الثمانية: الأمن القومي كمفهوم وظيفي.

ويربط أصحاب هذا الاتجاه بين الأمن



أيضاً إلى أن الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن يترجم بصورة أولية في القوة العسكرية فقط، ولكن يمكن بشكل مماثل في تنمية النماذج المستقرة من النمو السياسي والاقتصادي في الداخل وفي الدول على مستوى العالم أجمع (١٢).

وقد أسهمت الأحداث في تأكيد وجهة نظر ماكنمارا، حيث ظهرت أهمية هذا الاتجاه الوظيفي للأمن القومي بعد الحظر البترولى عام ١٩٧٣، وأزمة النفط الأولى عام ١٩٧٤، وانتقل معه الحديث عن الأمن الاقتصادي بمعنى تجزئة الأمن القومي إلى العديد من الأبعاد، ولم يعد مقتصرأ على البعد العسكري، بعبارة أخرى، فقد كانت رؤية ماكنمارا، بداية لتحول كبير، وماتحة لاتجاه قوي يربط بين الأمن القومي والرفاهية الاقتصادية والتوازن السياسي دون تجاهل القدرة العسكرية في إطار التنوع الوظيفي. وفي مقدمة الذين كانت لهم إسهامات على المستوى العربي، في تطور مفهوم الأمن القومي، د. علي الدين هلال، الذي عرفه بأنه تأمين كيان الدولة أو مجموعة من الدول - ضد الأخطار التي تتهددها داخلياً وخارجياً وتأمين مصالحها وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق أهدافها القومية وغاياتها التي تعبر عن الاتفاق العام في المجتمع (١٣). كذلك يطرح د. عبد المنعم المشاط تعريفأً واسعاً للأمن القومي بأنه «قدرة المجتمع على مواجهة - لا فقط -

القومي والوظائف التي يؤديها بما يحقق الرفاهية لشعب الدولة، وهم بذلك يتجاوزون النظرة الكلاسيكية للأمن القومي التي اقتصرمت على الناحية العسكرية فحسب ويتحدث مفكرو هذا الاتجاه عن كيفية تنمية الدولة في نطاق الوظيفة الاقتصادية التي يجب أن تقوم بها السلطة السياسية خصوصاً في الدول النامية، فضلاً عن التنمية السياسية والاجتماعية، بعبارة أخرى فإن هذا الاتجاه يعتبر الأمن القومي هو التنمية التي تسعى إلى تأمين الموارد الاقتصادية واستثمارها بأفضل الوسائل والصور لتحقيق أعلى مستوى لمعيشة المواطنين.

وفي مقدمة المفكرين الذين دفعوا هذا التحديد لمفهوم الأمن القومي وأسهموا في تطويره، روبرت ماكنمارا، وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، والذي ترأس البنك الدولي بعد ذلك، حيث حدد في كتابه «جوهر الأمن»، أن الأمن القومي هو التنمية، وينون تنمية لا يمكن أن يتحقق الأمن، وأن الدولة التي لا تنمو بالفعل لا يمكن ببساطة أن تظل آمنة، فالأمن ليس هو تراكم السلاح بالرغم من أن ذلك قد يكون جزءاً منه، والأمن ليس هو القوة العسكرية، بالرغم من أنه يشمل عليها، والأمن ليس هو النشاط العسكري التقليدي بالرغم من أنه يحتوي عليه. فالأمن هو التنمية ومن ثوب التنمية لا محل للحديث عن الأمن. بالإضافة إلى ذلك فقد أشار

التي تتهددها داخلياً وخارجياً وتأمين مصالحتها وتهيئة الظروف المناسبة اقتصادياً واجتماعياً لتحقيق الأهداف والغايات التي تعبر عن الرضاء العام في المجتمع .

ومن ثم فإن هذا التعريف يشمل ثلاثة محاور هي :

١ - تأمين كيان الدولة والمجتمع ويتمثل ذلك في وحدة الأقليم والحفاظ على الكيان الاجتماعي.

ب - أن هذا التأمين يكون في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية.

ج - أن هذا التأمين يتحقق من خلال الاستقرار الاجتماعي والتنمية والمشاركة السياسية.

كما أن هذا التعريف يحدد ثلاثة مستويات لتحليل الأمن القومي لأي دولة هي :

\* مستوى داخلي: يتعلق بحماية المجتمع من التهديدات الداخلية خاصة تلك المدفوعة أو المدعومة بقوى خارجية، وهذا يستلزم أن يعبر النظام السياسي عن القيم الجماعية للشعب ولقناعاته، وأن تكون سياساته محققة للقدر الكافي من العدالة الاجتماعية أو تكافؤ الفرص، وأن تسمح مؤسساته بتوفير القنوات اللازمة للمشاركة الشعبية.

الأحداث أو الوقائع الفردية للعنف بل جميع المظاهر المتعلقة بالطبيعة المركبة والحادة للعنف، ثم يحدد متغيرات هذا المفهوم في ثلاث هي: التوازن السياسي الداخلي ، والرقابية الاقتصادية، والقدرة العسكرية(١٤). وهناك إلى جانب ذلك، عدد من الاجتهادات في هذا السياق.

وخلاصة هذا الاتجاه(١٥)، أنه قد أكد ضرورة التجاوز للأمن القومي كمفهوم عسكري، بل أنه يضع النواحي العسكرية في إطارها المجتمعي الأوسع.

### (٤) التعريف بالأمن القومي؛

من خلال الاستعراض السابق للاتجاهات المختلفة في تعريف مفهوم الأمن القومي ووجهات النظر المتباينة، فضلاً عن التطور الذي شهده هذا المفهوم منذ الحرب العالمية الثانية، فإنه يتضح أن الاتجاه الوظيفي في تعريف الأمن القومي هو الاتجاه الواقعي والأكثر ملاءمة لنول العالم الثالث والوطن العربي على وجه التحديد، وهذا يرجع إلى أن الأمن القومي هو أقرب ما يكون إلى قدرته على الوفاء بمتطلبات المواطن لدرء كل التهديدات الداخلية والخارجية حماية للوطن والمواطن.

ولذلك فإن التعريف الذي يتفق مع هذه الحقيقة وهدف الدراسة، وهو تعريف د. علي الدين هلال، حيث يرى أن الأمن القومي هو تأمين كيان الدولة والمجتمع ضد الأخطار

\* مستوى اقليمي: يرتبط بعلاقات النول بدول الجوار الجغرافي.

\* مستوى عالمي أو دولي: يشير إلى شبكة علاقات الدولة في المحيط الدولي.

هذا المفهوم في مرحلة جديدة هي مرحلة عصر المعلومات

ثانياً : الأمن القومي وعصر المعلومات :

يعتبر التقدم الملحوظ في أنوات الاعلام ووسائل الاتصال، والذي ألقى من الناحية العلمية الحواجز الجغرافية بين الدول، وأسهم في تسهيل عملية التأثير المتبادل مما أدى إلى توافر إمكانيات أكبر للتغلغل الثقافي الثقافي والفكري من جانب الدول الكبرى، أحد العوامل الرئيسية والبارزة في إضفاء الديناميكية على موضوع الأمن القومي. فقد ضعفت قبضة الدول على انسياب المعلومات الخارجية إلى الداخل، والعكس، وذلك من جراء التقدم المتسارع في العملية الاتصالية عموماً، وأنواتها. كما أن من أهم العوامل التي أضفت أهمية أكبر على موضوع تطور العملية الاتصالية، ذلك الانتشار الكبير للديمقراطية منذ منتصف الثمانينات وحتى الآن مع قرب انتهاء التسعينات، حيث رتب التغيير في موسكو بانكسار وفشل تجربة الحزب الواحد، وما قربت على ذلك من توجه نحو التعددية الحزبية، تغييراً مائلاً في أوروبا الشرقية انسحب على العديد من دول العالم الثالث، وكان من جراء ذلك أن دخل الأمن القومي مرحلة جديدة يمكن تسميتها بالتطور الثالث لمفهوم الأمن القومي وإن كان من داخل رحم الإتجاه الثاني الوظيفي أو المجتمعي.

كذلك يمكن تحقيق أمن الدولة من خلال نهجين رئيسيين هما : الأمن من خلال الصراع، والأمن من خلال التعاون ويشير البعض إلى تقليب أى منهما على الآخر، إلا أننا نرى ضرورة الجمع بينهما في ضوء ظروف الدولة ومحيطها الاقليمي والدولي وظروفها الداخلية، فالأمن القومي هو نقطة إلتقاء السياسة الداخلية بالسياسة الخارجية، فالأمن الحقيقي أساساً هو أمن الإنسان الذي هو أساس الأمن الاجتماعي والسياسي والقومي، وهو يرتبط بقدرة المؤسسات السياسية على تحقيق التضامن الاجتماعي في الداخل والاستقلال الوطني والقومي في الخارج(١٦).

ولا شك أن الأمن القومي بمستوياته المختلفة، ومقوماته العديد التي تشمل جوانب متعددة، قد يشمل كل أركان الدولة، والمجتمع ويصب في دعم المسافة السياسية بين المواطن في الداخل وحدود النولة الجغرافية إمتداداً لحدود النور الاقليمي والدولي. ولذلك فإن الآراء قد تختلف في تحديد المفهوم، إلا أنها جميعاً تنطلق من الشمول والنسبية، والديناميكية التي يتصف بها هذا المفهوم الهام. وقد ازدادت أهمية

ويتضمن هذا التطور جماعاً بين تطور وسائل الاتصال وتداول المعلومات بسهولة دون عوائق من سلطة الدولة، وبين التغيير الحادث في الكتلة الشرقية ومضمون التحول في التوجه نحو الديمقراطية والمزيد من التعددية وحرية التعبير .

ونتيجة لذلك كله، فقد ثارت التساؤلات حول حدود هذا التطور، وإنعكاساته على إعادة بلورة مفهوم الأمن القومي في مرحلته الجديدة، وهل يمكن صياغة معادلة جديدة بين حدود الأمن القومي، وبين الانسياب غير المسيطر عليه، للمعلومات، وتدفعها بدون قيود، في ظل تسيد عصر المعلومات وحرية التعبير؟ وكيف نحافظ على الاستقلال والسيادة الوطنية في ظل هذه التطورات الجديدة؟ وهل يتم مراجعتها ذلك بالية التعاون؟ وهذه تساؤلات مشروعة تفرضها كثافة التغيرات الحادثة في البيئة الدولية، والتي لها امتداد واضح في التأثير على البيئة الداخلية، وتحتاج إلى معالجة موضوعية تتفق وأهمية تأثيرها على المفاهيم السائدة للأمن القومي.

وسعياً نحو الإجابة على هذه التساؤلات، فإنه يمكن تناول عدد من القضايا المحورية في العلاقة بين الأمن القومي وعصر الانسياب المعلوماتي غير القابل للسيطرة عليه بسهولة، وذلك على النحو التالي :

### أ - عصر المعلومات وسلطة الدولة :

تشير سلطة الدولة، إلى قدرتها على ممارسة وظائفها الرئيسية سواء التقليدية

(تنفيذية - تشريعية - قضائية)، أم الوظائف الحديثة حيث تضاف وظائف أخرى من أهمها ثلاثة هي: حماية الاستقلال، وتأكيد سيادة الدولة، وحفظ الأمن الداخلي. ولا شك أن التقدم التكنولوجي في الاتصالات ونقل المعلومات، قد أثرت على إمكانية الدولة على القيام بوظائفها على وجه العموم. وتبدو هذه الظاهرة واضحة فيما يتعلق بالدول النامية التي تسعى حكوماتها على الحفاظ على الاستقلال بإعتباره حصيلة نضال وطني ويستحيل التفريط فيه أو تمكين الآخرين وخاصة الدولة الاستعمارية السابقة، وهي دول كبرى حالياً في الغالب، من النيل من هذا الاستقلال. وأوضحت المسألة تمثل أوجه العلاقة بين دول كبرى، ودول صغرى. فالدول الكبرى هي التي تملك القدرات التكنولوجية المتقدمة في مجال الاتصالات والتي تستطيع من خلالها أن تخترق الدول الصغرى، في الوقت الذي تحاول هذه الدول الصغرى أن تحمي نفسها وأستقلالها وممارسة سلطاتها حفاظاً على الأمن القومي للبلاد. وتسعى الدول الكبرى لتحقيق مصالح توسعية ضمنية بالتدخل في شئون الغير - وهم هنا الدول الصغرى النامية، في الوقت الذي تسعى الأخيرة لمقاومة هذه المحاولات التوسعية، والتفطيل من دول الشمال المتقدم. وهذا ما يجعل القول بأن صراع الشمال والجنوب أو ما يحاول البعض أن يروضه عن طريق الحوار، ما هو إلا ترجمة عملية لهذه العلاقات غير المتكافئة، بإعتبارها ناتجاً من نواتج المرحلة الاستعمارية وفجوة التقدم.

بعبارة أخرى، فإن سلطات الدولة ووظائفها تعرضت للإضعاف نتيجة قهر

الدول المتقدمة، وقدرتها على النفاذ إلى عمق الدول الصغرى وشل سلطة الدول التي تتعرض للانحسار والتراجع والتقلص التدريجي (١٧). ويؤكد هذه الخلاصة صاحب نظرية «نهاية التاريخ» (فرانسيس فوكاياما)، حيث يشير إلى أن هناك أربعة تأثيرات واضحة لثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصال على الحياة الإنسانية في العالم كله هي : إضعاف النظم الحاكمة المتسلطة وبالتالي الإسراع في عملية التطور الديمقراطي في العالم كله وتآكل السيادة القومية وإضعاف السلطة المركزية في كل مكان، وتغيير مفهوم «القوة» وطبيعة ممارستها وأثرها، ثم تفتت المنظمات القوية إلى وحدات صغيرة. وهذا يعني أن تدفق المعلومات عبر وسائل الإعلام العديدة، سيقترح كل المجتمعات المغلقة ويكسر سطوة النظم المستبدة، ويسقط قدرتها على إبقاء شعوبها جاهلة أو غافلة، ويتخطى الحدود الجغرافية والسياسية والقانونية القائمة (١٨). بعبارة أكثر تحديداً فإن قدرة الدولة ونظامها السياسي على ممارسة سلطات بلا حدود أو قيود على مواطنيها خصوصاً في المجتمعات غير الديمقراطية ستدخل دائرة الانحسار، وفقدان التأثير التدريجي على المواطنين في ظل الثورة التكنولوجية المعلوماتية والتغيرات الكونية الحادثة .

### ٣ - عصر المعلومات وسيادة الدولة؛

لعل من أهم الآثار لثورة المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات يكمن في التآكل التدريجي لسيادة الدولة دون اختيار أو إرادة منها . فهناك تقسيم واضح في النظريات التقليدية لمفهوم السيادة، بين الجانب القانوني والجانب السياسي. فيشير الجانب القانوني لسيادة الدولة، إلى أن السيادة صفة من صفات الدولة، قوامها الاستقلال القانوني في مواجهة غيرها من السادات الأخرى. بمعنى أن القانون الدولي مثلاً هو الذي يحدد العلاقات بين الدول وكيفية ممارستها لسيادتها إزاء الآخرين من الدول. أما الجانب السياسي لمفهوم السيادة، فيشير إلى أنها تعني قدرة الدولة الفعلية على تأكيد ذاتها في المجال الدولي، بحرية كاملة دون امتثال لأي سلطة خارجية، أي قدرتها الفعلية على تحقيق الاستقلال والإرادة الحرة في المجال الدولي دون خضوع لأي طرف دولي آخر. بمعنى أن الدولة لها القدرة على السيطرة على إراداتها ومقدراتها وذاتها بحرية كاملة، وقدرتها على حماية استقلالها في الواقع العملي (١٩).

وإذا كان الجانب القانوني يشير إلى الإطار الرسمي الذي يجب أن تسير فيه العلاقات بين الدول، فإن الجانب السياسي يمثل الواقع الفعلي لإمكانية الدولة وقدرتها على تطبيق الجانب القانوني حماية لسيادتها الفعلية وإرادتها الحرة المستقلة في مواجهة الآخرين. ولذلك فقد رأينا دولاً تتمتع بالميادة القانونية والسياسية معاً،

وبولاً أخرى تتمتع بالسيادة القانونية دون الجانب السياسي في الواقع العملي. ومرد ذلك كله إلى التقسيم في توزيع القوة والقدرة التكنولوجية. فالنول المتقدمة هي نول قوية كبرى تستطيع حماية سيادتها القانونية والسياسية ثم افقار النول غير المتقدمة المعروفة بالنول الصغرى أو النامية لغدرتها على ممارسة سيادتها. في الوقت الذي لا تستطيع النول الصغرى الصمود في مواجهة قدرة النول الأخرى على التغفل في شئونها وتجاوز حدودها السياسية، نظراً لضعف قدراتها التكنولوجية بصفة عامة. وهذا هو الحادث في مجال المعلومات وتكنولوجيا الاتصالات، حيث أسهمت الثورة المعلوماتية والاكتشافات العلمية في مجال النقل والاتصالات ونقل المعلومات عبر الأقمار الصناعية وقنوات المعلومات، في أحداث تأثير واضح على مفهوم سيادة النولة، فأصبحت الممارسة الفعلية لمظاهر السيادة لتحقق بقدر ما تحوزة النولة أو يتيسر لها من إمكانات يوفرها التقدم التكنولوجي والعلمي في كافة المجالات.

وقد أصبحنا أمام تقسيم جديد للعالم في عصر المعلومات، حيث هناك بعض النول لها القدرة على ممارسة السيادة الكاملة، في مقابل نول أخرى ليست لديها مثل هذه القدرة. ولم يعد التمييز من الناحية القانونية للسيادة حيث لم يطرأ جديد يذكر على الأطر الرسمية إلى حد ما باستثناءات قليلة ليس هناك مجال لذكرها، ولكن التمييز يرتبط بالسيادة السياسية التي أصبحت

فاصلاً في الحكم على مدى كمال سيادة النول أو نقصها. فلم تعد إذن الحدود السياسية صعبة الاختراق بل أصبحت أقل صموداً أمام التقدم التكنولوجي عامة، ومجال الإتصالات والمعلومات بصفة خاصة. والفصل هنا في اكتمال سيادة النول أو نقصها، يبرز في مدى ما تمتلكه النولة من إمكانات عملية وتقنية متقدمة، إما في حماية سيادتها أو اختراق سيادة النول الأخرى لأغراض مختلفة. والمثال الواضح في هذا الصدد هو قدرة البث التلفزيوني عن طريق الأقمار الصناعية على اختراق حدود النولة دون استئذان منها، وقدرة انتقال الرسائل عبر الفاكس، وانتقالها عبر البريد الإلكتروني من خلال أجهزة الكمبيوتر، وغيرها، مما لا تستطيع النول أن تقف إزاءه بالرفض أو القبول أو حتى المقاومة التي قد تستلزم إمكانات مضادة وعلى درجة كبيرة في مواجهة الطرف الآخر المتغفل. وهنا وإن أكد «الفين توفلر» هذه الحقيقة من منظور غربي، فإن هناك بعض مفكرينا يرى أن القضية أضحت في المستقبل تكمن في كيفية قبول وضع الدولة بسيادة أقل في ظل مظاهر «العولة» أو «الكونية» السائدة (٢٠).

أن الأمن القومي لا شك يتعرض للتأثير نتيجة تاكل سيادة الدولة، وعدم قدرتها على فرض سيادتها السياسية، أو ما يمكن تسميته التجاوز المعلوماتي للحدود القومية (Informationalization).

### ٣- عصر المعلومات، وحقوق المواطن:

إن حقوق الإنسان هي حقوق أقرتها كافة المواثيق الدينية والدنيوية. ومن أهم الوثائق الدولية في هذا الصدد هي الميثاق العالمي لحقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨، والذي احتفلنا بذكرى مرور خمسين عاماً على إقراره منذ عدة أشهر وقد نص هذا الميثاق في المادة ١٩، على الحقوق الإعلامية للمواطن ومنها حرية الرأي والتعبير والنشر وتداول المعرفة. ولتزايد الثورة الاتصالية والمعلوماتية، - أهتمت الأمم المتحدة بهذا الموضوع منذ بداية الستينات، إلى أن توصلت إلى الاتفاقية الدولية للحقوق السياسية والمدنية عام ١٩٦٦، ونصت في المادة ١٩، ٢٠ على حق انتقال المعرفة والحق في الاتصال، وكان ذلك كمشاهدة لتفنين التطورات المتلاحقة في وسائل الاتصال ونقل المعلومات. وقد استمرت هذه الجهود مع نهاية السبعينات وأوائل الثمانينات، لمحاولة التصدي للمشكلات الناجمة عن الحصول على المعلومات بواسطة الأتعار الصناعية، إلا أن هذه الجهود باتت بالفشل بسبب الخلافات على المصالح القومية للدول، وتحديدًا بين تلك الدول التي نالت حظها في هذا المجال المتقدم وهي الدول الكبرى، وتلك التي لم تستطع أن تنجز في هذا المجال بعد (٢١).

ولم تصل بعد هذه الجهود إلى نتيجة تذكر

حتى الآن في إطار الصراع بين الدول التي تستطيع الحصول على المعلومات ونقلها، وتلك التي تتلقاها ولا تصنعها.

فمصر المعلومات كرس حق المواطن في الاتصال والمعرفة وتلقى المعلومات، واعتبرته من الحقوق الطبيعية التي لم تعد للدولة وأجهزتها وسلطاتها منعه أو حتى الحد منه. وهذا الحق كما يراه البعض يجمع بين طياته العديد من الحقوق الإنسانية الأخرى مثل، حق العيش في سلام، وحق التعليم والثقافة، والحق في التنمية، وحق الحياة الخاصة، والحق في الإعلام والمعرفة. في نفس الوقت فإنه يتضمن بعض المسؤوليات والالتزامات مثل: احترام حقوق الغير، وسمعتهم، وحماية الأمن القومي أو النظام العام والآداب العامة. وعلى الرغم من الإقرار بهذه الحقوق إلا أن هناك من الحقوق المنبثقة من الحق في الاتصال لم يتم إرساؤها بعد، ومن ذلك حق التمثيل، وحق المشاركة في المستويات المختلفة للعمليات الاتصالية، وحق الخصوصية، وحق الاطلاع على سياسات الحكومات وأفعالها والوثائق المتعلقة بذلك (٢٢). وما يذكر في هذا الشأن أن خبراء الاتصال قد توصلوا إلى صيغة عامة تعدد أبرز عناصر ومقومات هذا الحق في الاتصال كحق إنساني شامل للعديد من الحقوق، ومن ذلك:

١ - حق الاجتماع والحق المناقشة، والحق في المشاركة وما يتصل بذلك من

حقوق تكوين الجمعيات

ب - الحق في الاستفسار وفي الحصول على المعلومات، وفي إيلاخ الآخرين بالمعلومات والمتعلق بذلك من حقوق الاعلام.

ج - الحق في الثقافة والحق في الاختيار والحق في الحياة الخاصة، وما يتصل بذلك من حقوق التنمية الانسانية(٢٢).

ونتيجة إلتساع دائرة الحقوق الفردية للمواطنين في ظل ثورة المعلومات، وتطور تقنياتها، أن أصبح هناك ما يمكن تسميته «بالصندوق المعلوماتي للأفراد» لا يجوز للدولة أن تعتدي عليه، وهذا الصندوق هو عبارة عن تخزين معلومات استطاع المواطن الفرد أن يجمعها بأساليب تكنولوجية حديثة، وأن يسترجعها كما يشاء، وأن يطلع الآخرين عليها، وأن يتبادلها داخلياً وخارجياً دون تمكن الدولة من السيطرة عليها أو حتى التدخل فيها بدعوى الحفاظ على الأمن القومي. فضلاً عن اتساع دائرة ونفوذ منظمات حقوق الإنسان، في العالم وخصوصاً العالم النامي، لدرجة عدم الاعتراف الرسمي بها في بعض هذه البلدان، في نفس الوقت لم تحاول أن تمنع وجودها وأن حاولت اعاققتها. وذلك يأتي في إطار الاتساع الأفقي والرأسي لقضية حقوق الإنسان والمنظمات التي تعمل في هذا المجال. وقد اعترف وزير داخلية مصر،

في حديث لأحدى الصحف، حينما قال: أن منظمات حقوق الإنسان في مصر غير شرعية، ولكننا نسكت عليها، ولم نتخذ ضد ممارساتها أى إجراء(٢٤).

ففي ظل ثورة المعلومات، اتسعت دائرة حقوق المواطن، ولم يعد بوسع الدولة الحد منها حتى ولو لم تعترف بها رسمياً. كما أن هذا التجاوز المعلوماتي لحدود الدولة، اسهم في إعادة تنظيم الشعوب وترباطها بعضها ببعض بأساليب الكترونية وليس بالجوار الجغرافي، بل وليس فقط بالثقافة الوطنية القومية الواحدة(٢٥). وإذا كان صميحاً أن الاتفاقية الدولية للحقوق السياسية والمدنية لعام ١٩٦٦، قد نصت في المادة ١٩ على أن الحق في المعرفة وتداول المعلومات مرتبط بحق الدول في فرض القيود لحماية الأمن القومي أو النظام العام أو الصحة العامة أو الأخلاق، إلا أنه، مع هذا التطور المعلوماتي، قد أصبح متعذراً في الواقع المعلى تقيد هذه الحقوق للمواطنين حتى لو كانت تحت دعاوى الأمن القومي.

٤ - ثورة المعلومات وصنع القرار السياسي :

أحدثت عملية تدفق المعلومات بلا حدود، وانسيابها داخل الدولة، تأثيراً كبيراً على عملية صنع القرار السياسي. وتحدث هذه العملية من خلال آليات عديدة من أهمها: النشر الواسع في كافة المجالات سواء من



الغزو العراقي للكويت). وقد يحدث اجراء حديث صحفي أو تليفزيوني مع رؤساء الدول، للتعرف من خلال توجيه أسئلة معينة، على ما يدور في ذهن صانع القرار من ناحية، والتأثير عليه بعد ذلك من ناحية أخرى، وهي صورة موجوده بكثرة خاصة في منطقتنا العربية. فالقرار هو نتاج شخصية الإنسان صاحب سلطة القرار، والمعلومات هي المدخلات للتأثير على الشخص ودفعه لاتخاذ قرارات معينة قد تكون صائبة، وقد تكون مدمرة، ولا شك أن هذه المسألة لها تأثير على الأمن القومي للدولة في حالة عدم التيقظ من تسرب المعلومات إلى صانع القرار، إلا أن تعدد المعلومات وكثافتها وتنوع المصادر وقدرات جماعات الضغط على استثمار وسائل نشر وإذاعة المعلومات بشأن ما تبناه أو تسعى إلى تحقيقه، كل هذا من شأنه أن يحدث أثره على صانع القرار السياسي سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ولم يعد بإمكان الدولة أن تلغي هذا التأثير، ولكن قد تتمكن من الحد منه بعض الشيء، وهو ما يستدعي إعادة النظر في حدود الأمن القومي في ضوء هذه النتيجة، حيث زالت فكرة منع المعلومات من التدفق من وإلى الدولة.

#### ٥ - ثورة المعلومات والتمويل الخارجي:

في ظل الانتشار اللا محدود للمعلومات من خلال العديد من وسائل الاتصال

خلال الصحف والانترنت والاقمار الصناعية والاذاعة والتليفزيون، سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي، وكذلك طبع الصحف المحلية على نطاق دولي عن طريق نقلها بالاقمار الصناعية وطبعها في داخل الدول الأخرى مما ساعد على انتشار الأفكار وتبادلها بين الشعوب، ومحاولات استقصاء الرأي للتعرف على الاتجاهات السياسية والاقتصادية السائدة للمعاونة على رسم سياسات الدول الكبرى إزاء الدول الصغرى في المناطق الساخنة بما يخدم استراتيجيات هذه الدول.

فضلا عن ذلك، فإن المساندة الخارجية لجماعات الضغط الداخلية قد يؤدي إلى التأثير على عملية صنع القرار. فخضوع صانع القرار لهذه التدفقات المختلفة من المعلومات بكافة الوسائل، يسهم بالتالي في صياغة وتعديل القرارات بين أن وآخر. فقد تلاشت نسبياً إمكانيات الفصل بين الداخل والخارج، ولم يعد بإمكان دولة ما عزل شعبها عما يحدث في الخارج، أو العكس.

ومن هنا فقد زادت أهمية المعلومات، وزادت قيمة المعرفة نظراً لخطورتها على صنع القرار. فقد يحدث أن تتسرب معلومات معينة لصانع القرار تتفق ومزاجه الشخصي وطموحاته، فتدفعه إلى إتخاذ قرارات تتفق وما تخطط له دولة أخرى غالباً ما تكون دولة كبرى (نموذج الولايات المتحدة والعراق في الدفع باختلاق أزمة

ويشهد الواقع المصرى هذه الظاهرة بكثافة، فهناك من يعمل لصالح دول عربية معينة، ومن يعمل لصالح دول أجنبية غربية في الغالب، وهناك من يعمل لصالح إسرائيل تحت مسميات مختلفة ولهؤلاء جميعاً تمويل خارجي دون إفصاح، وأن هذا التمويل ليس بالصورة التقليدية كعمولة مقابل عمل شيء محدد وهو نظام العمل مع المخابرات بصورة مباشرة، ولكن التمويل يتسرب من خلال دعم نشاط هذا المركز البحثي أو ذلك، وهذه الصحيفة أو تلك، وبعض هذه المراكز فرضت موضوعات معينة على أجهزة المجتمع كموضوع الاقليات وبمسميات مختلفة على سبيل المثال، لصالح قوى أجنبية اتضح استثمارها وتوظيفها لحسابها ضد المصلحة القومية المصرية، وهذا هو ما يتعارض مع مقتضيات الأمن القومي المصري.

ويستلزم هذا الواقع المرير، الذي استهدف القائمون على صنعه أفساد جزء من النخبة البحثية والعلمية، وتطويع هذه النخبة لخدمة مصالح أجنبية تحت شعارات مختلفة، وذلك مقابل مبالغ مادية متميزة إذا ما قورنت بما يتم الحصول عليه من المراكز الوطنية وهم يسهمون بلا شك في تعميق «الاستعمار الجديد» الذي يستهدف أدمغة صناع القرار، وأدمغة النخبة العلمية المثقفة من خلال التدفق المستمر للمعلومات من الداخل للخارج دون حدود وهذا لا شك

الحديثة، انتشرت جماعات محترفة للبحث والتتقيب في الأحوال المصرية وغيرها من البلدان ذات الأهمية في الاستراتيجيات العالمية. واتخذت هذه الجماعات أشكال تنظيمية مختلفة، إما مراكز بحثية خاصة، أو العمل تحت سار أسماء لمراكز أبحاث كبرى في المجتمع أو في الجامعات، أو من خلال صحف معينة رسمية أو مستقلة أو حزبية، وأصبحت هذه الجماعات تعمل إما لحسابها الشخصي، أو لحساب جهات خارجية، أو لحساب دول، أو لحساب أجهزة مخابراتية، وبعضها وهو قليل يعمل بشفافية لصالح تطور المجتمع ومصلحه العليا دون قصد إضرار أمنه القومي على الإطلاق. وفي الولايات المتحدة، فإن من يعمل لحساب الآخر، يسجل تحت مسمى Foreign Agent - بمعنى عميل أو وكيل لدولة أجنبية، ويستدعى هذا التحديد الذي يتم بشفافية تامة، نوعاً محدداً من التعامل، ويحكم ذلك نظام وأساليب محددة بالذات المصروف والمالي وكذلك الضريبي، وكل هذا يتم بوضوح، حتى أنه يتم فضح أى محاولة تستهدف تغيير أو التأثير على سياسات الولايات المتحدة في ضوء تسريب أموال خارجية لتحقيق هذا الغرض. ولعل في فضيحة تمويل الحملة الانتخابية للرئيس كليتتون من قبل عملاء لول آسيوية كالصين وأنتونيسيا طبقاً لما نشر، خير مثال على ذلك (٢٦).

تحققت إلى حد كبير. ومن أهم النتائج المترتبة على محاولات الهيمنة الثقافية من الدول الكبرى على الصغرى، هو تناقص الولاء الوطني بعد تآكل سيادة الدولة، وفقدان السيطرة على حركة المعلومات من وإلى الدولة، وكل هذا يتعارض مع مقتضيات الأمن القومي لمصر والعديد من الدول النامية. ولكن تبقى القضية مطروحة في كيفية التوازن بين الثورة المعلوماتية التي لا يمكن إيقافها، وبين احتواء الآثار السلبية لها على الأمن القومي للدولة، وبما قد يسهم في تغيير لمفهوم الأمن القومي.

فلا خلاف على ضرورة احترام وتوسيع حقوق المواطن في المعرفة وفي الاتصال وفي التعبير، وفي السؤال، وفي النقاش، وغيره من الحقوق، في نفس الوقت فإنه لا خلاف أيضا على أن الدولة لها الحق وعليها واجب في نفس الوقت، يتحدد في فرض سيادتها الاعلامية على أرضها وشعبها، دون أن يؤدي ذلك إلى الحد من حقوق الأفراد في المعرفة. والقضية أصبحت في مآزق حقيقي في الواقع العملي .

فبالقدر الذي يسمح فيه بحقوق واسعة للمواطن في المعرفة والاتصال وغيرها، بالقدر الذي يسمح فيه من تمكين الدولة من السيادة الاعلامية والسيطرة على الأرض والشعب، لحماية الأمن القومي أو النظام العام. وهذا ما أقرته الإنتفاضة النولية للحقوق السياسية والمدنية عام ١٩٦٦

يؤثر بصورة سلبية على الأمن القومي المصري، ويحتاج الأمر إلى وضع ضوابط لحماية هذا الأمن، والحد من تعاضم هذه الظاهرة التي تحتاج إلى ضوابط وتقنين بما يتفق مع المصلحة العليا للبلاد. ولعل الجدل الذي جرى بتبادل الاتهامات بين إحدى الصحف المستقلة وبين مركز بحثي بمؤسسة صحفية كبرى في مصر بشأن إجراء استطلاع للرأي العام حول قضايا معينة كالشاركة وغيرها خلال الأشهر الماضية هو ما فجر هذه القضية من جديد وأستتبعها إثارة قضية التمويل البريطاني لأحدى منظمات حقوق الإنسان في مصر لاعداد تقارير معينة، خير مثال لهذه القضية التي تستدعي التوقف عندها كثيرا.

ثالثاً : الخروج من المأزق والطرح الجديد لمفهوم الأمن القومي:

وخلصاً ما تقدم ، فإن الثورة المعلوماتية قد أثرت بشكل مباشر وغير مباشر على عملية صنع القرار الداخلي، وأثرت على سلطة الدولة، وسيادتها، خلقت جماعات ضغط داخلية لها ولامات خارجية من خلال التمويل الأجنبي. وأصبح واقع الدول النامية، بحكم أنها المثلثة للمعلومات من الدول الكبرى المحتكرة لها والمتحكمة في وكالات الأنباء الكبرى ووسائل الاعلام وانتاج المعرفة وغير ذلك، يشهد ظاهرة «الاستعمار المعلوماتي» الذي يفرز الهيمنة الثقافية بعد الهيمنة الاقتصادية التي قد

وخلصت الدراسة إلى ضرورة الاعتراف بحق كل دولة في فرض قيود قانونية علي نشر أو أذاعة أنواع معينة من المعلومات ومنها: ما يتعلق مباشرة بالأمن القومي، وما يشكل خطراً على الاقتصاد الوطني أو العملة المحلية، أو المخزون الاستراتيجي من مواد معينة، وأنباء التحقيقات والمحاكمات، والمعلومات المتعلقة بحياة المواطنين الخاصة، وما يتعلق بالأداب العامة والأخلاق(٢٨).

وإذا كان العالم يشهد ظاهرة إنتقال المعلومات بغير حدود، ولربوس الأموال بغير قيود، وللأفراد بغير حدود، كما يظهر في مجالي نقل المعلومات والاتصال، والاقتصاد وما أسهم ذلك في التأثير على سلطات الدولة ووظائفها، وسيادتها، وتعرضها للتدخل الخارجي بصورة مختلفة، فإن الدول النامية أصبحت لزاماً عليها أن توازن بين إعتبارات أمنها القومي من ناحية وبين ضرورة مواكبة الثورة التكنولوجية في مجال المعلومات وحقوق المواطنين(٢٩).

كما أن العالم الذي شهد في السنوات العشر الأخيرة تحولاً في هيمنة حقوق المواطنين، وإنتشار أفقى ورأسى للديموقراطية حتى أصبحت هدفاً للدول العالم أجمع باستثناءات قليلة، جعل من الصعب التراجع عنها أو عن الاعلان عن حماية حقوق الأفراد، وكل دولة أصبحت تتفاخر بما تتخذه من خطوات في هذا السبيل، فإنه إذن من الصعب التفكير في

والسابق الإشارة إليها. ومن ثم يتضح نسبية حقوق المواطنين، ونسبية حق الدولة في السيطرة والسيادة. أي أن حق المواطنين في المعرفة ليس مطلقاً بل هو مقيد بما يتفق مع الأمن القومي الذي تقدره الدولة، وفي ذات الوقت فإن حق الدولة في السيطرة والسيادة ليست مطلقة إنما مقيدة بحماية الأمن القومي وبشرط ألا يقيد حق الجماهير في المعرفة .

وهذه العلاقة التوازنية تقتضى الاستفادة من خبرات للدول المتقدمة في إيجاد آليات للحفاظ على هذا التوازن. وقد كشفت دراسة مهمة من وضع هذه العلاقة في الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والسويد، وخلصت إلى أنه رغم الأقرار بحق الحصول على المعلومات والاطلاع على الوثائق للمواطنين، إلا أنه قد أعطى للحكومة السلطة الأكبر في فرض السرية حماية للأمن القومي بشكل مباشر وغير مباشر. ولذلك فإن تدفق المعلومات ليس حراً في دول الشمال المتقدم كما يحاول البعض وهذه الدول ذاتها، أن تصور ذلك. وأن حق الجمهور والاعلام في الحصول على المعلومات ليس مطلقاً، ولكن هناك الكثير من القيود التي فرضتها دول الشمال على هذا الحق(٣٠). كما أن هذه الدراسة أشارت إلى هذا الواقع في العديد من الدول العربية واتضح أنها تقرض قيوداً كبيرة على تدفق المعلومات وحق الجماهير في المعرفة،

أن الأمن القومي في مرحلته الثالثة بعد تجاوز المرحلة الأولى الذي ارتبط فيه بالقوة، والمرحلة الثانية الذي ارتبط فيه بوظيفة مجتمعية، يسعى إلى إستيعاب التطور العام نحو الديمقراطية على المستوى العالمي، واحترام حقوق المواطنين في المعرفة وغيرها، واستيعاب الثورة المعلوماتية وهي تمثل الثورة الرابعة في حياة البشر. ويحدد هذا المفهوم الجديد أنواته وقد تركزت في الجمع بين «الصراع والتعاون» دون تجاهل لإحدهما حفاظاً على السيطرة والسيادة على الأرض والشعب تحقيقاً للمصالح العليا للمجتمع .

فالأمن القومي يستهدف تحقيق أمن المواطن والحفاظ على حقوقه، وأمن الدولة في السيطرة والسيادة، طبقاً لما التزمت به هذه الدراسة في استخلاص مفهوم للأمن القومي. لذلك فإن تمكين الدولة من فرض سيطرتها الخارجية والداخلية لا يتأتى إلا من خلال الاستقرار الاجتماعي والتنمية والمشاركة السياسية وأن وضوح كل شيء، بشفافية كبيرة، هو السبيل نحو تطوير المجتمع وحماية أمنه القومي، وخضوع الجميع حكماً ومحكومين للمحاسبة الجماهيرية في ضوء أعمال قواعد النخبة الديمقراطية .

الحد من هذا التطور العالمي. في نفس الوقت فإن السيادة التقليدية للدولة التي قد تعرضت للتأثير في ضوء التطور التكنولوجي في وسائل الاتصال، مما جعل الأمن القومي يتعرض للتأثير السلبي أيضاً باستمرار، لا بد من مراجعتها إلى مفهوم حديث للسيادة والأمن القومي.

والوصول إلى حل معضلة التوازن بين حرية المواطنين ومقتضيات الأمن القومي يكمن في الالتزام بقواعد الممارسة الديمقراطية والسعى نحو تعميقها، وتقوية كل مؤسسات المجتمع السياسي خاصة والمدنى بصفة عامة، وتدعيم الحقوق الاقتصادية للمواطنين وبصورة واقعية بما يحمي هؤلاء من تعرض الولاء الوطني عندهم للتناقص أو التأثير السلبي .

فطبقاً لما هو سائد في المجتمعات الديمقراطية التي أحرزت التقدم التكنولوجي المعروفة بدول الشمال، فإن أعمال قواعد المحاسبة وتطبيقها على جميع الأطراف بدون تمييز يصبح هو المخرج، حيث يتطلب الأمر الإعلان عن كل شيء، وتبيان أوجه الانفاق، ومصادر التمويل، والخضوع لرقابة الأجهزة المحاسبية في الدول، ورقابة الرأي العام، وذلك بشفافية تامة. وهذا هو السبيل لاعادة النظر فيما هو متعلق بالسيادة غير التقليدية ، ويحدود الأمن القومي بمنظور جديد يتجاوز المفهوم التقليدي أيضاً.

- المداول في أدبيات الأمن القومي.
- ٨ - لمزيد من التفصيل حول هذه التعريفات وغيرها، انظر: د. عبد المنعم المشاط، مرجع سابق، ص ١٨، ١٩.
- ٩ - د. حامد ربيع، نظرية الأمن القومي العربي، دارالموقف العربي، القاهرة، ١٩٨٤، ص ٣٧، ٣٨.
- ١٠ - د. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩، ص ١٣١.
- ١١ - لواء / عدلى سعيد، الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص ١٨.
- ١٢ - روبرت ماكنمارا، جوهر الأمن، ترجمة يونس شاهين، القاهرة، الدار القومية ١٩٧٠، ص ١١٩، ١٢٠.
- ١٣ - د. على الدين هلال، «الأمن العربي والصراع الاستراتيجي في منطقة البحر الأحمر» المستقبل العربي، عدد ٩، سبتمبر ١٩٧٩، ص ٩٨، وأيضاً: د. على الدين هلال، «الأمن القومي العربي: دراسة في الأصول»، شئون عربية، عدد ٣٥، يناير ١٩٨٤، ص ٦، ٢١.
- ١٤ - د. عبد المنعم المشاط، «نحو صياغة عربية لنظرية الأمن القومي»، والمستقبل العربي، عدد ٥٤، أغسطس، ص ٤ - ٢١.
- ١ - د. محمود علم الدين، «وسائل الإعلام والاتصال في عصر المعلومات: الوسائل والسمات»، مجلة النيل، وزارة الإعلام: الهيئة العامة للاستعلامات، عدد ٧٠ (١٩٩٨)، ص ٧٠: ٨٦.
- ٢ - جميل جورجي، الأمن القومي المصري في إداركات القيادة السياسية: دراسة مقارنة بين عبد الناصر والسادات ومبارك، دكتوراه غير منشورة، كلية التجارة، ببورسعيد، جامعة قناة السويس، ١٩٩٨، ص ٢٠.
- ٣ - د. عبد المنعم المشاط، «الإطار النظري للأمن القومي العربي»، في: الأمن القومي العربي: أبعاده ومتطلباته، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٣، (ص ١٣: ١٤)، ص ١٣.
- 4 - International Encyclopedia of the social science, "The National Interest", II, England, p. 34.
- ٥ - جميل جورجي، مرجع سابق، ص ٥٩، ٦٠.
- ٦ - د. مدوح شوقي كامل، الأمن القومي والأمن الجماعي الولي، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥، ص ٤٢ - ٥٠.
- ٧ - جميل جورجي، مرجع سابق، ص ٨٧، ٨٩، حيث أشار إلى هذا التصنيف

الاتصال»، ورقة مقدمة إلى الحلقة الثانية لبحوث الإعلام، المركز القومي للبحوث الاجتماعية، القاهرة، ١٩٨٢ .

٢٢ - د . عواطف عبد الرحمن ، المرجع السابق ، ص ٢١ .

٢٤ - حديث للسيد / حبيب العادلي (وزير داخلية مصر)، للمصحفية سناء السعيد، جريدة الأسبوع، ١٨ يناير ١٩٩٩ .

٢٥ - د . محمود عز الدين، «وسائل الاعلام والاتصال في عصر المعلومات: التطورات والسمات»، مرجع سابق ، ص ٧٠ - ٧٣ .

٢٦ - د . مأمون فندى، «الأمن القومي في عصر المعلومات بين المصالح الشخصية والمصلحة الوطنية»، الأهرام ، ٢٢ / ٩ / ١٩٩٨ .

٢٧ - د. سليمان صالح ، «حق الصحفي في الحصول على المعلومات ونوره في تحقيق حق الجماهير في المعرفة»، المجلة المصرية لبحوث الإعلام، جامعة القاهرة، عدد (١)، يناير ٩٧ ، ص ١ : ٣٥ .

٢٨ - المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

٢٩ - د . ممنوح شوقي ، مرجع سابق ، ص ٤٦ .

١٥ - يشير د . على الدين هلال، إلى تصنيف تعريفات الأمن القومي بإعتبارها تنحصر في مدرستين هما : الأمن القومي كمفهوم عسكري، والأمن القومي كقضية مجتمعية، حيث يدخل في إعتباره الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والانسانية، «الأمن القومي العربي: دراسة في الأصول»، مرجع سابق، ص: ٩ ، ١٢ .

١٦ - المرجع السابق ، ص ١٢ : ١٤ .

١٧ - السيد يسن، «مستقبل النولة على عالم كرنى» ، الأهرام، ١ مايو / ١٩٧٧ .

١٨ - صلاح الدين حافظ، قراءة المستقبل عبر ثقافة الديمقراطية وصحافة المعلومات، الأهرام، ١٥ / ١ / ١٩٩٧ .

١٩ - د . ممنوح شوقي، «الأمن القومي والعلاقات الدولية»، مجلة السياسة النولية، عدد ١٢٧، يناير ١٩٩٧، ص ٤٧:٤٦، ص٤٦

٢٠ - جميل مطر، «قضية في المستقبل، النولة بسيادة أقل»، الأهرام ١٩ / ٣ / ١٩٩٧ .

٢١ - د . ممنوح شوقي، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

٢٢ - د . عواطف عبد الرحمن، «الحق في الاتصال وإشكالية الديمقراطية في الوطن العربي»، الدراسات الاعلامية، القاهرة ، عدد ٤٩، أكتوبر - نوفمبر ١٩٨٧، ص١٨: ٣٤، وكذلك : خليل صبايات، «حق

# دور الجامعات

## في مواجهة التحديات المعاصرة

### (التحدى الثقافى)

د. محمد حسن القبيسى \*

ازداد الاهتمام فى السنوات الأخيرة بوضع الجامعات، ودورها فى المجتمع المعاصر، ومستقبل التعليم الجامعى وأهدافه والتحديات التى تواجه الجامعات فى مختلف المجالات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، والأساليب، والوسائل التى يمكن أن تستعين بها الجامعات لمواجهة هذه التحديات والتغلب عليها أو تذليلها وتطويرها لصالحها وتحقيق أهدافها وخدمة رسالتها العلمية. ومع أن هذه المسائل وأمثالها كانت تشغل دائماً بال المهتمين بالسياسة التعليمية بعمامة وسياسية التعليم الجامعى بخاصة فى كل أنحاء العالم فإن تفاعل الأحداث وتسارع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وانعكاس هذه الأحداث والتغيرات على الجامعة والتعليم الجامعى أذارت كثيراً من التساؤلات لدى بعض القطاعات حول الأهداف الحقيقية التى يجب أن تسعى الجامعات إلى تحقيقها، وعن نوع التعليم الجامعى الذى يمكن أن يساعد على تحقيق هذه الأهداف.

\* باحث تربوى بوزارة التربية والتعليم، والتعليم العالى بدولة قطر .



الإنفاق على البحوث والدراسات وما إلى ذلك. ولكن ربما كان أكبر هذه التحديات وأشدها صعوبة وتمقداً وتشابكاً هي التحديات الثقافية التي تتمثل في التغيرات السريعة المتلاحقة في الفكر العالمي وظهور الحركات والاتجاهات، والدراس الفكرية، والأدبية، والفنية الجديدة وضرورة ملاحقة هذه التغيرات حتى لا تتسع الفجوة بين ما تقدمه الجامعات من مناهج ومقررت وبين تلك التيارات الثقافية الجديدة.

وإذا كان ذلك يصدق على الجامعات في الخارج فإن ذلك يصدق من باب أولى وبشكل أوضح وأقبح في مجتمعات العالم الثالث التي يدخل العالم العربي في إطارها، والتي تخضع لكثير من المؤثرات الثقافية الوافدة إليها من الخارج بحيث تشكل تهديداً خطيراً لثقافتها القومية الأصيلة.

من هنا كانت أهمية موضوع دور الجامعات في مواجهة التحديات الثقافية المعاصرة. فالتغيرات السريعة الهائلة في مختلف مجالات المعرفة وتشعب هذه المجالات ذاتها وضرورة الإحاطة بها بقدر الإمكان وسهولة الضخوع لتأثيراتها والانقياد لها بفعل وسائل الإعلام الحديثة، والحاجة في الوقت ذاته إلى متابعة التقدم العلمي والتكنولوجي والحضاري في العالم بكل مستحدثاته ومستجداته مع الاحتفاظ بالهوية الثقافية العربية الإسلامية، كلها أمور تستدعي تجنيد كل القوى الاجتماعية،

وقد تمثل ذلك كله بشكل واضح في حركة الطلاب الشهيرة التي قامت في الخارج عام ١٩٦٨م ووجدت لها أصداء مختلفة ومتباينة في مختلف أقطار العالم. وقد تختلف الآراء حول هذه الحركة وبواعثها وجذورها ولكن الذي لا شك فيه هو أنها نبهت الأذهان إلى بعض مطالب الطلاب من أن الجامعات أنشئت من أجلهم وأنهم هم الفئة التي يتعاملون مع الجامعة ومع التعليم الجامعي بشكل مباشر، وأن حياتهم هي التي سوف تتأثر بذلك التعليم في المستقبل، وأن لهم الحق على هذا الأساس في أن تكون لهم كلمة في تحديد نوع التعليم الذي ينبغي على الجامعات أن تقدمه لهم، وفي المناهج والمقررات، وطرق التدريس بل وفي إدارة المؤسسة الجامعية ذاتها وما إلى ذلك. «ولكن المغالاة في المطالب أدت إلى خذلان القضية بحيث بدت الحركة كما لو كانت تشكل تهديداً مباشراً للتعليم وللقيم مما ترتب عليه تراجع الحركة وانحسارها إلى حد كبير» (١).

ولكن المهم هو ازدياد الشعور والوعي بوجهة نظر الأجيال الناشئة حول التعليم الجامعي، وإدراك بعض التحديات التي تواجه الجامعات سواء في المجال التعليمي ذاته كما يتمثل في المناهج ومدى ملائمتها لمتطلبات المجتمع المعاصر، أو المجالات الاقتصادية كما تتمثل في إمكانات الجامعات المادية والمالية وقدرتها على

وهذا معناه ضرورة توجيه التعليم الجامعي نحو فهم التيارات الثقافية المتلاطمة عن طريق إخضاعها للدراسة والنقد والتحليل وتقبل ما يتفق منها مع التقاليد والتراث، والقيم العربية والإسلامية، والكشف عما قد يكون بها، أو ببعضها من زيف أو نقص. وهذا هو مفهوم المواجهة في نظرنا ثم تمثل ما لا يتعارض بعد ذلك مع قيمنا ومع تصورنا الخاص للتعليم الجامعي ورسالة الجامعة.

وسوف يتطلب ذلك بالضرورة تحصر التعليم الجامعي من بعض الأنماط التقليدية القائمة الآن سواء فيما يتعلق بالمناهج، أو بعض المقررات، أو بعض طرق التدريس مع اتساع النظرة في تصور أهداف الجامعة بحيث نضفي على التعليم الجامعي طابعاً ثقافياً إنسانياً نابعاً من التجربة الخاصة ومن الاتصال بالثقافات العالمية المختلفة، وبذلك نجعل التعليم الجامعي الأكاديمي تحضراً وإنسانياً إن صح هذا التعبير.

وسوف يقتضى ذلك منا أن نتعرض هنا لبعض المشكلات الأساسية التي تدور حول تعرف الأهداف الواقعة للتعليم الجامعي، ونوع التحديات الثقافية التي يواجهها المجتمع العربي والتي يتعين على الجامعة مواجهتها وإمكانية تطوير هذه التحديات للإفادة منها لإثراء التعليم الجامعي وتوسيع رسالة الجامعة وإنطلاقها إلى مجالات أوسع وأرحب .

وكل النظم والمؤسسات والأجهزة والموارد البشرية، والاجتماعية لمواجهة هذه التحديات.

ولكن يبقى دور الجامعة مع ذلك بارزاً بحكم طبيعة رسالتها في المجتمع، وهي رسالة مزودة تهتم بالتعليم الأكاديمي المتخصص الدقيق من ناحية وبالثقافة الإنسانية الرفيعة من الناحية الأخرى. أو هذا على الأصح هو الهدف المثالي الذي يجب أن تعمل الجامعة على تحقيقه.

ولست المسألة هنا مجرد تحديد للعلاقة بين التعليم الجامعي والثقافة، أو التعرف أساليب وطرق التصدي للمؤثرات الثقافية الخارجية، أو تنفيذ الآراء والأفكار الوافدة دفاعاً عن مقومات الثقافة العربية الإسلامية وتسخير الجامعات لذلك الغرض أو توجيه التعليم الجامعي لتنفيذ وبعض تلك الأفكار والآراء إذا كانت لا تتفق مع القيم والتقاليد والتراث الثقافي الأصيل. إنما المسألة أوسع من هذا بكثير لأنها تتعلق في حقيقة الأمر حسب ما نتصور بإقامة بناء تعليمي جامعي متكامل يأخذ في الاعتبار المتغيرات الثقافية في العالم بوجه عام. إذ لم يعد هناك الآن مجتمع مغلق على ذاته، وبذلك فلا يمكن للمجتمع العربي أن يعيش في عزلة عن بقية أنحاء العالم، أو أن يعزل نفسه عن المؤثرات الثقافية الخارجية التي تنقلها كل وسائل الإعلام والاتصال في سهولة ويسر بكثرة وكثافة هائلة .

أولاً: التعليم الجامعي: واقعه وأهدافه:-

١ - من أهم ما يميز الوضع القائم بالنسبة للجامعات في العالم العربي بوجه عام شدة الإقبال على التعليم الجامعي بحيث لم يعد ذلك التعليم قاصراً الآن على فئة معينة من الناس، أو على شريحة معينة من المجتمع، أو على (طبقة) تون أخرى تزهلها إمكاناتها المالية وتطلعاتها الاجتماعية وتظيرتها إلى الحياة لطلب هذا النوع من التعليم، وإنما أصبح التعليم الجامعي مطلباً شخصياً وفردياً بقدر ما هو مطلب قومي، كما يدل على ذلك سياسة مجانية التعليم الجامعي التي تأخذ بها بعض الدول العربية وليس الدول الخليجية وحدها.

فالدولة تنفق على الجامعات وتمتد ذلك كأستثمار طيب في مجال تنمية الموارد البشرية وجزءاً من سياسة التنمية الشاملة. وإذا كانت الجامعات ملكاً للدولة فإن ذلك يعطيها أي الدولة حق التدخل في رسم سياسة التعليم الجامعي، أو على الأقل توجيه هذه السياسة بشكل مباشر، أو غير مباشر بما لا يتعارض مع النظام العام للدولة أو الأسس التي يقوم عليها نظام الحكم. وهذا نفسه يصدق على السياسة الثقافية، وإن كان النشاط الثقافي يسمح بطبيعته بقدر أكبر من الحرية الشخصية والفردية في مجال الإبداع. ولكن هذا الوضع العام يثير بعض التساؤلات حول

مشكلة (تسييس) الثقافة وتوجيه التعليم الجامعي وجهة معينة بالذات، وعن العلاقة بين النول والتعليم الجامعي، والثقافة، والقيود، والحدود التي تلتزم بها الجامعات في وضع مناهجها واختيار المقررات الدراسية.

ب - وتلتزم الجامعات بمبدأ تكافؤ الفرص في قبول الطلاب تطبيقاً لمبدأ العدالة بين الذين بلغوا سناً معينة وأنهوا بنجاح مرحلة دراسية معينة بالذات هي مرحلة الدراسة الثانوية. وهذا المبدأ مسئول إلى حد كبير بالإضافة إلى مبدأ مجانية التعليم عن شدة الإقبال على التعليم الجامعي وعن زيادة الأعداد الكبيرة التي تقبلها معظم الجامعات في العالم وازدحام هذه الجامعات بطلابها وما يترتب على ذلك من انخفاض مستوى التعليم بها.

بيد أن مبدأ تكافؤ الفرص لا يعني في حقيقة الأمر إطلاق القبول في الجامعات بغير قيد أو شرط. فليس من الضروري أبداً أن يلتحق بالجامعة كل من حصل على الثانوية العامة بصرف النظر عن الاختلافات الفردية وعن التفاوت في القدرات الذهنية والاستعداد الشخصي لمتابعة الدراسة في تلك المراحل المتقدمة من التعليم. وليس من المفروض أن يطبق التعليم الجامعي مبدأ المساواة إلا بين الذين يتساوون في القدرات العقلية والذين تتوفر فيهم مهارات معينة بالذات تساعد على التحصيل وعلى

بالحياة العملية وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع وبمتطلبات الحياة اليومية، وذلك بعكس الحال بالنسبة للدراسات العقلية أو النظرية التي يطلق عليها أسم (Liberal arts) كالفلسفة والتاريخ واللغات، أو حتى العلوم البحتة الأساسية التي لا تعد صاحبها في الأغلب لهنة معينة محددة، ولذا فكثيراً ما ينظر إليها الناس نظرة أدنى من نظرتهم إلى التعليم التقني بهذا المعنى، بل إن الجامعات ذاتها تعطي من العناية بالتعليم التقني أكثر مما تعطيه للدراسات العقلية النظرية وتخصص الجانب الأكبر من ميزانيات بحوثها لهذا النوع من التعليم والبحوث المتعلقة به .

والظاهر أن بعض الكليات (النظرية) بدأت تسير هذا الاتجاه نحو إعداد طلابها للعمل بعد التخرج وجاءت في ذلك إلى إدخال دراسات وتخصصات في بعض أقسامها لم تكن تعترف بها من قبل، أو توليها أي قدر من الاهتمام والاحترام مثل الخدمة الاجتماعية والإعلام. «وفي كثير من البلاد العربية تعتبر الكليات ذات الطابع التعليمي المهني، أو التقني كالهندسة والطب من كليات (القمة) لأنها تقبل أعلى المجاميع والتسمية ذاتها لها دلالتها ومغزاها وتعتبر بشكل واضح عن نظرة الناس ونظرة الجامعة ذاتها إلى نوعي التعليم» (٢)

د - وهذا يؤدي بنا إلى مشكلة مضمون التعليم الجامعي أي مشكلة المناهج

التفكير للمستقبل. وعلى ذلك فإن شعار - جعل التعليم الجامعي ديمقراطياً - لا يمكن أن يؤخذ على علاته، أو أن يقبل على إطلاقه بحيث تفتح الجامعات أبوابها على مصاريحها لكل من يريد الالتحاق بها مادامت لا تتوفر لديه الإمكانيات والقدرات اللازمة لذلك. وإذا كان من غير العدل عدم إتاحة الفرصة للكفاء بالجامعة فإنه من غير العدل أيضاً إهدار عنصر الكفاءة والمهارة وإغفال الاختلافات الفردية في القبول بالجامعات.

ج - وثمة اتجاه واضح يفلب على كثير من الناس سواء في العالم العربي، أو الخارج إلى اعتبار الجامعة مجرد مرحلة تالية ومكملة للتعليم الثانوي أي أن الجامعة ليست سوى نظام يمثل ما بعد التعليم الثانوي أو ما فوق التعليم الثانوي، وأن الهدف منه هو تدريب القدرات وتنمية المهارات الفردية وإعداد الطلاب للعمل بعد التخرج والخروج إلى الحياة العملية. بكل رسالة الجامعة هنا تنحصر في إعداد الطلاب إعداداً علمياً جيداً لممارسة مهنة معينة، وهذا واضح من الاهتمام البالغ الذي تعطيه معظم الجامعات في العالم لما يمكن تسميته بالتعليم المهني أو التقني (Professional) الذي يؤهل لممارسة عمل معين ومحدد بالذات كما هو الحال في كليات الطب والهندسة والتجارة والتربية وما إليها من كليات تقدم دراسات أكثر التصاقاً

والجهد والمال للشؤون العامة المتعلقة بحياة الإنسان ككل يرى البعض الآخر أن الجامعات أعطت بالفعل لهذه الأمور أكثر مما ينبغي وأنه من الخير لها أن تقصر اهتمامها على ما يتصل بالحياة الأكاديمية من أمور بحيث تكف تماماً على المشكلات المتصلة بالتخصصات العلمية الدقيقة، إلا أن هناك من يرى أنه يجب على الجامعة أن تكون مفتوحة أمام كل فكر وكل اتجاه أيديولوجي ولكل التسيارات والمذاهب والاتجاهات وأنه لا يجب على هذا الأساس أن يكون هناك أبداً ما يمكن أن يطلق عليه تعبير (Core of Knowledge).

وهذا الاختلاف في الآراء هو الذي يعكس لنا حقيقة موقف الجامعة والاتجاهات الثقافية وتناى بجانبها عنها وتلقى دونها أبوابها وعقول أساتذتها وطلابها وتحصرها في مواد التخصص بحيث تخرج لنا في آخر الأمر الشخص المتخصص تخصصاً دقيقاً يؤهله لممارسة مهنة، أو عمل معين بنجاح؟ أم أنها تأخذ من هذه التيارات والاتجاهات والمدارس والثقافات المختلفة بقدر؟ ولكن ما هو هذا القدر، ومن الذي يحدده وما محكات الاختيار ومعايير الانتقاء؟ أم أنها تفتح أبوابها وعقول أبنائها على كل ثقافات العالم وتياراتها واتجاهاتها المتضاربة المتلاطمة بصرف النظر عن النتائج التي قد تترتب على ذلك؟ وهذه كلها مسائل تثار في الخارج ومطروحة هناك

والمقررات الدراسية التي تعاني في كثير من الأحيان من بعض الاضطرابات والارتباك وعدم الاستقرار، فالمناهج كثيراً ما تتغير دون أن يكون هناك سبب واضح أو مبرر قوى لتغييرها مما يعنى عدم وضوح الرؤية، أو الهدف من العملية التعليمية كلها، المسألة تتصل في آخر الأمر باختلاف النظرة وتباين الآراء حول ما يجب تدريسه، إذ إن بعض المقررات الدراسية تثير كثيراً من الجدل حول أهميتها وجودها، وهي مسألة ليست مقصورة على الجامعات العربية، وإنما نجد لها مثيلاً - ولكن بدرجة أقل - في الجامعات الأجنبية في الخارج. ومنذ سنوات قليلة أثارت في بريطانيا مثلاً مناقشات جادة وطويلة حول أهمية وجوب تعليم اللغات الكلاسيكية في المدارس والجامعات. وقد أثير مثل هذا الجدل منذ نصف قرن في مصر حين كان طه حسين يطالب بشدة وأصرار بإدخال اللاتينية واليونانية إلى كليات الآداب والحقوق، وكان له ما أراد، ثم اختفت اللغتان بعد ذلك بسنوات طويلة إلا بالنسبة للأقسام المتخصصة. كذلك يثور جدل طويل في كل الجامعات حول مدى الاهتمام الذي يجب أن تعطيه الجامعات لمشكلات الحياة، والمجتمع، والعالم الخارجي، أي مدى الأمور التي لا تتعلق تعلقاً مباشراً بموضوعات التخصص العلمي الدقيق. وبينما يرى البعض أنه يتعين على الجامعات أن تعطى مزيداً من الوقت

البحث. ومن الأولى بنا أن نثيرها نحن بقوة، وأن نعالجها في ضوء ظروف حياتنا وتقاليدينا العامة، وفي إطار تصورنا للتعليم الجامعي ونظرتنا إلى الثقافة وأهدافها والعلاقة بينهما.

وقد نستطيع أن نخرج من هذا العرض السريع ببعض الملاحظات العامة التي تساعد على تعريف التحديات الثقافية التي تواجه الجامعات في الوقت الحالي، وموقف هذه الجامعات منها:

#### الملاحظة الأولى:

هي أن هدف التعليم الجامعي يجب أن يكون هدفاً (تعليمياً) بالمعنى الواسع للكلمة بحيث لا يقتصر على إعداد الطلاب للحياة العملية وممارسة (مهنة) معينة فحسب مع إغفال طلب المعرفة في ذاتها وإذاتها بصرف النظر عن الجانب العملي، أو «البرجماتي»، أو التقني لهذه المعرفة.

وأسنا نهدف بهذا القول إلى التمييز من شأن التعليم العملي، أو التقني، أو إلى الدعوة إلى إغفال وإسقاط الاعتبارات المتعلقة بالعمل، والتضحية بها في سبيل المعرفة النظرية التي تهتم بالإعداد الذهني للتفكير، وبالفكر المجرد. وكل ما نعنيه هنا هو عدم إعطاء هذه الاعتبارات العملية، أو البرجماتية أولوية مطلقة على حساب الاهتمام الأكثر عمومية، والتي تتعلق بحياة المجتمع وبالبائى الإنسانية بوجه عام.

فالتعليم النظري أو العقلي المجرد الذي كثيراً ما يؤخذ عليه أنه تعليم غير (عملي) وليس له جدوى في واقع الحياة العملية يقوم بدور هام وفعال في تحقيق القيم وترسيخها. وعلى الرغم من أنه لا يمكن (تلقين) هذه القيم، أو فرضها إلا أنه يمكن تعلمها واكتسابها أو تحصيلها وتمثلها عن طريق القدوة وبخاصة عن طريق الوعي بالتراث العقلي للمجتمع مع عدم إهدار قيمة تراث وثقافات المجتمعات الأخرى، وكذلك عن طريق تنمية القدرات الذهنية اللازمة لتحصيل المعرفة الإنسانية في شتى صورها وشتى مصادرها.

وقد يمكن هنا بذل بعض الجهد لتعريف الطلاب في التعليم الجامعي العلمي، أو التقني بالجوانب العقلية، أو الذهنية الخالصة في موضوعات تخصصهم، بحيث يدرس مثلاً تاريخ الإنجازات العلمية والجوانب الإنسانية الرفيعة فيها والمنهج المختلفة التي يمكن اتباعها في البحث عن الحقيقة بأشكالها المختلفة، أي قد يمكن العمل بشكل من الأشكال على إبراز الجوانب الإنسانية والاجتماعية والجمالية التي تختفي وراء هذه الإنجازات العلمية، ويقول آخر فإنه يجب النظر إلى التخصصات العلمية كالطب والهندسة من حيث هي إنجازات إنسانية وأن تدرس على هذا الأساس، إذ ليس ثمة ما يدعو أبداً إلى الفصل القاطع بين الإنسانيات

الاتجاه نحو الجامعات، سواء أكان ذلك عن طريق تحديث وسائل التدريس بدلاً من الاكتفاء بالوسائل القديمة التقليدية، أو عن طريق تنويع التعليم وفتح مجالات وتخصصات جديدة في التعليم الجامعي مع الأخذ بعين الاعتبار أهمية وجود قدر بل ونوع معين من المعرفة مشترك بين (جميع) الطلاب بصرف النظر عن مجال التخصص، ومع الابتعاد بقدر الإمكان عن أسلوب (التلقين) الذي يغلب الآن في الجامعات عندنا، وغير ذلك من وسائل قد يقترحها علماء التربية ويدركون جدواها من واقع خبرتهم الطويلة. ولقد أصبحت إمكانات التعلم الآن واسعة بدرجة لم تكن معهودة من قبل.

ثمة موارد بشرية ومادية هائلة ومتنوعة تساعد على ذلك، كما أن فرص التعليم والتعلم أصبحت متوفرة ومتاحة بشكل غير مألوف. ولكن المهم هنا هو التحرر من أفة النقل والتقليد والمحاكاة التي تحكم كثيراً من تصرفاتنا بحيث لا تنقيد بمنهج جامعات أخرى في الخارج وننقلها بحذافيرها وتقاسيلها، وإنما لابد من أن تصدر المناهج عن الظروف والأوضاع الخاصة بالمجتمع ومن تجربة المجتمع الذاتية وتاريخه، وتراثه، ونظرتنا إلى الحياة وإلى المستقبل، وبحيث تعكس هذه المناهج أيضاً علانية المجتمع بالمجتمعات والثقافات الأخرى التي تؤثر فيه وتتأثر به. وقد يكون

والتخصصات العلمية، أو بين الدراسات العقلية النظرية والدراسات العملية، كما أنه ليس ثمة ما يدعو على الجانب الآخر إلى اعتبار العلم تهديداً للقيم الإنسانية والثقافية كما يعتقد بعض (الإنسانيين<sup>(١)</sup>)، والمهم على أية حال هو أنه في الوقت الذي تعنى فيه الجامعات بالتخصص الأكاديمي الدقيق يجب أن تعنى بإعداد الشخص المتعلم تعليماً يتجاوز حدود تخصصه دون أن يتعارض ذلك مع مبدأ التخصص.

#### الملاحظة الثانية:

هي أن أحد التحديات الكبرى التي تواجه الجامعات الآن في كثير من البلاد هو المحافظة على مستوى التعليم، أو على (الجودة)، إن صح هذا التعبير إزاء الأعداد الكبيرة من الطلاب الذين تقبلهم الجامعات أو بعضها على الأقل الآن، ودون الإخلال في الوقت ذاته بمبدأ العدالة أو تكافؤ الفرص بالمعنى الذي أشرنا إليه من قبل.

وليس ثمة ضرورة إلى العودة إلى سياسة تقييد القبول بالجامعات، أو تقليل عدد القبولين بطريقة تعسفية كوسيلة للارتفاع بمستوى التعليم الجامعي. فلقد أصبحت جامعات الأعداد الكبيرة أمراً مسلماً به، وحقيقة تفرض نفسها على واقع التعليم الجامعي، والتعليم العالي بشكل عام، ولذا ينبغي البحث عن وسائل وأساليب أخرى لمواجهة المشاكل الناجمة عن ازدياد

الآن.

ثانياً : الثقافة - المتطلبات والتحديات:

ليس ثمة أكثر من التعريفات التى اقترحها الكتاب والباحثون لمفهوم الثقافة. فقد وصلت هذه التعريفات إلى أكثر من مائة وخمسين تعريفاً عام ١٩٥٠م. وقد أضيفت إليها بغير شك بضع مئات أخرى من التعريفات منذ ذلك الحين وحتى الآن. وإذا فإتينا نكتفى هنا بالقول بأن مفهوم الثقافة يشير إلى كل ما يصدر عن الإنسان من إبداع، أو إنجاز فكري، أو أدبي أو فنى، أو علمي، ولكن هناك تصوراً آخر أوسع وأشمل للثقافة يعتبر الثقافة هى حصيلة كل النشاط البشرى الاجتماعى فى مجتمع معين. مما يعنى فى آخر الأمر أن لكل مجتمع ثقافته الخاصة المميزة. بصرف النظر عن مدى تقدم ذلك المجتمع، أو تأخره، وتخلفه، وهذا التصور لمفهوم الثقافة لا يحمل أى مضمون تقويى، وإن كان يعترف فى الوقت ذاته بأن لكل ثقافة نسقتها الخاص من القيم والمعايير. وداخل هذا التصور (الوصفى) العام يمكن التمييز بين (درجات) مختلفة من النشاط التى تتفاوت فى الضيق، أو الاتساع بحيث يقتصر استخدام كلمة (الثقافة) أحياناً للإشارة إلى النشاط الاجتماعى الذهنى والفنى، وفى أحياناً أخرى إلى النشاط الفنى وحده، أو حتى إلى الأنشطة (الشعبية) العادية التلقائية التى يقصد منها التسلية والترفيه

هذا أوضح بطبيعة الحال فى الدراسات الإنسانية والاجتماعية منه فى الدراسات العلمية والعلمية .

الملاحظة الثالثة والأخيرة:

هى أن كل تلك المشكلات التى عرّضنا لها بشكل سريع ومختصر مشكلات على درجة كبيرة من الصعوبة والتعقيد ولا يوجد لها حلول أو أجوبة جاهزة، وإنما هى تحتاج على العكس من ذلك إلى القيام ببحوث ميدانية مكثفة وغير مسبقة، وبحيث يتم إجرائها على نطاق واسع لنصرف آراء وتطلعات الأساتذة والإداريين والطلاب والخريجين وأصحاب القرار وواضعى السياسات التعليمية والثقافية، وقطاعات أخرى عريضة من المجتمع قبل البت فيها برأى قاطع لتحديد نوع التعليم الجامعى وعلاقته بالتوجهات والأوضاع الثقافية السائدة فى المجتمع والحركات والتيارات الثقافية الخارجية التى تؤثر بالضرورة فى حياة الناس نتيجة لازدياد قوة وفاعلية وسائل الإعلام الحديثة، والتى تشكل تحديات هائلة أمام التعليم الجامعى والثقافات القومية على السواء.

وسوف يتطلب ذلك أن يتحرر التعليم الجامعى من النطاق التقليدى المضروب عليه وينطلق إلى أفاق أوسع وأرحب تأخذ فى الاعتبار الأوضاع الثقافية العامة بالمعنى الواسع لكلمة (ثقافة)، وهو ما سنعرض له



٣ - الفن الراقي بصوره المختلفة .

٤ - التسليّة المفيدة النافعة الراقية .

ولسنا هنا بصدد الحديث بالتفصيل عن الثقافة ومكاناتها المختلفة لأن الذي يهمنا في المحل الأول هو تعرف علاقة الثقافة بالتعليم الجامعي من ناحية وتبين التحديات الثقافية التي تواجه التعليم الجامعي والتي قد تؤثر فيه، والتي يتعين عليه مواجهتها من الناحية الأخرى.

وواضح أن الثقافة حسب التصور الوصفي للثقافة لا تكاد تشكل تحدياً سافراً للجامعة والتعليم الجامعي باعتبارها حصيلة للنشاط البشري العادي المألوف في المجتمع، وأن الفرد يكتسبها خلال عمليات التنشئة الاجتماعية بطريقة تلقائية، وأن وجودها لا يرتبط بالفرد من حيث هو فرد، وإنما هي خارجة عنه وسابقة عليه، ولا تخضع لإرادته. كما أن وجودها يتعدى وجوده ويتجاوزته في الزمن وأنها على هذا الأساس تكاد تكون مرادفة لأسلوب الحياة السائد في المجتمع.

وصحيح أن عمليات التنشئة الاجتماعية، أو التطبيع الاجتماعي يتم بمقتضاها انتقال أساليب الحياة بكل أنشطتها وإنجازاتها وقيمها من جيل لآخر، وأن لهذه الأساليب تأثيراً مباشراً في إعداد الشخص وتكوين الشخصية كما تتدخل بشكل أو بآخر في توجيهه للحياة بما في ذلك نحو التعليم

أثناء وقت الفراغ . والواقع أن هذه التميزات ذاتها يمكن إقامتها داخل إطار التصور المعياري الذي أشرنا إليه في البداية والذي يأخذ الثقافة على أنها (الإبداع)، أو (الإنجاز) الفكري، أو الأدبي، أو الفني، أو العلمي الذي يصدر عن الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع معين.

فالتصور المعياري هو الوجه الآخر للتصور الوصفي ولكن من زاوية تقويمية خالصة. وعلى ذلك فإنه يمكن التمييز داخل كل من هذين التصورين الوصفي والمعياري للثقافة بين أربعة مجالات على النحو التالي(٤).

١ - التصور الوصفي :

١ - المجال الأنثروبولوجي الواسع حصيلة النشاط الاجتماعي .

٢ - النشاط الفكري والفني.

٣ - النشاط الفني والأدبي أي بدون الفلسفة والعلم.

٤ - الأنشطة الثقافية الشعبية بقصد الترويج .

ب - التصور المعياري :

١ - المظاهر والجوانب الراقية والسامية في النشاط الاجتماعي بعمامة.

٢ - أرقى وأفضل ما صدر عن الفكر وعن القول .

مما يبدو من وجود شيء من التعارض بين أحكام وقواعد التخصص الأكاديمي الدقيق ومتطلبات الثقافة الواسعة العريضة. والاهتمام بالتوفيق، أو الجمع بين التخصص الدقيق والثقافة الرفيعة العريضة لإعداد المواطن المتعلم المتخصص المثقف - هو الذي يفرض على الجامعة أن تواجه عدداً من التحديات الثقافية، وأن تعمل على تذليلها، أو حلها، أو تطويعها لصالحها، ولاستكمال رسالتها (التعليمية) على الوجه الصحيح والسليم .

وقد يكون من الخطأ أن تقصر التحديات الثقافية هنا على التحديات التي تمثلها الثقافات الأجنبية وحدها. وذلك أن الثقافة العربية الإسلامية ذاتها التي تسود المجتمع العربي المعاصر تضع عدداً من التحديات أمام الجامعة والتعليم الجامعي، أي أن الجامعة تواجه أن ينبغي عليها أن تواجه نوعين من التحديات الثقافية، وإن كانت التحديات الثقافية الخارجية، أو الأجنبية أشد ضراوة وعمقاً وأكثر خطورة لأنها تملك من القوة والوسائل ما يساعدها على شدة التأثير بحيث تمثل تهديداً مباشراً ليس للنظام التعليمي الجامعي فحسب بل وأيضاً للهوية الثقافية العربية.

وتشكل مقومات الثقافة العربية الإسلامية ذاتها النوع الأول من التحديات الثقافية التي يتعين على الجامعة مواجهتها. وقد تختلف الآراء حول هذه المقومات، ولكن

الجامعي، واختياراته لنوع التخصص بل أنها تتدخل في تحديد سياسة التعليم الجامعي ذاتها على اعتبار أن هذه السياسة تتأثر بغير شك بالقيم السائدة في المجتمع وبأنماط التفكير المتوارثة، ولكن على الرغم من هذا كله فإن ثمة فارقاً كبيراً بين التنشئة الاجتماعية، أو التطبيع الاجتماعي وبين التعليم وبخاصة التعليم الجامعي. فاللعليم الرسمي أصيق مجالاً من علمية التنشئة كما أنه لا يأخذ منها سوى الجوانب التي تساعد الارتقاء بالفرد في المجتمع وتحسين أوضاعه بطريقة عملية وهادفة.

وإذا نحن سلمنا بأن التعليم الجامعي يجب أن يكون (تعليمياً) بالمعنى الواسع للكلمة بحيث لا يقتصر على إعداد الطالب لممارسة مهنة أو عمل معين في مجال تخصصه الدقيق، وأن الجامعة لم توجد لتعمل بمعزل عن المجتمع أو حتى عن العالم الخارجي ككل، وأن رسالة الجامعة هي في آخر الأمر إعداد المواطن المتخصص الذي يستطيع أن يتابع ويدرك في الوقت ذاته ما يدور في العالم الخارجي من أحداث وما يتفاعل فيه من تيارات فكرية واتجاهات سياسية ونظم اقتصادية - فإن ذلك سوف يعني أنه يتعين على الجامعة أن تتأخذ في اعتبارها وأن تغطي شيئاً من الاهتمام في إعداد المناهج بالثقافة القومية من ناحية وبالثقافات العلمية أو بعض مظاهرها وإنجازاتها من الناحية الأخرى، على الرغم

والنعرات المذهبية والانتماءات العرقية، كما أنه ينظم العلاقات بين الناس ويفرض عليهم تسقياً من القيم وأنماط السلوك وطرق التفكير بل ونظرة معينة للإنسان والمكون والمجتمع والعالم الآخر بكل ما تتضمنه هذه النظرة العامة الشاملة الكلية من نظم وقواعد وتشريعات اجتماعية وأخلاقية بحيث يصعب الفصل في واقع الحياة اليومية بين ما هو ديني وما هو غير ذلك. «فتأثير الدين يتغلغل إلى كل جوانب الوجود الإنساني ويصبغها بصبغة خاصة متميزة، وبذلك يعتبر الدين الإسلامي ثقافة وحضارة معاً، في الوقت الذي يعتبر فيه أحد مقومات بل وأحد مكونات الثقافة العربية الإسلامية ولون أن يكون في ذلك تعارض أن تناقض» (هـ).

٣ - وأخيراً فإننا نتكلم عن التراث كمقوم من مقومات الثقافة العربية الإسلامية فإننا نشير إلى ما أنتجه التفاعل والتعاون بين القومين السابقين (الدين واللغة) من نتاج في مجالات الفكر المختلفة من فلسفة وعلم الكلام وتصوف وإلهيات، وكذلك في مجال الأدب والفن والعلم وغيرها، بعصر النظر عما إذا كان ذلك التراث قد صدر عن مبدعين من العرب المسلمين أو من غير العرب ومن غير المسلمين ممن عاشوا في العالم العربي، وتأثروا بالدين الإسلامي من حيث هو أسلوب للحياة أو ناقشوا بعض قضاياها، أو اتخذوا اللغة العربية أداة

ثمة ثلاثة مقومات أساسية تعطى الثقافة العربية الإسلامية (خصوصيتها) وتميزها عن غيرها من الثقافات، أي تعطيها (هويتها)، أو ذاتيتها الثقافية إن صح هذا القول. وهذه المقومات الثلاثة التي نعرض لها هنا بسرعة وإيجاز هي : اللغة والدين والتراث.

١ - ونحن نتكلم عن اللغة في هذا المقام فإننا نعني اللغة من حيث هي وسيلة للتواصل والتفاهم وأداة للفهم والتفكير والتعبير ونقل الأفكار. ولكن الأهم من هذا كله هو اللغة من حيث هي مظهر لوجود رابطة ذهنية ووجدانية بين كل الناطقين بها. فاللغة العربية من هذه الناحية هي عامل وحدة وتوحيد، وقد زاد من قاطعيتها أنها لغة القرآن الكريم، وإن كان القرآن قد عمل من الناحية الأخرى على بقائها واستمرارها وحفظها من الاندثار، ومن التغيير إلا في حدود معينة بحيث لم تقطع اللغة العربية حاضرها تماماً عن ماضيها على الرغم من القرون الطويلة التي مرت عليها وعاشتها كأداة تواصل ونقل وتوصيل.

٢ - كذلك فإننا نتكلم عن الدين كأحد مقومات الثقافة العربية الإسلامية فإننا لا نأخذ الدين من حيث هو نسق من المعتقدات والشعائر فحسب، وإنما نأخذها أيضاً باعتبارها أسلوباً للحياة. فالدين يصبغ الحياة الاجتماعية في العالم العربي بصبغة معينة متميزة تتجاوز كل الاختلافات الدينية

إلى لغة معينة تعبر بها عن تلك المبادئ والمناهج والمنجزات في ألفاظ ومصطلحات وتصورات وتراكيب لا تتوفر للغة العربية. وقد وجدت هذه الآراء صدى لها في الجامعات العربية، وفي التعليم الجامعي حيث تعتمد معظم الجامعات في تدريس بعض التخصصات، كالعلوم الطبية والهندسة على اللغات الأجنبية لاعتقاد الأساتذة في عجز اللغة العربية عن أن تعبر عن مصطلحات هذه العلوم والتخصصات الحديثة. وكذلك وجدت هذه الدعاوى الأجنبية أصداء قوية لها في بعض المجتمعات العربية خارج نطاق الجامعات فارتفعت الدعوة أحياناً إلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية للتغلب على مشكلات (تشكيل) أواخر الكلمات وكذلك للتغلب على صعوبة كتابة الحروف العربية التي تتخذ أشكالاً مختلفة حسب موقعها من الكلمة (سواء جاء الحرف في بداية الكلمة أو وسطها أو في آخرها)، وكذلك في الدعوة إلى اتخاذ اللهجات العامية بدلاً من العربية الفصحى في التعبير الأدبي لأن اللهجة العامية اصدق وأقرب إلى الواقع.

وليس من شك في أن الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذا التحدي هي فرض استخدام اللغة العربية في التدريس بالجامعات أي تعريب التعليم الجامعي في كل فروع التخصص وتعريب المناهج كلها. وقد سبق لسوريا أن فعلت ذلك وتم تدريس الطب

للتعبير عن أفكارهم وآرائهم. فالتراث يمثل البعد التاريخي أو الزماني للثقافة باعتباره سجلاً للحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية خلال التاريخ. ولكن على الرغم من ارتباط التراث بالماضي فإنه لا يزال يعيش في وجدان الناس بشكل أو بآخر كما أن الثقافة العربية الإسلامية المعاصرة هي إلى حد كبير حصيلة ذلك الماضي. وكل هذا معناه أن التراث أداة ربط بين الماضي والحاضر. ومن هنا سنجد أهميته كأحد المقومات الأساسية لتلك الثقافة.

ولقد تعرضت هذه المقومات الثلاثة لدرجات متفاوتة من التشكيك في أهميتها وقيمتها وجودها وفاعليتها، وحمل لواء التشكيك بعض المهتمين من العلماء الأجانب بالحضارة الإسلامية وتابعهم في ذلك بعض الكتاب العرب والمسلمين. وتمثل هذه المواقف المعارضة نوعاً من التحدي لهذه المقومات بل وللثقافة العربية الإسلامية كلها. وهذه التحديات ذاتها هي من قبيل التحديات الثقافية التي ينبغي للجامعة والتعليم الجامعي مواجهتها.

أ - فلقد أثيرت بعض الشكوك حول فاعلية اللغة العربية وقدرتها على التعبير عن معطيات العلم الحديث والحضارة الحديثة بوجه عام، وهي حضارة علمية في أصولها، ومنجزاتها وتقوم على مبادئ فكرية ومناهج عقلية ونظرة إلى الحياة تختلف عن تلك التي تسود في العالم العربي، كما أنها تحتاج

باللغة العربية منذ سنوات طويلة. وليس من شك في أن ذلك سوف يتطلب من الجامعات بذل جهود مكثفة لترجمة المصطلحات العلمية الحديثة التي تتزايد في (العدد) باستمرار أو تعريبها إذا كان من الصعب ترجمتها، كما أن مجامع اللغة العربية في بعض الدول تسهم في ذلك إسهاماً طيباً. وليست المسألة هنا مجرد تشجيع استخدام اللغة القومية في التدريس على الرغم من أهمية ذلك وفرضيته. وإنما المسألة بالإضافة إلى ذلك هي مسألة تدريب العقل على التفكير العلمي الحديث الدقيق باللغة القومية واكتساب هذه العادة بحيث يصبح هذا التفكير الدقيق سمة من سمات العقل العربي الذي يفكر في هذه الحالة مستخدماً مصطلحات ومفاهيم وألفاظاً وحدوداً عربية مما يساعد على نقل التفكير العربي والعقل العربي نقلة حضارية واسعة للتفاعل والتجاوب مع منجزات الحضارة الحديثة.

ب. الأمر نفسه يصدق على التراث فلقد تعرض التراث العربي الإسلامي لكثير من الهجوم والاستخفاف حتى من بعض المثقفين العرب المسلمين ومنهم أساتذة في الجامعات وبعضهم متخصص في العلوم والدراسات الإنسانية. وتطور معظم الشكوك حول أهمية الأعمال التراثية والور الذي يمكن أن تقوم به في تشكيل العقل العربي المعاصر، وجنوى الاشتغال به والاهتمام بإحيائه إلا في أضيق الحدود بين أوساط

المتخصصين فحسب، وهناك من بين هؤلاء المشككين من يرون أن التراث جزء من الماضي وأنه نشأ في ظروف وأوضاع اجتماعية وسياسية وثقافية معينة وأنه على هذا الأساس ينتمي إلى الفترة التاريخية والحقة الفكرية والثقافية التي أنتجته، وبذلك يكون قد استنفد أغراضه بانقضاء تلك الفترة وزوال تلك الظروف والأوضاع، وأنه إذا كانت له أية أهمية علمية فإنها تاريخية فحسب، وليس ثمة ما يدعو إلى إحيائه بعد أن تعداه الزمن وتجاوزته الحضارة الإنسانية، بل أن الاشتغال به وإحيائه من شأنهما تكبيل العقل العربي وتقيدده ومنعه من الانطلاق والحقا بركب الحضارة الحديثة التي تختلف في أسسها المنطقية ومنطلقاتها النظرية وأهدافها العملية ومنجزاتها التطبيقية عن ثقافة العصور الوسطى التي ينتمي إليها ذلك التراث. وكثيراً ما يصل الهجوم إلى حد التشكيك في قدرة العقل العربي نفسه في الإبداع، لأن جانباً كبيراً من التراث (العربي الإسلامي) صدر في الواقع عن مفكرين وفلاسفة وأدباء وعلماء من غير العرب، ومن غير المسلمين وإن كانوا يعيشون في ديار الإسلام ويكتبون باللغة العربية.

ويتمثل التحدي الحقيقي الذي يواجه الجامعات والتعليم الجامعي بالنسبة للتراث في تحديد (معنى) إحياء التراث، أي مفهوم (الإحياء) وطريقته والهدف منه. وليس

ب. الأمر نفسه يصدق على التراث فلقد تعرض التراث العربي الإسلامي لكثير من الهجوم والاستخفاف حتى من بعض المثقفين العرب المسلمين ومنهم أساتذة في الجامعات وبعضهم متخصص في العلوم والدراسات الإنسانية. وتطور معظم الشكوك حول أهمية الأعمال التراثية والور الذي يمكن أن تقوم به في تشكيل العقل العربي المعاصر، وجنوى الاشتغال به والاهتمام بإحيائه إلا في أضيق الحدود بين أوساط

المنهجية التي كان يقوم عليها الفكر العربي، لأنه مهما يقل عن أهمية مضمون تلك الأعمال التراثية ومحتواها فالأهم من ذلك هو معرفة الموقف العقلي والمنهج الفكري الذي يكمن وراء ذلك المضمون أو المحتوى. وهذا وحده هو الذي يساعد على فهم التراث وتمثله بحيث يصبح جزءاً من الهوية الثقافية والاجتماعية للإنسان العربي المعاصر.

جـ - وليس من شك في أن التراث العربي ملئ بالقضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تستحق إعادة النظر فيها وفحصها واختبارها من خلال القيام بدراسات وبحوث جديدة تقوم بها الجامعات وتضمنها بعض مقرراتها الدراسية. وسوف يؤدي ذلك إلى (عصرنة) التراث وبث الروح والحياة فيه من جديد. والواقع أن عدداً من علماء الغرب استطاعوا بهذه الطريقة أن يستفيدوا من هذا التراث العربي في دراسة عدد من المشكلات المعاصرة في العالم العربي أيضاً. والمثال الذي أحب أن استشهد به دائماً في هذا الصدد لاتصاله الوثيق بميدان تخصصي (الأنثروبولوجيا) هو نظرية ابن خلدون عن العصبية، فقد وجدت طريققتها إلى كتابات المستشرق البريطاني «ويليام روبرتسون سميث» الذي استعان بها في دراسته الشهيرة عن «العقابة والزواج في بلاد العرب القديمة» ثم استعان بها بعد ذلك عالم الأنثروبولوجيا البريطاني «ايفانز

المقصود بإحياء التراث هنا مجرد العكوف على تحقيقه ونشره. إذ على الرغم من أهمية هذا العمل الشاق وضرورته فإنه يمثل خطوة أولى فقط في طريق الإحياء. وقد لا تقوم الجامعات ذاتها بهذا العمل على اعتبار أن هناك مراكز متخصصة بتحقيق التراث ونشره في عدد من البلاد العربية. ولكن الملاحظ أن عدد المحققين في تناقص مما يستدعي أن تهتم جامعتنا بإنشاء أقسام خاصة بالدراسات التراثية تهتم فيما تهتم بإعداد أجيال جديدة من المحققين، كما يجب أن تشترط بعض الأقسام الجامعية في طلاب الدراسات العليا أن يقدموا مع رسائلهم الجامعية لنيل الماجستير أو الدكتوراه أحد النصوص المحققة، وهذا اقترح قديم ولكنه لم يعمل به طويلاً» (٦).

«وإنما الذي يجب أن نعتني به الجامعات حقاً في هذا الصدد هو دراسة التراث بقصد تعرف المبادئ والأسس والمناهج التي كانت تحكم الفكر العربي في الماضي، ومدى تأثر هذه الأسس والمبادئ والمناهج بالتغيرات التي طرأت على المجتمع العربي في مختلف عصوره. فقد يمكن الاستفادة من هذه التجارب في التعرف على معالم الطريق الذي يمكن أن تسلكه الثقافة العربية في المستقبل» (٧). أي أن الجامعات تستطيع أن تهتم بدراسة هذه الأعمال التراثية بعد تحقيقها ونشرها دراسة نقدية للكشف عن المبادئ العقلية والأسس

لتذليل التراث والتعريف به وإدخال بعض التراث في المناهج الجامعية، وفي مختلف التخصصات بقدر الإمكان لأنه ليس كل ما كتب في الماضي يستأهل الأحياء على النحو المطروح هنا. وإنما قد يكون للجامعات أن تنشر المعرفة بالتراث بين طلابها من خلال الاهتمام بتدريس تاريخ العلوم عند العرب مثلاً، وهو تخصص يجد في الخارج كثيراً من الاهتمام ويلقى من الدارسين والباحثين كثيراً من الإقبال والقبول بحيث أنشئت كراسي للأستاذية في بعض الجامعات الأوروبية والأمريكية الشهيرة لهذا التخصص الهام، وتقوم بعض الدول الخليجية إن لم أكن مخطئاً بتمويل بعض هذه الكراسي اعترافاً منها بأهمية هذا التخصص ونوره في التعريف بالحضارة العربية الإسلامية وإسهام العرب والمسلمين في مختلف مجالات المعرفة.

وخلق جامعتنا أن تنشئ هذا التخصص وتهتم به ما دام يتوافر لديها الموارد والبشرية اللازمة، بل أن بعض المقررات الدراسية في الجامعة يمكنها أن تشتمل على كثير من المعلومات التي تساعد على التعريف بهذا التراث الزاخر، وذلك في معرض تدريس «المداخل» العامة لفروع التخصصات المختلفة، وإذا كان أساتذة علم الاجتماع مثلاً يبدؤون تدريسهم لتأريخ الفكر الاجتماعي بالإشارة إلى ابن خلدون وكتاب انقذمة باعتبار ذلك هو البداية الأولى لعلم الاجتماع، أو علم العمران فإن أساتذة

برتيشارد في تحليله للتخليم القبلي ونسق القرابة عند قبائل النوير في جنوب السودان والمجتمع القبلي في ليبيا (برقة)، أي أنه أعاد عرض آراء ابن خلدون وأفكاره من منظور جديد وبالإشارة إلى مجتمعات أخرى غير تلك عرفها ابن خلدون وخرج من ذلك بنظرة جديدة ارتبطت باسمه هو، وإن كانت تستند إلى آراء غيره بعد تطويرها (وتحديثها)، أو (عصرنتها)، ومثل هذه النظرة إلى التراث، ومثل هذا الاتجاه للاستعانة به يمثلان تحدياً هاماً يتعين على الجامعة مواجهته بإجراء دراسات جديدة تستند إلى الأفكار القديمة لتبين مدى قدرة تلك الأفكار على الصمود وعلى تفسير الحياة المعاصرة.

د - وهذا كله يعني أن إحياء التراث معناه (عصرنة) التراث وربطه بالواقع المعاش الآن ويقضاي العصر بقدر الإمكان وعدم الجمود أمام النصوص والنظر في تلك النصوص بنظرة جديدة قاحصة وناقدة، وإذا كان من العبث محاولة نقل الحاضر إلى الماضي بحيث نعيش حاضرننا ومستقبلنا بعقلية الماضي، ونعالج قضايانا ومشاكلنا بالإشارة إلى الظروف التي كانت تلبس الأحكام التي صدرت في الماضي ويشتمل عليها التراث، فليس ثمة ما يمنع من تطويع ذلك الماضي ليكون في خدمة الحاضر والمستقبل مادام ذلك لا يتعارض مع القيم الأصيلة، وهذا يتطلب بذل الجهد

التحديات الثقافية والداخلية والثقافة القومية ككل والتعليم الجامعي هي علاقة تكافلية وتكامل لأنها كلها تنتمي في آخر الأمر إلى نفس ثقافي واجتماعي واحد، وذلك يعكس الحال بالنسبة للعلاقات بين التحديات الثقافية الخارجية والثقافة القومية، إذ يسيطر على هذه العلاقات الإحساس بالتوتر والتخوف والتحيز للصراع والدفاع عن مقومات الثقافة القومية (وخصوصيتها)، أو هويتها الخاصة المميزة» (٨)

٢- وواضح أن هذه التأثيرات الثقافية الوافدة التي تشكل تحدياً للثقافة القومية هي حمولة تفاعل ظروف تاريخية وأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية وخبرات وتجارب طويلة تختلف في طبيعتها كل الاختلاف عن الظروف والأوضاع التي أفرزت الثقافة العربية الإسلامية، وأنها على هذا الأساس تعبر عن أنساق معرفية ومواقف عقلية ومنهجية ونظرة إلى الحياة وإلى الكون تختلف أيضاً كل الاختلاف عن تلك الأنساق والمواقف والرؤى التي تسود في الثقافة القومية وفي المجتمع العربي.

ولذا فإن هذه التأثيرات الثقافية الوافدة تمثل تحدياً من نوع خاص يهدد بشكل مباشر الثقافة القومية ككل، ومن هنا كان لا بد من أن تلجأ الجامعات في مواجهتها لهذا التحدي الثقافي الشامل إلى أساليب وطرق تختلف تماماً، كما سنرى عن تلك التي تتبعها في مقابلة التحديات التي تفرسها بعض مقومات الثقافة القومية ذاتها كالتراث.

الأنثروبولوجيا يستطيعون بالمثل أن يؤرخوا للأنثروبولوجيا والإنوجرافيا بالرجوع إلى كتابات بعض الرحالة العرب والمسلمين الذين تركوا لنا دراسات تفصيلية عن العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات التي قاموا بزيارتها وسجلوا ملاحظاتهم الدقيقة بطريقة منهجية سليمة. والشئ نفسه يمكن أن يصدق على تدريس الجغرافيا والتاريخ، وعلم السياسة بل وبعض العلوم (الطبيعية). وهذا الاتجاه في التدريس يساعد من ناحية على التعريف بالتراث ويضفي على بعض فروع التخصص الجافة الجانب الإنساني الذي أشرنا إليه من قبل، كما أنه يساعد على التحرر من السير وراء المذاهب الأجنبية التي تطبق في الجامعات في الخارج وتزد تشاة كل فروع العلم والمعرفة إلى الفكر الغربي وإلى أصول غربية خالصة لذلك يجب اعتبار ما يلي.

١- مواجهة التحديات الثقافية (الداخلية) كما تتمثل في اللغة العربية، والتراث اللذين أشرنا إليهما في الفقرة السابقة - تؤدي إلى توطيد وتقوية وترسيخ مصادر هذه التحديات ذاتها من ناحية مثلما تؤدي في الوقت ذاته إلى تقوية وتعزيز دور الجامعة في المجالات الثقافية التي تتعدى حدود التعليم الأكاديمي المتخصص الدقيق، وذلك على العكس تماماً من التحديات الثقافية الخارجية، أو الوافدة من الخارج والتي تشكل تهديداً حقيقياً للثقافة القومية، وقول آخر فإن العلاقة بين



٣ - وتستند هذه التأثيرات الثقافية الأجنبية إلى نظام إعلامى متطور وعلى درجة عالية من الكفاءة والتعقيد والفاعلية وقوة التأثير. ويعتمد هذا النظام الإعلامى على قوة الكلمة المنطوقة المسموعة (الإذاعة)، والكلمة المجسدة المرئية (التلفزيون)، وكذلك على الكلمة المكتوبة المقررة (الصحافة)، وبذلك يستطيع أن يصل بسهولة ويسر إلى كل شرائح المجتمع، وأن يعرض أكثر الموضوعات تعقيداً فى سهولة ويسر وبطريقة جذابة ومشوقة كما هو الحال بالنسبة للتلفزيون بالذات، وأن يتسلل بذلك إلى عقول الناس وينقل إليهم أخطر الآراء والأيديولوجيات فى كثير من الحذر والرفق وعلى غير وعى منهم أو إدراك لحقيقة ما يعرض عليهم وما يتلقونه من خلال هذه الوسائل التى تترك لهم فرصة كافية للتأمل والتفكير والحكم. والتلفزيون هو أخطر هذه الوسائل جميعاً فى الوقت الحالى بحيث أنه أصبح يؤلف فى ذاته (ثقافة) قائمة بذاتها، بمعنى أنه ليس مجرد أداة أو وسيلة لنقل الثقافة أو توصيلها فحسب ولكن نفس (وجود) التلفزيون أدى إلى قيام شكل معين بالذات من الثقافة هى التى يسميها البعض الثقافة التلفزيونية أو الثقافة المرئية أو الثقافة عن طريق الصورة والصوت والحركة، وأنه لولا وجود التلفزيون لما كان ذلك الشكل المعين من أشكال الثقافة وهذه حقيقة انتبه إليها عالم الاجتماع

الكندى، مارشال ماكولوهان، وعبر عنها فى عبارة شهيرة تقول «الوسائل هى الرسائل»، وقد استخدم هذه العبارة عنواناً لكتاب نشره عام ١٩٦٧ مع «كونتين فيورى» (٩). وليس شمة بطبيعة الحال ما يمنع من اتصال الثقافات بعضها ببعض ومن وجود تأثيرات واستعارات متبادلة بين الثقافات المختلفة، فكما أن الثقافة لا توجد أبداً من فراغ، وإنما هى ترتبط دائماً بكل النظم والأنساق الاجتماعية السائدة فى المجتمع، فإنها أعنى الثقافة لا توجد أبداً فى عزلة تامة عن غيرها من الثقافات، بل هى على العكس من ذلك تماماً تقيم علاقات وصلات قوية ومستمرة مع ثقافات المجتمعات والشعوب الأخرى المجاورة، ويستوى فى ذلك ثقافات أشد الشعوب تأخرًا وتخلُفًا وأكثر المجتمعات تقدماً ورفقاً. وهذا الاحتكاك بين الثقافات وما يترتب عليه من استعارات متبادلة هو مصدر غنى وثراء لكل ثقافة منها على حدة وعامل أساسى فى تعميقها وتوسيع أفاقها مادامت هذه الاتصالات، أو الاحتكاكات تتم بطريقة طبيعية ولا تخفى وراءها أهدافاً (امبيرالية) حسب التعبير المستخدم الآن، أو ترمى إلى تقويض دهاثم تلك الثقافة والقضاء عليها. ولقد أدى تقدم وسائل الإعلام وأساليب الاتصال والتواصل إلى زيادة وتكثيف هذا الاتصال بين الثقافات، ولكنه يتم فى الأغلب من جانب واحد هو جانب الثقافة القوية

مجتمع قومى واحد. «ففى مقال ظهر فى عدد ١١ ديسمبر عام ١٩٨٧ بالملحق التعليمى لجريدة التايمز تحت عنوان «الإمبريالية الثقافية» يشكو اثنان من الأساتذة من أن مقرر التاريخ بالمدارس الثانوية الذى يفترض تدريسه من مدخل الثانوية الثقافات يتناول الموضوع فى الواقع من زاوية (إنجليزية) بحثة بدلاً من أن يكون المدخل (بريطانيا)، وذلك على اعتبار أن الثقافة البريطانية تضم عدداً من الثقافات الفرعية هى ثقافات إنجلترا واسكتلندا وويلز وإيرلندا ويصفان تدريس ذلك المقرر من الزاوية الإنجليزية بأنه نوع من (الإمبريالية الثقافية)، ومظهر من مظاهر الرغبة فى فرض السيطرة الثقافية التى من شأنها فى آخر الأمر هدم التراث الثقافى لتلك الشعوب، وهو تراث غزير يتمثل فى التاريخ واللغة والعادات، والتقاليد، وأسلوب الحياة، وأن نظام التعليم نفسه يعمل على إدخال قيم (غربية) إلى تلك المجتمعات من خلال الكنيسة (الانجليكانية)، واللغة (الإنجليزية)، التى تعتبر لغة دخيلة بالنسبة لأهلى اسكتلندا وويلز وإيرلندا» (١١).

وكذلك من الطريف أن نلاحظ أنه فى مؤتمر السياسات الثقافية الذى عقد فى المكسيك تحت لواء اليونسكو فى أوائل الثمانينات ندد وزير الثقافة الفرنسى أى وزير ثقافة فى دولة أوروبية لها تاريخ طويل فى مجال الثقافة، بسيطرة وسائل الإعلام

السيطرة (أيما ما يكون معنى هذه الكلمة). التى تملك من الإمكانيات المادية والبشرية والمهارات اللازمة للخلق والإبداع والابتكار مما يساعد على الانتاج الثقافى الأصيل وعلى نشر ثقافتها الخاصة و(غزو) الثقافات الأخرى. «ومن هنا ظهرت تعبيرات جديدة لم يكن لها وجود من قبل مثل الغزو الثقافى والإمبريالية الثقافية بكل ما تعبر عنه من تخوف وشكوك من العالم الخارجى وثقافته ويكل ما ترتب على ذلك أيضاً من دعوات للانطواء الثقافى على الذات بحجة أن التيارات والمذاهب الفكرية الأجنبية تحمل بين ثناياها فى الأغلب بذور السيطرة الثقافية الأجنبية وأنها بذلك نوع من الغزو الذى يتخذ الثقافة رداء يتخفى وراءه» (١٠).

ومن الطريف أن فكرة الغزو الثقافى ومصطلح الإمبريالية الثقافية يتعديان مجال العلاقات بين الثقافات «الراقية» المتقدمة والثقافات «المتخلفة»، أو «الأقل رقياً» وتقدماً ولم يعودا يرتبطان فقط بالأوضاع الاقافية فى مجتمعات العالم الثالث التى تخضع للتأثيرات الثقافية الوافدة من الخارج وبخاصة من الغرب والتى تعمل على تغيير الملامح الأساسية لثقافات تلك الشعوب والمجتمعات، وإنما أصبحا يستخدمان حيثما كانت هناك شبهة خضوع احدى الثقافات لتأثير ثقافة أخرى غربية تحاول طمس معالمها والقضاء على مقوماتها حتى ولو كانت هاتان الثقافتان تنتميان إلى

الشعوب والمجتمعات الآن هي أن هذا التقدم والانتشار سوف يؤدي إلى ضياع الهوية الثقافية القومية كما سبق أن ذكرنا، وثمة شعور سائد الآن في العالم بأن هذا العصر هو عصر الثقافة الأمريكية بكل ما ينطوي عليه هذا الشعور من تخوف من (أمركة الثقافة) في العالم وتراجع الثقافات المحلية والقومية إزاء ذلك، وهو ما سبق أن أشرنا إليه وعبر عنه بجلاء وزير الثقافة الفرنسي. «بل أن هذا الشعور دفع بعض الدول المتقدمة ذاتها إلى وضع قيود شديدة على انتشار الأفلام السينمائية والتلفزيونية الأمريكية لحماية إنتاجها الثقافي من هذا (الغزو). وقد نشرت جريدة لوند الفرنسية في سبتمبر عام ١٩٨١ نداء باسم (لجنة الهوية الوطنية) تشير فيه إلى تغلغل الإنتاج الثقافي الأمريكي ممثلًا في أفلام السينما وخطورة ذلك على ملامح الثقافة القومية الفرنسية» (١٣) .

وقد كان لا بد من هذا الاستطراء الطويل لتبيين أن المشكلة ليست مقصورة على العالم العربي، أو دول العالم الثالث، إنما هي مشكلة عالمية تواجهها الدول الغنية ثقافياً مثل فرنسا وبريطانيا بل واليابان أيضاً. وفي كل هذه الحالات والأمثلة كانت الشخصية الثقافية القومية هي التي تتصدى لمواجهة الغزو الثقافي .

وأساليب الاتصال الأمريكية وهيمنتها على التوجه الثقافي في العالم بفضل إنتاجها الغزير للمواد الإعلامية والترفيهية في السينما والتلفزيون مما يهدد الثقافات المحلية والوطنية، والقومية في كثير من دول العالم.

وقد أصبح الاعتماد على مختلف وسائل الإعلام وأساليب الاتصال أمراً مسلماً به سواء كوسيلة للترفيه والتسلية أو كوسيلة للتثقيف على مستوى معين على الأقل. وهذا اتجاه عام في العالم كله. وتقرير اللجنة الدولية لدراسة مشكلات الاتصال يقول إنه يمكن استخلاص نتيجتين من التطور المستمر والمطرد لوسائل الاتصال، أولهما أن هذه التغيرات تمثل اتجاهاً لا رجعة فيه، والثانية أن العلاقة بين مختلف الوسائل الإعلامية هي أساساً علاقة تكافل وليس علاقة تنافس .

فالذلل التي تختار التركيز على أسلوب فني واحد ينبغي ألا تفعل ذلك بما يؤدي إلى القضاء على الآخر أو إهماله» (١٢). وقد تكون السيطرة الآن رغم ذلك للتلفزيون ولكن جاءت أجهزة التسجيل بالفيديو لتنافس في قوة التأثير، خاصة وأن الفيديو يتميز على التلفزيون بميزة هامة وهي حرية الاختيار والانتقاء، وهذا عنصر هام في الثقافة والتعليم .

ولكن المشكلة التي تواجه مختلف

ثالثاً : تطويع التحنيات :

ولكن ما موقف الجامعة من هذه المشكلات وما دورها في مواجهة هذه التحديات من أجل الحفاظ على الهوية الثقافية القومية من ناحية وأداء وظيفتها (التعليمية) بالمعنى الذي نستخدم به هنا هذه الكلمة ؟ وكيف يمكن للجامعة باعتبارها مؤسسة تعليمية وثقافية معاً أن توفق بين هذه التيارات والاتجاهات المختلفة، وأن تطوع هذا (الفرد) الثقافي لإثراء الثقافة العربية الإسلامية وتعميق الفكر العربي بحيث تمتزج المقومات الأساسية للثقافة القومية ومتطلبات الحياة الفكرية والثقافية المعاصرة التي تمثل في نظر بعض الكتاب والمفكرين على الأقل تحدياً بل وتهديداً لهذه المقومات ؟.

ولقد سبق أن ذكرنا أن هناك من يرون أنه إلى جانب التعليم الجامعي الذي يقوم على التخصص الدقيق فإنه يتعين على الجامعة أن تعنى بتزويد طلابها بأساليب ووسائل ووسائط تساهم على النظر في المشكلات المتعلقة بكل التجربة الإنسانية ودراستها وتحليلها وفهمها واستيعابها بقدر الإمكان، وأن هذا يتطلب المزج إلى حد التفاعل بين الدراسات العقلية والدراسات العملية التي تهمل صاحبها للقيام بأنشطة وأعمال، أو مهن محددة مسبقة، أي الجمع بين المعرفة النظرية والإعداد للحياة العملية مع إدراك الجوانب والأبعاد الإنسانية التي

تكمن وراء الدراسات والتخصصات العملية ودور هذه التخصصات في تقدم وتطوير الحضارة والمجتمع الإنساني والارتقاء (بإنسانية) الإنسان» (١٤)، وأنه لا بد للجامعة بحكم التعريف أن تتابع كل التيارات الفكرية والاتجاهات والمذاهب الأيديولوجية والاكتشافات والإنجازات العلمية حتى تستطيع أن تؤدي وظيفتها (التعليمية) على الوجه الأكمل حتى وإن لم تتقبل كل هذه التيارات والاتجاهات والمذاهب، أو توافق عليها، وأنه إذا كان يتعين عليها أن تأخذ طيلة الوقت في الاعتبار مقومات الثقافة القومية ومتطلباتها فإنه يتعين عليها في الوقت ذاته الاعتراف بعالمية الثقافة مما يقتضى العمل على ربط هذه الثقافة القومية ذات الأصول العربية الإسلامية بالثقافة العالمية حتى لا تنعزل عما يجري حولها من أحداث وتحرم نفسها من الاستفادة من بعض إنجازات الثقافات الأجنبية من ناحية، وحتى لا يصبح التعليم الجامعي نفسه مجرد مرحلة تالية للتعليم الثانوي ومكملة له، ولكن مهما يكن الأمر من مشروعية البحث في العلاقة بين التعليم الجامعي والثقافة بوجه عام، ومهمة الجامعة في التعريف بالثقافات المختلفة واتجاهاتها والأسس التي تقوم عليها وإنجازاتها بوجه خاص فإن التعليم لا بد أن يكون (انتقائياً) في آخر الأمر في نظريته إلى الثقافة، وفي محاولته الربط بين الوظيفتين التعليمية (بالمعنى

الدقيق المحدد لكلمة التعليم)، والثقافة (بالمعنى الواسع لكلمة ثقافة).

والزيف .

المبدأ الثالث:

أ - وهناك عدد من المبادئ الأساسية التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار حين نعرض لدور الجامعة في مواجهة التحديات الثقافية الخارجية، وهي مبادئ متكاملة وتؤلف كلها وحدة منطقية متسلسلة :

المبدأ الأول:

هو أنه من حق الثقافة القومية أن تتسك بمقوماتها والأسس التي تقوم عليها، وأن تحافظ على خصائصها الذاتية المميزة إزاء الثقافات والمؤثرات الفكرية الأجنبية، وأنه من حق «الفكر الأصيل» الذي يسود في المجتمع أن يدافع عن كيانه وعن وجوده وعن هويته عن طريق التصدي بالدراسة والتحليل والنقد والتفنيد للتيارات والاتجاهات الفكرية الوافدة، وأن يبرز ما قد يكون بها من نقص أو خطأ في زيف .

المبدأ الثاني :

وهو مكمل للمبدأ الأول وهو أنه من حق التفكير الجديد، ما دام التفكير جاداً وعميقاً على أسس منطقية خاصة به، أن يجد الفرصة أمامه كاملة للتعبير عن نفسه والإبانة عن موقفه من الأشياء بون أن تفرس عليه القيد أو يحجر عليه قبل مناقشته ودراسته دراسة جادة وعميقة تتوخى التوصل إلى تعرف ما قد يكون فيه من وجه الحق والصواب، أو جوانب النقص

وهو يلخص المبدأين السابقين، وهو ضمان حرية الرأي وحرية التعبير عن الفكر بطريقة موضوعية مع احترام الرأي الآخر، ومع إدراك أن وضع العوائق أمام الآراء والأفكار الجديدة الوافدة يقصد الحد من انتشارها كثيراً ما يؤدي إلى عكس النتائج المتوقعة أو المرجوة. «فالفكر المصادر يجد في العادة طريقه إلى الناس بشكل أو بآخر، بأنه كثيراً ما يصل إليهم في صورة مشوهة أو زائفة أو منقوصة مما يزيد من الضرر والأذى» (١٥).

ب - فكأن المبدأ إذن هو حرية الفكر وحرية التعبير عنه وحرية التبادل الثقافي وحرية مناقشة الاتجاهات والتيارات الثقافية المختلفة والمتصارعة. وحرية الاختيار والانتقاء بعد ذلك من بين تلك الاتجاهات والمذاهب والتيارات. بل إن الاختيار أو الانتقاء هو أحد خصائص وأبعاد هذه الحرية الثقافية. والإنسان الحر هو الذي يكون له حق الاختيار والانتقاء من بين مختلف البدائل والإمكانات، ويمارس هذا الحق بالفعل . ومثل هذا الاختيار يخضع بالضرورة أو هو يتم على الأصح في ضوء معايير ومحكات معينة وضمن إطار سياسة واضحة ومحددة وإن لم تكن منزمتة أو ضيقة الأفق.

حق الجامعة في أداء التزامها الأساسي نحو البحث عن الحقيقة والكشف عنها ونشرها وتطعيمها. ولكن على الرغم من كثرة ما يقال عن ضرورة توفير الحرية الأكاديمية للجامعة والجامعيين والتمسك بها فكثيراً ما تعرضت هذه (الحرية) للقيود والعوائق حتى في أكثر المجتمعات حديثاً عن الحريات (وتمسكاً) بها.

فمنذ أواخر القرن الماضي وحتى الخمسينات تقريباً من هذا القرن كانت الولايات المتحدة الأمريكية تضع قيوداً على تدريس كتابات عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي «لويس مورجان» وبخاصة كتابه «المجتمع القديم» الذي يتتبع فيه المراحل التي كان يتصور أن المجتمع الإنساني مر بها منذ نشأته الأولى حتى العصر الحديث ابتداءً من مرحلة الجمع والانتقاط إلى الصيد والقتل إلى الرعي فالزراعة فالصناعة، كان الرأي السائد طيلة هذه الفترة أن ذلك الكتاب كان هو الشرارة الأولى التي انطلقت منها الماركسية، ومن هنا كان حظر تدريسه لأسباب سياسية تتعلق بالنظام السياسي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة الأمريكية.

كما أن نظرية التطور التي قال بها «داروين» في القرن الماضي أيضاً كانت ولا تزال تلقى كثيراً من المعارضة من بعض الجامعات للتدنية في أمريكا، وقد بدأت حركة المعارضة المنظمة لتدريس تلك النظرية في المدارس والجامعات منذ عام ١٩٢٥ في

وهذا قد يثير التساؤل عن ضرورة تقديم الجامعة بعض المقررات الأساسية الإلزامية التي يجب أن يتلقاها كل طلاب الجامعة بصرف النظر عن تخصصاتهم وفي بداية التحاقهم بالجامعة حول الثقافة الإسلامية ومقوماتها الأساسية وإنجازات العقل العربي في مختلف ميادين المعرفة باعتبار الثقافة الإسلامية أسلوباً للحياة والسلوك والتفكير والنظرة إلى الحياة وإلى العالم وتمثل موقفاً معيناً ومحدداً من الأشياء، وباعتبار إسهامات العقل العربي في مختلف ميادين المعرفة ومجالاتها هي أيضاً حصيلة نظرة الإنسان العربي للعالم والمبادئ المنهجية التي كانت تحكم الموقف العقلي من أحداث العالم ونظم المجتمع وعلاقات الناس بعضهم ببعض وظواهر الكون أي أنه إلى جانب اهتمام مثل هذه المقررات بتزويد الطلاب بقدر معقول من المعلومات والمعارف الأساسية عن عناصر الثقافة الإسلامية ومقوماتها ومكوناتها فإنها تعني عناية خاصة بتعريف كيف يعمل العقل العربي في نظره للأشياء.

وإن يتعارض ذلك في آخر الأمر مع مبدأ الحرية الأكاديمية التي يجب أن ينتظر إليها دائماً على أنها أحد الحقوق المشروعة بل الأساسية لقيام الجامعة بأداء وظيفتها (التعليمية)، وعلى أنها مبدأ هام يضمن حماية الجامعة من أية تيارات أو اتجاهات، أو حتى سياسات مرسومة تهدف إلى تقييد

ومع ذلك فإن هذه الحرية الأكاديمية يجب أن تمارس ضمن إطار معين حتى لا يساء استخدامها وتخرج عن قواعد ومبادئ الموضوعية التي يجب مراعاتها في التعليم الجامعي الأكاديمي. وثمة فارق كبير بين تدريس المذاهب والاتجاهات السياسية والأيديولوجيات المختلفة بأسلوب علمي موضوعي يتوخى التعرف بالأسس والمبادئ التي تقوم عليها هذه المذاهب والاتجاهات والأيديولوجيات وتاريخها وأصولها وتطورها مثلاً وبين الدعاية لأحد هذه الاتجاهات أو المذاهب أو الأيديولوجيات وتزيينها للطلاب وإغرائهم باعتمادها، أو فرضها بالقوة بما يتعارض مع النظام السياسي القائم في المجتمع. «أي أنه ليس من حق الجامعة، أو الجامعيين الاحتفاء بحق الحرية الأكاديمية في نشر المذاهب السياسية أو الدينية التي يعتنقونها والدعاية لها لما في ذلك من خروج على التقاليد الجامعية في الدراسة والبحث والتدريس، وهي تقاليد تقوم على مبدأ الموضوعية الفكرية. وحتى حين يتعرض الأكاديميون في كتاباتهم على تدريسهم للنظام السياسي القائم في المجتمع فإن ذلك لن يكون بقصد الإثارة أو التحريض على تغييره، لأن في ذلك خروجاً على رسالة الجامعة ووظيفتها وليس فقط إساءة استعمال (الحرية الأكاديمية)» (١٧) .

جـ - وليس ثمة ما يبرر أبداً الاقتصر على الاتصال بثقافات الغرب، أو الأخذ منها

بعض الولايات والمطالبة بتدريس نظرية الخلق كما وردت في الكتب المقدمة بدلاً منها، ويوصل الأمر إلى عرض الخلاف على القضاء أكثر من مرة كان آخرها على ما أذكر عام ١٩٨٢، بل إن أكاديمية أفلاطون التي كانت ولا تزال في نظر معظم مؤرخي الفكر تعتبر مثلاً من المثل العليا للحرية الأكاديمية، والبحث عن الحقيقة وتعليم الحكمة كانت تتعرض لكثير من الهجوم الذي وصل إلى حد الحكم على سقراط أستاذ أفلاطون بالموت عن طريق تناول السم، كما تعرض أفلاطون نفسه وبعض تلاميذه للمطاردة في كثير من الأحيان.

والأمثلة كثيرة جداً من كل المجتمعات ومن كل العصور، «ولكن يبقى المبدأ قائماً رغم ذلك وهو ضرورة الاعتراف بالحرية الأكاديمية وتوفيرها. وكما سبق أن ذكرنا فإن الحرية الأكاديمية هي نوع خاص، أو شكل خاص متميز من حرية التفكير وبحق التعبير عن الرأي لأنها تتعلق بالبحث عن الحقيقة والكشف عنها وحرية النشر وحرية (تعليم) الحقيقة كما يراها الأكاديميون المتخصصون كل في مجال تخصصه دون التعرض لأية ضغوط أو الخضوع إلى سلطان غير سلطان العقل والأساليب والوسائل والمناهج العقلانية التي تؤدي ليس فقط إلى الكشف عن هذه الحقيقة ومعرفتها بل وأيضاً إلى إرساء قواعدا على أسس صلبة وقوية وراسخة» (١٦).

مجالات كثيرة متنوعة تستحق الإحاطة بها. ثم هناك أيضاً ثقافات أمريكا الجنوبية التي تمتاز فيها عناصر ثقافية وحضارية قديمة وعريقة يرجع بعضها إلى آلاف السنين بعناصر عربية جعلها الغزاة المستوطنون من الأسبان وغيرهم، وانعكست كل هذه العناصر في الإبداع الأدبي والفني المعاصر في أمريكا اللاتينية بخصائصه ومقوماته المتميزة. وهذه كلها ثقافات لا نكاد نعرف عنها سوى القليل جداً.

ولكن الاهتمام بها يحتاج بغير شك إلى تغيير جذري في النظرة إلى أسلوب وفلسفة وسياسة التعليم وبخاصة التعليم الجامعي، وكذلك تغيير النظرة إلى العالم وعلاقة المجتمع العربي، والثقافة العربية، كما يتطلب إدخال تعديلات في مناهج بعض الكليات والمقررات الدراسية مثل الأدب المقارن الذي يهتم بأدب أمريكا الجنوبية والآداب الأفريقية وآداب الشرق الأقصى، أو الفكر الفلسفي الذي يمكنه أن يقدم للطلاب فلسفات الشرق الأقصى بدلاً من أن يبدأ بالفلسفة اليونانية، ومثل بعض مقررات ودروس الأنثروبولوجيا التي يجب أن تعنى بالثقافات الإفريقية وبعض ثقافات الشرق الأقصى وبعض الثقافات التقليدية في أمريكا الجنوبية وما طرأ عليها من تغير، وهكذا.

وهذا معناه أن الجامعة عن طريق فتح

دون غيرها من الثقافات العالمية الأخرى التي يمكن أن تثرى الواقع الثقافي المعاصر وتفتح أمامه مجالات من الفكر والإبداع وتكشف له عن أنماط من الحياة والقيم والعلاقات ورؤى العالم لا تتوفر في الثقافات الغربية التي طال اتصال المجتمع العربي بها والتأثر بها والخضوع لتياراتها واتجاهاتها الفكرية والأدبية والفنية لدرجة تدفع الكثيرين الآن إلى الظن بأن المجتمع العربي والثقافة العربية المعاصرة وقعا بالفعل فريسة الامبريالية الثقافية الغربية.

فهناك شعوب الشرق الأقصى القديم والحديث بكل آدابها وفنونها وفلسفتها وحكمتها البالغة ونظراتها الشاقبة العميقة إلى الحياة التي سجلتها في مجموعة كبيرة جداً من الكتابات التي ترجم معظمها إلى اللغات العالمية وظهر عدد كبير منها في سلسلة شهيرة باللغة الإنجليزية تحت عنوان (كتب الشر المقدسة)، ولا نكاد نحن نعرف عنها شيئاً مع أنها منبع عميق للحكمة والمعرفة والإبداع وفهم الطبيعة الإنسانية...

وهناك الثقافات الأفريقية الكبرى الخصبة وكان لبعضها علاقات قديمة بالثقافة العربية كما أن بعضها تأثر تأثراً واضحاً بالإسلام والثقافة الإسلامية وامتزجت بذلك فيها عناصر ثقافة إفريقية تقليدية بعناصر عربية إسلامية فضلاً عن بعض العناصر الأخرى الأجنبية ليخرج منها كلها نتاج ثقافي عميق له إبداعاته في



وهي فلسفة التحليل في إنجلترا، وفلسفة البرجماتية في أمريكا، والفلسفة الوجودية في غربي أوروبا، ثم فلسفة المادية العربية، والذي يشكل تحدياً واضحاً للثقافة الغربية المعاصرة وأيضاً هو ( النظرة الإنسانية التي تجعل من الإنسان مبدأً وغاية، وتجعل هذه الحياة هي الأولى والأخيرة ) (٢٠) .

وواضح أن هذه النظرة لا تتفق تماماً مع النظرة الثقافية العربية الإسلامية التي تجعل من هذه الحياة مرحلة أولى لها ما بعدها بكل ما يترتب على ذلك من مواقف اجتماعية وأخلاقية ودينية وما يتصل بها من علاقات ومعاملات وأسلوب وقيم تختلف اختلافاً كبيراً عما هو قائم في الغرب.

وليست المسألة هنا مسألة رفض هذه المواقف والتيارات والرؤى أو قبولها، أو الاكتفاء بتزويدها أو تدريسها في الجامعات كمجموعة من المعارف نون الانفعال بها كما يحدث في الأغلب حين نكتفى بالنظر في القضايا أو التخصصات النظرية أو العلمية، أو السياسية، أو الأدبية والفنية المختلفة، ونقنع بعرضها نون محاولة جدية لنمرف الظروف والأوضاع الاجتماعية والسياسية العامة التي سادت المجتمعات التي أفرزت هذه القضايا، وتلك التخصصات. فالنظرة العلمية التجريبية التي تسيطر على كثير من مظاهر الثقافة الغربية هي وليدة ظروف وتطورات معينة، وهذا هو ما يجعل معظم كتاب ومفكرى العرب يعتقدون أن العلم هو

مجالات ومبادئ جديدة للاتصال الثقافي من خلال المقررات الدراسية في بعض الكليات على الأقل يمكنها أن تسهم في كسر احتكار الثقافة الغربية للعقل العربي المعاصر وهم أسطورة الغزو الثقافي الغربي والتحرر من الإمبريالية الثقافية الغربية، وذلك على افتراض قبولنا لهذه المصطلحات والمفاهيم .

د - «وتتنمى المؤثرات الثقافية الوافدة من الخارج إلى أنماط فكرية معينة تتعلق بنوع الحياة والعلاقات والنظرة إلى العالم السائدة في المجتمعات الغربية والمميزة لثقافات الغرب، وهي في أساسها وجوهرها ثقافات علمية تعطي التجريب أهمية بالغة تكاد تصل إلى حد الأولوية المطلقة ولا تكاد تعترف بوجود حقائق مسلم بها، وإنما هي تجمع المشاهدات أو الملاحظات وتقيم عليها التجارب ثم تستخرج منها المعرفة الصحيحة الدقيقة» (١٨). «فالطابع الغالب على ثقافات الغرب هو الطابع العلمى التجريبى، ولا يقتصر ذلك على العلوم الطبيعية وحدها إنما هو يمتد إلى العلوم الاجتماعية مثل علم النفس وعلم الاجتماع، فهي إذن ثقافة يتحكم فيها المنطق والرياضة وقوانين العلوم بل وأيضاً قواعد اللغة المفهومة ذات الدلالة المحددة الدقيقة» (١٩). وهو ما يعكس حتى في الفلسفات الأربع الكبرى المعاصرة رغم ما قد يبدو بينها من اختلاف وتعارض في النظرة إلى الأشياء،

أصول غير عربية وغير إسلامية. وذلك فضلاً عما تلجأ إليه بعض الهيئات والمؤسسات الأجنبية من سرقة منجزات الحضارة في مختلف مراحل تاريخ العالم العربي كما هو الحال مثلاً في تهريب الآثار وما إليها من نفائس وكنوز» (٢٣) .

وهذه كلها أمور يجب أن تؤخذ في الحسبان في أي محاولة لمعرفة أساليب ووسائل مواجهة هذه الأخطار والتصدي للتحديات الثقافية المعاصرة التي تتمثل ليس في قوة وفاعلية تأثير هذه التحديات، وإنما أيضاً في الهجوم على مقومات الثقافة العربية القومية والتهوين من شأنها والتشكيك فيها .

وقد رأينا أن الجامعة تستطيع أن تقوم بدور فعال في مواجهة هذه التحديات الثقافية على الرغم من الصعوبات التي قد تحد من قدرة الجامعة في هذا المجال، وهي صعوبات ناشئة من نفس الظروف والأوضاع التي تحيط بالجامعة، وإن كانت في الوقت ذاته صعوبات يسهل تذليلها والتغلب عليها وبخاصة إذا اعتبرت الجامعة التصدي لهذه التحديات جزءاً مكملًا لرسالتها التعليمية :

١ - ولقد سبق وأن أشرنا إلى أن التعليم الجامعي يعتبر مطلباً أساسياً في كل أنحاء العالم كما يظهر من شدة الإقبال على الالتحاق بالجامعات ومن اهتمام الدولة

(ابتكار) غربي أو أوروبي، وأن أصول «العلم الكلاسيكي» ترجع إلى الفلسفة والعلوم الإغريقية بشكل مباشر، وأن هذا «العلم الكلاسيكي» سواء في إطاره المعاصر أو في سياقه التاريخي، يبدو في النهاية وكأنه عمل مقصور على الإنسان الأوروبي دون سواء، بل وكأنه بالضرورة هو الوسيلة التي يتسنى بها تعريف هذا الفرع من بنى البشر....

وقد يحمل بالفعل اعتراف بوجود علوم عملية معينة لدى حضارات أخرى، إلا أن هذه العلوم تظل خارج التاريخ أو لا تدخله إلا بقدر مساهمتها في العلوم التي هي أوروبية في الأصل... وما الصورة المرسومة للعلم العرسي إلا مثل بليغ عن هذا المنهج» (٢٤).

ويتخذ هذا (الفرز الثقافي) إذا نحن قبلنا استخدام هذه العبارة أشكالا أخرى لا تقل عن ذلك خطورة وتتكامل في الوقت نفسه مع التأثيرات الثقافية الواحدة عن طريق وسائل الإعلام. «ومن أخطر هذه الأساليب (تفريغ) العالم العربي من كفايته العلمية والإبداعية عن طريق تشجيع هجرة العلماء والمبدعين إلى دول الغرب وبخاصة أمريكا، وكذلك (تفريغ) الثقافة العربية ذاتها من مضامينها وإنجازاتها أو على الأقل التشكيك في قيمة هذه المضامين والإنجازات، أو التهوين من شأن المفكرين والمبدعين والمثقفين العرب، واعتبار البارزين منهم حالات استثنائية شاذة، أو ردهم إلى

التعليم الجامعى إلى ثقافة يسهم الطالب نفسه فى اكتسابها بجهوده الخاصة وحسب قدراته الشخصية ويتمثلها بحيث تصبح جزءاً من تكوينه العقلى، نون أن يؤثر ذلك بحال فى إعداداته العلمى فى مجال تخصصه.

٢ - محاولات التوفيق بين التخصص البقيق والثقافة الواسعة العريضة المتنوعة، أو الجمع بينهما داخل نطاق الجامعة وفى إطار التعليم الجامعى من شأنها أن ترتفع بالتعليم الجامعى عن أن يكون مجرد مرحلة تالية ومكملة للتعليم الثانوى أو امتداد له، وذلك على اعتبار أن الهدف من التعليم الجامعى هو تكوين المواطن المتعلم المتخصص المثقف الواعى والمدرک لمشكلات العلم والحياة والمجتمع والثقافة العالمية مع العمل فى الوقت ذاته على تأكيد الهوية الاجتماعية والذاتية الثقافية والحفاظ عليها.

وقد يكون من السهل تحقيق الوظيفة التعليمية عن طريق الدروس والمحاضرات وحلقات البحث وإجراء البحوث والإعداد العلمى للخروج إلى الحياة العامة وممارسة عمل معين أو مهنة معينة تتفق، أو لا تتفق من قريب، أو بعيد مع فرع التخصص. ولكن تحقيق الوظيفة الثقافية إن صح التعبير أمر مختلف.

فليس من الضرورى أن ينحصر دور الجامعة فى مواجهة التحديات الثقافية فى

إنشاء جامعات جديدة لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الطلاب بحيث قد نجد أكثر من جامعة واحدة فى المدينة الواحدة. وكثيراً ما يؤدي ازدياد العدد إلى انخفاض مستوى التعليم الجامعى ومستوى الخريجين، وإن كان ذلك يتفاوت بطبيعة الحال من جامعة لأخرى، كما قد تتدخل فى ذلك بعض عوامل أخرى غير ازدياد عدد الطلاب ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى النحول هنا فى تفاصيلها...

ولقد فرضت هذه الزيادة فى أعداد الطلاب على معظم الجامعات الالتجاء إلى أسلوب المحاضرة والتلقين بدلاً من الاعتماد على الحوار والنقاش فى حلقات دراسية تضم أعداداً محدودة من الطلاب أو تشجيع القراءة الحرة والإطلاع مما يفتح أمام الطلاب أبواباً جديدة للمعرفة ويتيح لهم فرصة تنمية قدراتهم الخاصة على البحث والكشف والارتداد.

وقد يكون هذا الأسلوب التقليدى هو أنسب طريقة للتدريس للأعداد الكبيرة ولكنه لا يساعد على الكشف عن المواهب أو صقل القدرات الإبداعية، أو فتح مجالات الثقافة المتنوعة أمام الطلاب، وغاية ما يحققه هو الوصول بهم إلى مستوى معين من التعليم ومعرفة قدر معين من المعلومات تحدهه الدروس التى يتلقاها الطالب والكتاب الجامعى المقرر أو المذكرات التى يعدها له الأساتذة مما يقف حائلاً نون تحول

يتسنى للطلاب أولاً بأول الاطلاع على الإنجازات الجديدة المستمرة والمطردة فى مختلف فروع التخصص، وأيضاً ترجمة أسماء الكتب ذات الطابع الثقافى العام والتي لا تخطر من التعمق والنظرة الجادة إلى الموضوعات التى تعرض لها، وإن لم تدخل ضمن الكتب الأكاديمية المتخصصة، ولكنها تؤلف جانباً مكملًا لها وبخاصة إذا كانت تعالج موضوعات علمية دقيقة وعميقة وجادة بطريقة مشوقة لإبراز الجوانب الإنسانية فيها، أو علاقتها بحياة الإنسان والمجتمع.

وقد يذهب البعض منا إلى أن الترجمة ونقل الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية أمر يخرج عن صميم وظيفة الجامعة، أو ينظر إلى الترجمة على أنها عمل أقل مكانة ومنزلة من (التأليف)، وهذه مسألة تختلف فيها الآراء، ولكن المهم هو أن تؤخذ الترجمة كعنصر هام فى السياسة الثقافية للدولة، وأن يكون للجامعة شأن فى الاختيار، والأهم من ذلك هو توجيه الجامعة لطلابها إلى الإطلاع والقراءة الجادة المفيدة العميقة واعتبار ذلك جزءاً مكملًا للمحاضرات والمذكرات المقررة التى تفرض عليهم.

٣- والاهتمام بنقل الثقافة الأجنبية وترجمة آثارها وتيسيرها للطلاب لا يتعارض مع ضرورة الانتباه إلى أخطار «الفزو الثقافى» على الثقافة القومية، إذا

التصدى لهذه التحديات من طريق اتخاذ موقف عدائى، أو دفاعى منها يقوم على النقد والتفنيد والرفض. إنما قد تتخذ (المواجهة) شكل الدراسة والفهم والتحليل ثم التحصيل والاستيعاب مادامت الأفكار والآراء والاتجاهات والتيارات والدعاوى الثقافية الأجنبية الوافدة لا تتعارض مع العقل، ولا مع القيم الثقافية والاجتماعية والأخلاقية والدينية السائدة فى المجتمع.

ولكن هذا كله يفترض أن الجامعة تتيح الفرصة لطلابها للاطلاع على هذه التيارات والاتجاهات والدعاوى وتعرفها ومناقشتها، وهو أمر قد لا يتحقق فى كثير من الأحيان، حيث يقف دونه أحياناً أسلوب التلقين والمذكرات كما ذكرنا، وتواضع قدرات الطلاب أنفسهم بوجه عام فى معرفة اللغات الأجنبية وفهمها فضلاً عن إجادتها بدرجة تسمح لهم بالقراءة والاطلاع وبالتالى الاتصال بالثقافات الأخرى، ثم إن القراءة الحرة الجادة العميقة ليست من العادات الاجتماعية التى يتولى البيت العربى غرسها ورعايتها منذ الطفولة من خلال التربية والتنشئة الاجتماعية.

وهذا الوضع يثير على العموم مشكلة الاهتمام بالترجمة والتعريب وليس فقط تعريب التعليم بوجه عام وبخاصة فى فروع العلم التى لا تزال تدرس بلغات أجنبية هى الإنجليزية فى الأغلب، ولا حتى ترجمة الكتب والمراجع الأكاديمية الأساسية حتى

الثقافية الأجنبية وطريقة النظر إليها وأسلوب التعامل معها. وهذا هو المجال الحقيقي الذي تستطيع الجامعة أن تقوم فيه بدور فعال في مواجهة التحديات الثقافية المعاصرة لأنه يتطلب الفوص تحت المظاهر السطحية التي تتمثل في الحياة الفربية، أو التصرفات، أو حتى الأفكار والآراء التي تنقلها وسائل الإعلام وينقلها الناس أو حتى المعلومات والمعارف التي تملأ الكتب ويردها الطلاب دون أن يتعمقوا فهم معناها، أو أن ينقلوا بها دون أن يدركوا الظروف والأوضاع التي أدت إلى ظهورها ومدى ملاستها للمجتمع العربي.

فالموقف المنهجي الذي تقفه الجامعة من هذه التحديات الثقافية المعاصرة يأخذ مظاهر الثقافة المختلفة وإنجازاتها على أنها نتاج وحصولية التوجه الذهني العام، والنظرة إلى الحياة والموقف من الكين بكل عناصره ومكوناته الطبيعية والفيزيائية والبشرية والمبادئ التي يقوم عليها هذه التوجه ونوع المنطق وأساليب التفكير السائدة في المجتمع. وهذا هو الذي يدعو إلى ضرورة الاهتمام بتاريخ العلوم عند العرب كمدخل لمعرفة العقلية التي كانت تحكم الفكر العربي والتي أدت إلى ذلك الإنتاج الوفير الغزير من الأعمال التراثية في مختلف ميادين الفكر العربي والأدب والفن، كما أنه هو الذي يدعو إلى ضرورة الاهتمام بـ «سوسيولوجية العلم لمعرفة الأوضاع

ينبغي عدم المبالغة، أو التهويل والمغالاة في إبراز هذه المخاطر والأخطار. فالأصل في الثقافة هو الانتشار والاحتكاك بالثقافات الأخرى والاستعارات المتبادلة بين هذه الثقافات. وهذا أمر موكول إلى المجتمع المتلقى فهو الذي يستطيع أن يتحكم ولو إلى حد في تقبل أو رفض الاتجاهات الفكرية المختلفة ليس عن طريق الحجر أو (التعتيم)، وإنما عن طريق الدراسة والبحث والمناقشة والنقد.

والجامعة هي المؤسسة المؤهلة بطبيعة تكوينها ووظيفتها في المجتمع لأداء هذا الدور والقيام به، وليس فقط من خلال الدراسات والبحوث التي تقوم بها ولكن أيضاً من خلال الدروس والمحاضرات، أي من خلال العملية التعليمية ذاتها التي يجب أن تخضع هذه الاتجاهات والمذاهب والآراء للنقد والتحليل في ضوء مقومات الثقافة التي أفرزتها من ناحية وفي ضوء مقومات ومكونات الثقافة القومية من الناحية الأخرى بحيث لا يتم قبول هذه الآراء والأفكار الواودة لأنها (وافدة) ولأنها (أجنبية)، أو (غريبة) فحسب ولكن هذا يتطلب الإحاطة الشاملة العميقة بالواقع الثقافي العربي المعاصر وبمتطلبات المجتمع والثقافة، وكذلك بنسق القيم الذي يحكم سير هذا المجتمع وهذه الثقافة.

فالمشكلة في أساسها مشكلة منهجية تتمثل في الموقف العقلي إزاء المؤثرات

Thoughts on Higher Educational purposes and Goals : AMemorandum" in American Higher Education:Toward an Uncertain Future. Daedalus Fall 1974 . P . 8 .

(2) Martin Meyersin . Civilizing Education : Uniting Liberal and professional ' Daedalus . P . cit P . 173 id . preface . p V III .

(3) Ibid . p . 176 .

(4) Harold Entwistle. Class. Culture and Education . Methuen london 1978 . p . 110

(٥) أحمد أبو زيد «الإسلام المناضل» مجلة عالم الفكر المجلد الحادي عشر ، العدد ٢ ص ٢٦١ .

(6) Charles Adams . Islamic Reliquious Tradition. in Leonard (ed) . The study of the Middle East wiley . N . Y. 1976 . p 29 .

(٧) شكرى فيصل: «المخطوطات العربية والوثائق والتخطيط المستقبلي لحفظها وصيانتها والإفادة منها في التطور الثقافي العربي»الخطة الشاملة للثقافة العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،

والظروف الخاصة بالجامعات التي أبدعت الثقافة العربية والفكر العربي والعلم العربي وتظهر الاتجاهات العقلانية والمناهج التجريبية والأساليب الرياضية في كل جوانب الفكر والحياة.

وعلى ذلك فإن أية محاولة جدية للحاق بثقافة العصر التي هي في أساسها ثقافة علمية تعتمد على المنطق وأسلوب التفكير الرياضي الدقيق المحكم سوف تتطلب إعداداً فكرياً وذهنياً منذ البداية وإخال تعديلات جذرية على أسلوب الحياة ذاته.

وهذه مسألة تتعلق بالتنشئة الاجتماعية التي قد تتمدى حدود الجامعة، وإن كانت الجامعة تستطيع أن تلعب في ذلك دوراً هاماً وأساسياً بحكم طبيعة عملها ومهمتها في ترسيخ أسلوب التفكير العلمي الدقيق المحكم بين طلابها من ناحية، وما قد يقوم به أساتذتها من نشاط أكاديمي وثقافي في المجتمع من خلال وسائل الإعلام والاتصال الجماهيري بحيث تصبح الثقافة العلمية بالمعنى الواسع للكلمة جزءاً أساسياً من تكوين العقل العربي ليس من حيث المعلومات والمعارف الجزئية المفردة المتفرقة التي تدخل تحت باب (المعلومات العامة)، أو (الثقافة العامة)، ولكن من حيث المنهج وأسلوب التفكير .

المراجع

1 . Stephen R . Craubard "

- المجلد الثالث . القسم الأول ، الكويت ١٩٨٦ .  
ص ١٩٢ .
- ١٧٦ . (١٨) أحمد أبو زيد: أسطورة الغزو الثقافية، مرجع سابق ص ٥٤ - ٥٦ .
- (١٩) أحمد أبو زيد «أسطورة الغزو الثقافي، مجلة الهلال، مارس ١٩٨٨ ص ٥٦
- (١٠) مارشال ماكولان ووسائل الاتصال .  
مجلة عالم الفكر . المجلد ١٢ العدد الأول  
ص ٢٠٢ .
- (١١) أحمد أبو زيد «الثقافة السنيماية»  
مجلة الهلال، عدد سبتمبر ١٩٨٨، ص ١٢٦ - ١٣٣ .
- (١٢) أحمد أبو زيد: «أسطورة الغزو الثقافية، مرجع سابق ص ٥٢ .
- (13) Richaed Brown & C. Daniels: ' Cultural Imperialism' : The Times Educational Supplement, (T.E.S) December II. 1984.p18.
- (١٤) أحمد أبو زيد: وسائل التخطيط الثقافي، مرجع سبق ذكره ص ٥٠ - ٥١ .
- (١٥) اليونسكو : أصوات متعددة وعالم واحد - الاتصال والمجتمع وغداً من ١٥٤ .
- (١٦) حمدي قنديل: نحو تخطيط ثقافي للسنيما العربية، بعض المعادلات الصعبة،  
الخطا الشاملة للثقافة العربية، المجلد الثالث، القسم الثاني، ص ٤٧٨ .
- (17) Meyerson , op . cit . p .

## ديناميات صورة السلطة لدى المسجون دراسة تحليلية لرواية لنجيب محفوظ «اللعن والكلاب»

د. محمد حسن غانم \*

### مقدمة الدراسة

«تعد السلطة من الموضوعات الأساسية التي تلعب دوراً مهماً في حياة كل فردٍ فكما أن الفرد لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن الآخرين، بل لابد له من التواجد مع الآخرين بدرجة ما، وحتى في حالة الحضور الفعلي للآخر - كما بين ذلك التحليل النفسي - نجد الفرد يتواصل مع الآخر على المستوى التخيلي المتلهس به» (١:٢٦). كما أن غريزة الاجتماعى هذه تلازمة منذ خروجه إلى الدنيا حتى رحيله عنها، فما هو نفسه إلا وليد اجتماعى بين ذكر وأنثى من الناس، وهو يدخل منذ ولادته فيما يكونان من مجتمع صغير هو الأسرة، لأنه محتاج إلى رعاية الأم وكفالة الأب، فإذا بلغ أشده واستوى فيما يعد - ضرب في الأرض سعياً وراء الرزق مختلطاً بغيره من الناس في ذلك المجتمع الأكبر استبدلاً وإياهم التمتع من مجموع ما يبذل ويبذلون من نشاط (٢٧:٦٦) .

كذلك استتب وجود الفرد مع الآخرين وخضوعه للسلطة التي تقوم بدور مهم ورئيسى في عملية التشريع والضبط الاجتماعى «والذى وجد كقوة فعالة في تنظيم السلوك الاجتماعى والثقافى في الأشكال الأكثر بدائية وقدماء للحياة

\* مدرس بقسم علم النفس - كلية الآداب - جامعة حلوان .  
\*\* يشير الرقم الأول إلى رقم المرجع في قائمة المراجع، ويشير الرقم الثانى إلى صفحة المرجع وهكذا في بقية الصفحات ....



مورتن Morton - هي أساس السلطة،  
(١١٠:٢٠)

كما أن السلطة الوالدية تعد أولى مصادر التشريع في واقع الفرد، تلك التي يستمدح صورتها الطفل ويتوحد بأوامرها ونواهيها في البدايات الأولى لوجوده والقمع الذي يمارسه الآباء على أبنائهم إنما يعبر عما يستشعرونه من قهر الواقع الاجتماعي لهم ومن ثم ينتقل عبر عمليات التنشئة الاجتماعية إلى الأبناء (٤٠:٢١).

وقد استُنت هذا المجتمع مجموعة من القوانين على جميع الأفراد الالتزام بها، ومن هنا فإن الخروج على هذه القوانين يعد جريمة لأنه هدم، أو عدم اعتراف بسلطة المجتمع. (٢٤٦:٢).

والعلاقة بين السلطة والمجرم علاقة جدلية عدائية، لأن السلوك الإجرامي ما هو إلا سلوك مضاد للمجتمع، أو الفرد بارتكاب الجريمة إنما يقع مباشرة في قبضة، أو في مواجهة سلطة المجتمع التي تسعى جاهدة إلى وسيلة الردع «وقد أمكن فصل فئة من الجرائم تكشف عن حساسية مرتكبيها حيال كل ما يمثل النفوذ أو السلطة، ويكون الدافع الرئيسي لها كراهية لا شعورية نحو الأب نجمت عن حل غير موفق للصراع الأبوي لكنها لا توجه مباشرة إلى شخص الأب ذاته بل تزاوج وتنقل في صورة تمرد أو عدوان على كل ما يمثل سلطة الأب وقيوده على

ويكاد يجمع علماء النفس اليوم على أن السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل تلعب الدور الحاسم والرئيسي في تشكيل شخصيته. وفيها توضع بذور الصحة والمرضى. وليس هذا فحسب بل «لقد اتضح أن العواطف والاتجاهات الأولى التي تتكون لديه في هذه المرحلة ذات أثر عميق بآرز في تعيين موقفه من المجتمع وفي تشكيل نظرتة العامة إلى الدنيا.

فمن نشأ في بيئة عدوانية لم يشعر بالصدقة أينما ذهب، ومن نشأ على تربية قوامها الاستغلال وسوء المعاملة توقع هذا من المجتمع وتصرف وفقاً لما يتوقعه منه المجتمع. ومن كانت صلاته بوالديه في هذا المرحلة مما يحول دون حبه واحترامه وجد كل صلاته بالكبار، أو من يمثلون السلطة أو النفوذ - صلات عثرة يغشاها التحدي أو العدوان. (٦١:٤). وإذا نظرنا إلى الفرد وجدناه يحكم فترة طفولته الكبيرة نسبياً يكون أكثر اعتماداً على والديه ومن هم أكبر منه في معيشتة، فنحن نعتمد على الكبار في إ طعامنا وفي حمايتنا من كافة الأخطار التي تحيق بنا «فتبعاً لمدة طفولتنا الطويلة، نحن جميعاً نتعلم بعض التصرفات الاعتمادية الخضوعية، ولكن نظراً للخبرات المتنوعة فنحن لا نتعلم جميعاً تصرفات واحدة فالأم هي مصدر السلطة بالنسبة للطفل، وهي أيضاً مصدر لإشباع حاجاته وأول موضوع لحبه والاستمالة - لا الإكبار- كما يقول

متعددة أبرزها دراسة الإنتاج الأدبي الذي ينهض على مسطرة مفادها أن الإنتاج الأدبي لشعب من الشعوب لابد وأن يعكس بحكم طبيعته الطابع القومي لذلك الشعب. (١٥، ١٢٠:١٢١). إضافة إلى أن العمل الأدبي - كما يذهب فرويد - ينطوي على لب أو جوهر الوجود البشري. والذي يتم تطويره وفقاً لظروف الواقع الاجتماعي، ويرى أن درجة شيوع أو انتشار العمل الأدبي، أو الفني هي مقياس لقدرة هذا العمل على التعبير عما هو مشترك بين الكاتب وجمهوره (١٣، ١٤).

والمعلوم أن الأدب يسبق علم النفس في كشف مجاهل الإنسان. هذه حقيقة بديهية. إذا إن إنجازات الأدب من رواية وقصص وأساطير ومسرحيات وأشعار بل وحتى خرافات قد فتحت المجال لدراسة الإنسان من حيث هو إنسان. وهذا إقرار سيجموند فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٦)، حيث يقول: «الفن كما نعلمه منذ أمد طويل يمنحنا ألواناً من الرضى تعوضنا عن أقدم ألوان العنول الثقافية. وهذا لا يعادله شيء في تحقيق المعالجة والتوافق بين الإنسان والتضحيات التي ضحى بها من أجل استمرار الحضارة» (٢٠:٢٣).

لذا فإن فرويد S. Froud - يخلع نوعاً من القداسة والأهمية على العاملين في مجال الإبداع إذ يقول: «الشعراء والروائيون يعرفون بين السماء والأرض كثيراً من الأشياء التي لم تزل حكمتنا المدرسية لا

الرؤساء، وهؤلاء لا يطبقون السلطة في أي مظهر من مظاهرها، وليس هذا بمستغرب إذ من الثابت أن العدوان إن حبسه على المعتدى اتجه إلى بديل عنه، إلى رمزه، وكيش اللداء في حالتنا هو السلطة (٢٤/٨٣: ٨٤). «وقد تم الاتفاق على أن يكون السجن هو المكان الذي يتم فيه عزل هؤلاء الأفراد المجرمين بهدف إصلاحهم، أو تهذيبهم، أو حتى إيلامهم حتى يعودوا - بعد قضاء مدة العقوبة، أو الإصلاح - مواطنين غير عدوانيين تجاه المجتمع ومؤسساته» (٣، ٢٦).

والسجن يعد «كمجتمع مغلق يحتوى بداخله على عدد كبير من البشر يختلفون في الأعمار والجرائم والمستويات الاقتصادية والاجتماعية، ولكنهم في النهاية يعيشون معاً ويجمعهم لقب مذنّب أو محبوس. (١٠٨). ونحن على قناعة بأنه «لم تعد مهمة الباحث في ميدان الجريمة أن يدين المجرم أو يعاقبه، أو يصدر عليه حكماً أخلاقياً، بل أصبحت مهمته أن يبحث في أعماق المجرم، أو يعيد النظر في سلوكه مبتدئاً بفكرة أنه إنسان فقد توافقه مع نفسه وجماعته، ولجأ للجريمة حتى يستعيد هذا التوافق المفقود» (١٠٦).

والمواقع أن الدراسات النفسية التي تناولت الأعمال الأدبية جد قليلة، بالرغم من أن العديد من علماء النفس قد اتجهوا إلى فهم شخصية مجتمع من المجتمعات بطرق

التي يتعرف الناقد والقارئ العادي فيها على العمل الأصلي والعمل الفني معاً، فنستطيع أن نرى كيف تناول العمل الفني الحقيقة وأعاد خلقها لأهدافه الخاصة (١٩٩٠، ٢٥). إذ من المعروف أن شخصية سفاح شهير أنذاك هو الذي أوحى لتجيب محفوظ برواية «الصح والكلاب»، متحدثاً ومثيراً لقضية الصراع الأبدى والمتجدد بين الفرد والسلطة والتي لا يستطيع الفك من تأثيراتها عبر مراحل حياته المختلفة.

#### مشكلة الدراسة وأهميتها:

تتحدد مشكلة الدراسة في تتبع ديناميات صورة السلطة لدى المسجون من خلال التحليل النفسي لرواية «الصح والكلاب» لتجيب محفوظ ذلك لأن الأدب في أوسع معانيه ما هو إلا تصوير دقيق للنفس الإنسانية، ولذا فإن الأدب الإنساني الرفيع والراقي لا يقتصر على التجربة الشخصية للأديب، بل لابد وأن تندمج معها - وفيها - تجارب تاريخية وأسطورية واجتماعية بل وحتى خيالية مما يجعل مفهوم الأدب - بحق - يتسع ليعبر عن جوهر الوجود الإنساني (٢٦٠٧، ٢٤). كما أن علاقة التحليل النفسي بالأدب قديمة جداً من ناحية، ووثيقة جداً من ناحية أخرى، وأن فرويد يعترف - في أكثر من موضع - بأنه تعلم من دوستوفيسكي، وسوفوكليس، وغيرهما من أساتذته من الأدباء لأنهم أدركوها بحسبهم الأدبي وبصيرتهم الفنية ما انتهى هو إلى تقريره

تستطيع الحلم بها، فهم أساتذتنا - نحن البشر المعادين - في فهم النفس لأنهم ينهلون من منابع لم نجعلها قابلة للإدراك العلمي بعد (٢٩، ١٧).

ولذا فقد وضع سيجموند فرويد فلسفة خاصة لفهم الإنسان من خلال الفن فتعامل مع التراث الإنساني تعامله مع الكائن البشري في طفولته (البدائية)، وتطوره في اتجاه الرشد وما يصيب حياته من ضروب القلق التي تبعث على الكبت وتدفع إلى تطوير ميكانيزمات دفاعية أخرى يمكن استثمارها في عالم اللعب الطفولي وأحلام اليقظة والنوم، ولذا فإن سيجموند فرويد يرى أن ثمة بنية مشتركة بين أحلام الليل النموذجية، وبعض الآثار الأدبية باعتبارهما نشاطاً لا شعورياً يهدف إلى أشباع مقنع لرغبة مكبوتة. (٢٧، ٢٦، ١١).

والواقع أن ما حفزني إلى القيام بهذه الدراسة أمران :-

الأول : لم نعثر على دراسة قد تناولت هذا الجانب الشرى (صورة السلطة لدى المسجون) من خلال التناول السيكلوجي لعمل روائى وبالتحديد لرواية الصح والكلاب، والتي تمثل - بحق - ثراء في تناول علاقة الفرد بالسلطة

الثاني : أن نجيب محفوظ قد ذهب إلى القول بأن «تجربة الصح والكلاب تستحق أكثر من دراسة لأنها الوحيدة في أعمالى

بمناهج البحث العلمى (٢٣ : ٢٢).

أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى :

١ - التعرف على ديناميات صورة السلطة بأشكالها المتعددة كما يدركها بطل رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ .

٢ - التعرف على العوامل والتفاعلات التى قادت إلى هذه الصورة العدائية تجاه كافة أشكال السلطة .

٣ - التعرف على مدى سواء أو عدم سواء بطل رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ من خلال محكات الصحة النفسية.

الدراسات السابقة

يمكن عرض الدراسات السابقة على محورين :-

المحور الأول : الدراسات التى تناولت علاقة المجرم بالسلطة :-

يوجد العديد من الدراسات نذكر منها دراسة المركز القومي عن الاستجابات الإدراكية لدى الأحداث الجانحين (١٩٦٥) ومقارنتهم بالأحداث الأسوياء، ومعرفة مدى التحريفات الإدراكية من خلال جهاز (التاكستوسكوب)، وقد وجدت دلالات إحصائية بين الاستجابات العدائية لكلمات السلطة ومتوافقاتها مقارنة باستجابة الأسوياء (١، ١٩٦٥).

وإذا كانت هذه الدراسة قد أجريت على الجانحين الأطفال، فإن العديد من الآراء

والدراسات قد أثبتت أن إجرام الكبار ما هو إلا امتداد لإجرام قد تم إبان مرحلة الطفولة المبكرة (٣٥ ، ٣٦).

وتُعد دراسة شكرى عبد العظيم عن السجن - دراسة فى ديناميات الجماعة (١٩٨٤)، وقد توصل إلى العديد من النتائج أهمها النظرة العدائية من المسجون إلى رموز السلطة داخل السجن مثل الضباط ورجال المباحث، أما الموقف من الحارس فقد تباينت اتجاهات المسجونين تجاههم، فالحارس إما مجرد خادم أو «طربوش» (أى لا فائدة منه)، أو قد يكونون معهم علاقة قوية، أما الموقف من المجتمع فيكون أكثر عدائية، وكذا حب الكراهية الشديدة تجاه كافة أنواع السلطة، إضافة إلى الموقف العدائى من القانون ومن يقومون بتطبيقه (٨).

أما مجدة أحمد محمود (١٩٨٥) فقد تناولت الفردية والانتماء، وقد لخصت نتائجها فى ثلاثة أبعاد، وهى : العلاقة بالذات، العلاقة بالآخر، العلاقة بالسلطة. وقد وجدت أن السلطة تأخذ أشكالاً ثلاثة هى : صورة السلطة العدوانية (المهذبة)، صورة السلطة المهيمنة (المتسلطة)، صورة السلطة التابعة، أو المناوئة بخطط وأهداف غير قومية (٢١)، وتناولت دراسة مجدى حسن / وحسدى أحمد مكايى (١٩٨٩) خصائص مرتكبي السلوك الإجرامى من الزاوية السيكيولوجية، وقد توصلوا إلى

اجرامية: النشل / السرقة / القتل / البغاء / القوادة. ومقارنة نتائجهم بنتائج فئة الأسوياء فيما يتعلق بالسلطة ورموزها. وقد وجد زيادة نسبة الاستجابات العدائية بدرجة ملحوظة في الفئات المسجونة الخمس مقارنة بفئة الأسوياء (أى الذين لم يرتكبوا جرائم وبالتالي لم يصدر في حقهم أى أحكام تحتم دخولهم السجن). (٢٦).

أما عن الدراسات الأجنبية فى هذا الصدد فنذكر دراسة باركلي وجاليمو الذين تناولوا بالدراسة المناخ الأسرى لأسرة بغي، وقد توصلوا إلى عدة نتائج منها سوء العلاقة بالأم، أو أن هناك تصدعا داخل هذه الأسرة. وأن هذا المناخ السئ قد قاد إلى النشاط البغائى (٣٢، ١١٣). ودراسة جان مار عن السلوك المنحرف الذى تناول فحص نشاط القوادين. والعوامل التى تدفعهم إلى ذلك، أو فحص المناخ الأسرى، وطبيعة العلاقات والإدراكات المتبادلة (٢١٧:٢٠٣٢،٣٤).

المحور الثانى: دراسات تناولت بالتحليل النفسى أعمال نجيب محفوظ :

إن الاهتمام بنجيب محفوظ قد زاد بعد حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨. ولعل أهم الدراسات التى تناولت أعمال نجيب محفوظ :

دراسة أحمد خيرى حافظ (١٩٨٥). عن «سيكولوجية الآخر عند نجيب محفوظ» من

العديد من النتائج منها أن مرتكبى السلوك الإجرامى هم (مرضى نكور مودعين بالمستشفى العقلى بالخانكة، وإثاث مودعات بدار الإدمان بتهمة ممارسة البغاء، وأحداث منحرفون مودعون بمؤسسة عين شمس. يقل متوسط ذكائهم عن متوسط ذكاء الأسوياء بشكل دال، وأن نتائج رسم المخ بالنسبة لعينة المرضى العقلين قد أشارت إلى وجود اضطراب فى النشاط الكهربائى للمخ (٢٢، ١٩:٢٨).

ودراسة سميرة شحاته (١٩٨٠). والتى تناولت العلاقة بين تصور الذات وتصور البيئة لدى الجانحات وقد توصلت إلى نتائج أيدت فروضها من حيث أن اضطراب صورة الذات قد أسهمت فى اضطراب تصور الجانحة لكافة رموز السلطة والبيئة التى تحيا فيها. (٥)

وتناولت دراسة عادل صادق (١٩٧١)، القتل المصرين وبأكثر من أداة سواء أكانت سيكومترية أم كلينكية، أم طبية. وقد توصل إلى العديد من النتائج والتى تؤيد حقيقة أن اضطراب الفرد ما هو إلا انعكاس لاضطراب البيئة التى يعيش فيها الفرد وهو امتداد للعلاقة الديالكتيكية بين الفرد وبيئته (١٣)

وتناولت دراسة محمد حسن غانم (١٩٩٠)، ديناميات صورة السلطة لدى المسجون، حيث قارن بين خمس فئات

«الرؤى المتغيرة عند نجيب محفوظ (١٩٩١)» حيث تناول الزمن الروائي (١٠)، والدراسات النفسية التي تناولها يحيى الرخاوى لبعض أعمال نجيب محفوظ منها: فيضان الوعي في: رأيت فيعما يرى النائم، والقتل بين مقامى العبادة والدم في ليالى ألف ليلة، ودورات الحياة وضلال الخلود في ملحمة الخرافيش (٣١).

ومن الدراسات الأخرى دراسة عبد الله السيد عسكر عن غياب الأب الرمزي - دراسة في التحليل النفسي لرواية الطريق (١١)، وكذا دراسته عن: الصدام الأيديولوجي وهوية الذات، ودراسته في التحليل النفسي لرواية قلب الليل لنجيب محفوظ (١٢).

تعليق عام على الدراسات السابقة :

من خلال عرضنا للدراسات السابقة اتضح - فيما يتعلق بالدراسات التي تناولت علاقة المجرم بالسلطة - أن هذه الدراسات كانت ميدانية وتناولت بعض الفئات الجانحة، أو المجرمة حيث قادتها الجريمة إلى الوقوع في براثن السلطة. ومن ثم فقد أظهر أفراد عينات الدراسة - بغض النظر عن طبيعة الجريمة - النظرة العدائية التي يكتونها السلطة، خاصة سلطة البوليس والشرطة والسلطة القضائية. كما في دراسة المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجناية (١٩٦٥). ودراسة شكرى عبد العظيم

خلال رؤية التحليل النفسي وبعض الفلسفات الأخرى منتهاً إلى أهمية الحوار مع الآخر، وأن الآخر إذا كان مضطرباً فإنه بلا شك سوف يتعكس على ذات الشخص. (٢٠٥:١٩٩٠٢)، ودراسة لطيفة الزيات (١٩٨٩). عن الجديد في اللص والكلاب، والشكل الروائي عند نجيب محفوظ من اللص والكلاب إلى مرامار وهي عبارة عن مقالات نقدية تهتم بأدب نجيب محفوظ ولكن من ناحية التكنيك المستخدم في الكتابة، حيث استخدم نجيب محفوظ تياراً نوعياً، ذلك التيار الذي استخدمه «جيمس جويس James Joyce» و«فرجينيا وولف Virginia Woolf» بيد أن الجديد في دراسة اللص والكلاب هو أن نجيب محفوظ قد عمم استخدام هذا الأسلوب فبنت روايته وكانت إحدى روايات مجرى الشعور، ويعد اتجاه جديداً في الأدب (٥٦:١٨، ٣٣).

ودراسة مصرى حنورة (١٩٩٠). عن مربع العبقرية في مسيرة نجيب محفوظ الإبداعية حيث ينتهى إلى القول إن العبقرية الإبداعية تتحقق حينما تلقى في قمة مكعب ارتقاء الأديب، أو المبدع عموماً والأبعاد الأربعة هي: البعد المعرفي، البعد الوجداني، البعد الجمالي، أو التذوقي، البعد الثقافي الاجتماعي. ويرى أن هذه الأبعاد الأربعة قد تفاعلت مع بعضها البعض عند نجيب محفوظ. (٥٦:٣٣، ١٩).

ودراسة عبد الرحمن أبو عوف عن

(١٠)، وأن حنورة قد ركزت على مريع العبقري لدى نجيب محفوظ (٥٦:٣٣، ١٩). بينما تناول يحيى الخراي وعبد الله عسكر بعض أعمال نجيب محفوظ البعيدة تماماً عن هذه الرواية، أو التي تثير القضية التي تتحن بصدد تناولها.

ورغم ذلك فقد استفاد الباحث من الدراسات السابقة، والتي أثارت لديه تساؤلات وأهتماماً بضرورة تناول ديناميات صورة السلطة لدى المسجون ليس من خلال دراسة ميدانية على مجموعة من الأفراد، بل من خلال تناول شخصية روائية تنبض بالحياة ولها فلسفتها الخاصة في التعامل مع الذات والآخر، وكيف أن وجود بعض الأفكار واللامنتقية - تجاه السلطة - قد قادها إلى الانفعالات الحادة والسلوك الإجرامي مما حتم على - الفرد والسلطة - أن يدخل في مواجهات دامية انتهت بانتصار السلطة في سحق تمرد الفرد المناوئ لها .

تساؤلات الدراسة :

- ١ - ما هي ديناميات صورة السلطة لدى المسجون (بطل رواية اللص والكلاب). كما تتضح من خلال تحليل مضمون الرواية؟
- ٢ - ما هي العوامل التي تشابكت وتفاعلت وقادت إلى الصورة العدائية لكافة أشكال السلطة كما تتضح من خلال تحليل مضمون الرواية ؟
- ٣ - ما هو موقع بطل رواية اللص

(١٩٨٤)، ودراسة مجدة أحمد محمود (١٩٨٥). ودراسة محمد حسن غانم (١٩٩٠).

وعن الدراسات التي تناولت أعمال نجيب محفوظ نجد الآتي :

١ - أن الدراسات التي تناولت أعمال نجيب محفوظ - ومن منطلقات متعددة - لم تتناول قضية علاقة الفرد بالسلطة (وهو ما نحاول تناوله في هذه الدراسة).

٢ - حتى الدراسات القليلة التي تناولت رواية «الرص والكلاب» لم تتناول هذه القضية بصورة تحليلية نفسية، إذ تناول - مثلاً - أحمد خيرى حافظ (١٩٨٥). قضية اضطراب العلاقة بالآخر، وكيف أن اضطراب وعدم سواء المجتمع يقود حتماً إلى اضطراب الأفراد لكن ذلك يثير تساؤلاً: لماذا يضطرب البعض من الأفراد ولا يضطرب البعض الآخر؟، وهنا يتحتم البحث في سيكوديناميات هذا الشخص المضطرب / المتمرد على السلطة لسبر أغواره وصولاً إلى مصدر هذا الاضطراب

كما أن دراسة لطيفة الزيات قد تناولت رواية «الرص والكلاب» من منظور أدبي وليس نفسى حيث ركزت على الجديد فى «تكنيك» كتابة هذه الرواية واعتمادها على مجرى تيار الوعي (٥٦:٣٣، ١٨). فى حين أن عبد الرحمن أبو عوف قد تناول مفهوم الزمن الروائى فى بعض أعمال نجيب محفوظ

وبداية الستينات إلى رواية توضح معالم الصراع بين الفرد الذي يسعى إلى التغيير والتمرد، والسلطة التي تقف أمام كل ذلك .

٤ - أن دراسة علاقة الفرد بالسلطة من الموضوعات الجديدة بالبحث والدراسة المستمرة، لأن هذه العلاقة لا تنفصم، كما أن الفرد لا يمكن له موقف من السلطة بغض النظر عن طبيعته. ولذا فإن «الفرد والسلطة» من الموضوعات الجوهرية لدى الإنسان.

مفاهيم الدراسة : سوف نستخدم في دراستنا مفهومين هما :

#### ١ - السلطة : AUTHORITY

تعرف السلطة في موسوعة علم النفس والتحليل النفسي بأنها «أحد الأشكال الرئيسية لتنظيم أفعال الناس وتنسيقها لتحقيق هدف عام، وتكون الممارسة إما بالتبادل، أو بممارسة القوة، أو بفرض السيطرة التي تهدد المخالف، أو المتمرد من المكافأة، أو سحب الامتيازات (٨٠،٩). وتعرف السلطة من وجهة النظر الاجتماعية بأنها : «قوة نظامية وشرعية في مجتمع معين» مرتبطة بنسق المكانة الاجتماعية، وموافق عليها من جميع أعضاء المجتمع، وترجع أهمية السلطة على أنها توجيه سلوك الأفراد بصورة محددة لإنجاز الأهداف العامة، ويتحقق ذلك من خلال بعض الميكانيزمات مثل : التبادل والمصالح

والكلاّب على متصل السواء وعدم السواء النفسى من خلال التحليل النفسى لمضمون الرواية ؟

#### المنهج والجراءات :

أولاً : مينة الدراسة : رواية اللص والكلاّب لنجيب محفوظ . ويتمثل منطق اختيار هذه الرواية فيما يلى .

١ - لأنها الرواية الأولى لإبداعات نجيب محفوظ، بل وفى الأدب العربى عموماً التى تستخدم مجرى تيار الشعور (١٨،١٦). ولا شك أن هذا الأسلوب هو الأقرب إلى المنولوج الداخلى ولا شك أن ذلك ييسر للباحث مهمته، فهو يتناول الرواية على أنها «تداعى ظليق» من شخص أشبه ما يكون فى جلسة التحليل النفسى، ومن خلال هذا التداعى تتحدد الأفعال النفسية التى تحدد ملامح البطل الأساسية، ويسهل أيضاً استخدام المعطيات اللاشعورية (١٢٥،٢)

٢ - أنها الرواية التى من عنوانها تستطيع أن تحدد طرفي الموضوع، فالأنا، أو اللص فى مقابل الكلاّب، أو أشكال السلطة، كما يدركها الشخص المجرم، ولا شك أن ذلك يسهل مهمة الباحث حتى يتحدد الموضوع ومنذ البدء .

٣ - أن هذه الرواية بالذات تحدد مدى عبقريّة نجيب محفوظ، إذ استطاع أن يحول قصة المجرم الذى اطلق عليه «السفاح» فى ذلك الوقت وتحديداً فى أواخر الخمسينات



الدراسة المسحية (٧، ١٠٧). وعلينا أن نحدد موقفنا من هذا الخلاف ونرى تجزئة العمل الروائي إلى وحدات وفئات وينود قد يحول العمل الأدبي إلى مجموعة من الأرقام التي قد لا تنفذ إلى جوهر ديناميات العمل الروائي، وإذا كان أسلوب التجزئة يصلح في وسائل الاتصال وتكسيما فإنه لا يصلح في فهم عمل روائي يتطلب خبرة ونقاز ومهارة فائقة في الوصول إلى الدلالات التي تكمن خلف فلسفة العمل الروائي وليس فقط التناول السطحي للأحداث. وتشير الدراسات السابقة إلى وجود طريقتين لتناول العمل الأدبي وهما :

أولاً : التناول النفسي للرواية، أو العمل الأدبي فصلاً إثر فصل (كما فعل فرج أحمد في تحليله النفسي لرواية طوبى للخائفين ليانيل ديان).

الثاني : تناول القضية المركزية للعمل الروائي مثل ما فعله عبد الله عسكر في تحليله لروايته : قلب الليل والطريق لنجيب محفوظ، حيث تناول في الرواية الأولى قضية تشكيل هوية الذات، وفي الثانية تناول قضية غياب الأب الرمزي، وسوف نركز على الفكرة المحورية للرواية، وكذا الإحصاء الكمي لكلمات تدل على اضطراب العلاقة بالآخرين مثل الخونة، الخيانة، الغدر .. الخ.

أما ما يدعيه البعض من ضرورة تحديد الثبات والصدق ضمانة للموضوعية في تناول

المشتركة والتضامن والقوة (٢٠، ٣٢). ويعرف محمد غانم (١٩٩٠). السلطة تعريفاً إجرائياً بأنها : «موقف الفرد من الأوامر والنواهي التي يتلقاها إما خضوعاً لها أو تمرداً عليها، باعتبار أن هذا الضبط لسلوك الفرد هام جداً لصالحه ، ولصالح الآخرين. (٢٦، ٢٥).

٢ - المسجون :

يعرف المسجون في الدراسات النفسية التي أجريت على المسجونين - ومنها هذا التعريف الذي نقتبسه - بأنه كل من يحكم عليه بالإبداع في مؤسسة عقابية لمخالفته القانون يسمى مسجوناً. (٨، ١٢٧) .

أداة الدراسة : تستخدم هذه الدراسة تحليل المضمون Content Analysis، وإن كان من المهم أن يذكر أن ثمة خلافاً كبيراً حول التكيف المنهجي لتحليل المضمون في المراجع العربية والأجنبية، فهناك وجهة نظر ترى أن تحليل المضمون هو أحد المناهج المستخدمة في وسائل الاتصال المكتوبة والمسموعة بوضع خطة منظمة تبدأ باختيار المادة محل التحليل وتضيفها - وفقاً لأسس معينة - إلى مستويات كمية وكيفية (٢٩، ١٧ : ٥٢)، في حين ترى وجهة النظر الأخرى أن تحليل المضمون ما هو إلا مجرد أسلوب أو أداة يستخدمها الباحث لتحليل معلومات معينة وذلك في إطار منهج شامل هو منهج

العامل الأدبي فنرى أن النظر إلى هذه القضية يختلف حين يتم تناول عمل إبداعي متشابه وقد يفتح المجال - وهذا هو الاتجاه الحديث في تناول الأدب - للقراءة المتعددة للنص الواحد .

ولذا فإن قراءتنا لرواية اللص والكلاب تستير في الخطوات الآتية :-

١ - العلاقة بين بطل الرواية والسلطة الوالدية (الأب - الأم - الأخ الأكبر - بديل الأب - الزوجة - الابنة )

٢ - العلاقة بالسلطة التعليمية (المدرس - ناظر المدرسة ) .

٣ - العلاقة بالسلطة الدينية (وتحديد الارتكاز على محور إقامة الشعائر الدينية).

٤ - العلاقة بسلطة القانون والقائمين على تطبيقه

٥ - العلاقة بالشرطة (الضباط - المباحث - كافة رموزهم كالمخبرين).

٦ - طبيعة وديناميات العلاقة بالسلطة بصفة عامة

٧ - مدى سواء أو عدم سواء بطل الرواية من خلال الاحتكاك إلى معايير الصحة النفسية .

ملخص للرواية : تبدأ رواية اللص والكلاب بخروج (سعيد مهران) من السجن بعد أن قضى أربعة أعوام نتيجة خيانة زوجته (نبوية) وصديقه (عليش سدره) ويفكر

في الانتقام. ولكن الرصاصات تكون طائشة ويقتل رجلاً لا يعرف بدلاً من قتله للخرقة (نبوية وعليش)، كما يقتل خادم روف علوان (مثله الأعلى ومُرشدّه). بدلاً من قتله روف نفسه، وهنا يصبح حديث الناس، ومصدر قلق للشرطة، وينجح في الاختفاء عند غانية (نور) كانت ومازالت تحبه إلا أنه يصر على الانتقام، ويقع أخيراً في قبضة الشرطة (الأعداء)، وهو مقتنع بقضيته، رافضاً الاستسلام للكلاب.

مناقشة النتائج وتفسيرها :-

أولاً : مناقشة التساؤل الخاص بديناميات صور السلطة (بكافة أنواعها) لدى المسجون سعيد مهران:

١ - العلاقة بالسلطة الوالدية - الأسرية-

أ - العلاقة بالأب: علاقته بالأب سطحية ، إذ يتحدث عنه قائلاً : «م مهران، الكهل الطيب بواب عمارة الطلبة. العمل والقناعة والأمان. وقد اشتركت معه في الخدمة منذ الطفولة» (ص٨٨)، بيد أن الأب حارل قدر جهده تعليمه أمرين :-

الأول : إلصاقه بالمدرسة بناء على تعليمات الطالب - حينذاك - روف علوان، وقد حقق سعيد مهران نجاحه في مراحل الأولى ، إلا أن موت الأب المفاجئ لم يجعله يكمل تعليمه .

الثاني : اصطحاب الأب ابنه إلى الشيخ

إنما يقتل الملايين . أنا الحلم والأمل وفدية الجبناء وأنا المثل والعزاء والدعم الذى يفضح صاحبه» (ص ١٢٠). وسوف نوضح ذلك فيما بعد حين نتناول التساؤل الثانى:

(د) يدبيل الآب أو الآب الثانى إن جاز التعبير : وهو روف علوان: فلقد أثر فى سعيد كثيراً وغير العديد من قيمه. فقد نصحه بمواصلة التعليم، أو بمعنى أصح «بالمسدس والكتاب، بالمسدس للتعامل مع الماضى (رموز السلطة المستبدية)، والكتاب لفتح مغاليق المستقبل (ص ٩٨، ٩٩)، وكذا تدعيمه الفعل السرقة، بل واعتبار ذلك عملاً مشروعاً (ص ٩٠)، وكذا التخطيط مع سعيد مهران لسرقة العديد من القصور (ص ٣٥:٣٦)، «ولأن من يسرقوننا فلا بد بنفس الأسلوب أن نسترد ما سرقوه منا». ولذا فقد تم تدريبه على كيفية استخدام السلاح لتحقيق ذلك، وشهد تدريباته فى الجور نجاحات منقطعة النظير .

ولذا فحين خرج من السجن ووجد كم التغيرات التى لحقت «بخالفه الذى ارتد» (ص ٢٧)، زلزل ذلك كيانه. وما يؤكد استنتاجنا بأن تأثير روف علوان كان أكثر من تأثير والده قول سعيد ساخراً . «أليس عجيباً أن يكون علوان على وزن مهران» (ص ٢٩).

هـ - نبوية (الزيجة) : نعرف من خلال مضمون الرواية إنها كانت تعمل خادمة عند امرأة تركية ، وقد حدثها عن حبه، وأخلص لها، إلا أنها خانت مع صديقه حين أبلغا عنه

«على الجنيدى» لحضور حلقات الذكر (ص ٨٩)، «طفولة وأحلام وحنان أب وأخيلة سماوية: المهترئون بالأناشيد يملأون الحواس والله فى أعماق الصدور. يتردد صوت: انظر واسمع وتعلم . افتح قلبك . هكذا كان يقول الآب» (ص ١٨).

(ب) الأم : علاقتها بها سطحية ، ولم يذكرها فى تداعياتها إلا حين أصابها النزيف بعد موت والده المفاجئ - وذهب بها إلى مستشفى خاص إلا أنه طرد خارجة ولفظت أنفاسها فى مستشفى حكومى (ص ٨٩ : ٩٠)، وكان مرضها هو الدافع الأول لقيامه بالسرقة تحت ضغط العوز والاحتياج وقسوة الآخرين .

(ج) الأخ الأكبر : يتضح من خلال تحليل مضمون الرواية أنه كان الابن الوحيد للأسرة ورغم البساطة والفقر كانت الأسرة تفوز.....الرجل وامراته يتحادثان والطفل يلعب (ص ٨٨). وهذا يطرح ثلاث ملاحظات -

١ - يبدو أن الوالدين قد اقترنا فى سن متأخرة .

٢ - أنهما كانا طاعنين فى السن (حيث وصفهما فى أكثر من موضع بالكهولة).

٣ - أنه الابن الوحيد، وذلك قاده إلى تضخم فى ذاتيته تلك التى قادت إلى التمرد، أخذ على عاتقه محاربة الشر، وهو يتلمس المعنى لحياته، ويتلمس المعنى لموته فى تحقيق هذا الهدف، ألم يقل «أن من يقتلنى

المناسب (ف ١، ص ١١) إنما جسئت أجس حصونك . وعند الاجل لا ينفع فجر ولا جدار» (ص ١١).

الثاني : أن الشيخ على الجندى استطاع أن يتغذ ببصيرته إلى أن فهم رفض الطفل لوالدها ليس مستنداً إلى أسباب سطحية منطقية وهو حرمانها منه وعدم رؤيته له بل قال له «وما أشبهها بك» (ص ٢) «أى إن البنت الصغيرة مثلك، وقد تحجر قلبها مثلك

ثانياً : العلاقة بالسلطة التعليمية : يتضح من التحليل النفسي للرواية أن سعيد مهران لم يواصل دراسته، فقد انتظم في السنوات الأولى فقط وقد حقق نجاحاً، ولم يكمل له الدراسة النظامية بسبب ضيق ذات اليد، ووفاء والده ثم والدته، وتحمله المسؤولية، ثم اعتمد على القراءة غير الرسمية للعديد من الكتب التي كان يمهدها روف علوان، وهي كتب ثورية تمضى على مقاومة الفساد. وملا أفكاره باتجاهات معينة تجاه الاثرياء، بل إن روف أمده بالعديد من الأفكار التي تعرضه على السرقة قائلاً له: اليس عدلاً أن ما يؤخذ بالسرقة يجب أن يسترد بالسرقة (ص ٦٠)، لذا كان سعيد مهران حريصاً جداً على استرداد كتب من زوجه السابقة عقب خروجه من السجن، وحزنه على ضياع أكثرها، وتجاهله لسخرية المخبر «من ابن لك هذا العلم؟ ثم «أكنت تسرق فيما تسرق الكتب ؟ (ص ١٧)، ثم

الشرطة فقيضت عليه، ولولا الخيانة ما كان السجن، كما نعرف أنها كانت تسبقه إلى أية شقة أو فيلا ينوى سرقتها تعمل خادمه أو غسالة لبعض الوقت حتى ترشده عن المخارج والمداخل، وقد ظلت ذكرى الخيانة عالقة في ذهنه، بل بسببها كره كل النساء وبخل في تمرد ضد كافة أشكال السلطة (مواضع متعددة من الرواية خاصة ف ١، ف ٢٧ ف ١٠).

و- ابنته (سنا) : مشاعره تجاهها متناقضة فتارة يفصح عن حبه لها «سنا إذا خطرت في النفس أنجاب عنها الحر والفيار واليغضاء والكبر، وسطع الحنان فيها كالنقاء تحت المطر (ص ٨). وحين قرر أن يقتل نبوية وعليش (الزوجة وصديقه اللذان خاناه) تظهر الثنائية الوجدانية - يشقها الآخر - تجاه سنا، إنها ابنته وفي نفس الوقت رفضه حين خرج من السجن وطلب رؤيته (ص ١٤ ، ١٥) ثم هي «الشوكة المنفرزة - في قلبى» (ص ٥٩). ثم يتساءل: هل أترك أمك الخائنة إكراماً لك؟ أريد جواباً في الحال» (ص ٥٩). ورغم ذلك كان دافع الانتقام أكبر من أن يكبح ، كما أننا نرى أنه لم يحب ابنته على الإطلاق لسببين:-

الأول : أنه بعد أن خرج من السجن وذهب إلى منزل زوجته السابقة وصديقه الخائن مدمياً - رؤيته ابنته، إنما كان ذلك رغبة على السطح الهدف منها الترميم واختبار الحصون لكي ينتقم في الوقت

الثالث : أن الشيخ طلب من سعيد أن يتوضأ ويصلي ، أو حتى يأخذ مصحفاً ليقرأ لكن سعيد تجاهل هذا العلاج الروحي لأزمته، وظل يجادل الشيخ بالخونة والخيانة والأوغاد، والغدر ، ونكران ابنته له (ص ٢٦٠، ٢٥٦).

الرابع : استحالة التفاهم، أو حتى اللقاء الفكري والأيديولوجي - بين سعيد مهرا ن والشيخ، لأن كل منهما يسير في طريق مختلف، فسعيد يرى أن «الأوغاد ثلاثة، والشيخ الجنيدى سعيد بهذا العدد قائلاً له: «طوبى للدنيا إذا اقتصر أوغادها على ثلاثة» (ص ١٣٢)، وظل الجدل والخلاف قائماً وفى أكثر من لقاء (ص ١٣١ - ١٣٤). وترى أن الموقف من الدين - كما سبق وأشرنا سلبى فسعيد مؤمن بالله - بلا شك - إلا أنه لا يؤدى الفرائض، كما أنه فيما يبدو غير مقتنع بحكم الله فى ثراء البعض وفقير البعض الآخر، ويبحث عن عدالة مثالية لا وجود لها على أرض الواقع. وربما كانت الأفكار التقدمية التى يزرعها روف فى رأسه قد جعلت يوقن أن الفقر ما هو إلا نتيجة استغلال الأغنياء لهم، فالأب قانع وسعيد رافض وهذا أحد أهم محاور تمرده

رابعاً : العلاقة بسلطة القانون : لعل مأساة سعيد - أيضاً - أن موقفه عدائى تجاه القانون، فهو يرى أن القانون ظالم ، وأن من يقومون بتطبيقه ظالمون وأنهم

وضع الكتب عند الشيخ على الجنيدى (الفصل الثانى) وفى المرات القليلة التى كان يذهب فيها إلى الشيخ كان يجلس نوما بجوار الكتب (ص ١٣١).

ولذا فإن العلاقة بهذه السلطة قد تبلورت فى اتجاه كراهية هذه السلطة بل ومحاربتها بأفكار معينة .

ثالثاً : العلاقة بالسلطة الدينية: يتضح من خلال الرواية «فقير» الاتجاه الدينى عند سعيد مهرا ن. فرغم أن والده كان «يحج» إلى هذا المكان، ويتبرك بالشيخ على الجنيدى إلا أن سعيداً كان تأثره بأفكار «رؤف علوان» التقدمية الثورية أكبر من الإيمان بالدين (حيث الرضى والقناعة والرضى بالقليل)، واتضح ذلك فى العديد من المحاور :-

الأول : أن سعيد مهرا ن أعلن للشيخ أكثر من مرة «أبى كان يفهمك أكثر منى» (ص ٢١) ويشير ذلك إلى فقدان لغة التواصل والتفاعل بل والحوار مع الآخر، ذلك الآخر الذى يشير إلى الذات ويشكلها.

الثانى : أنه لم يذهب إلى الشيخ عقب خروجه من السجن بسبب حاجته إلى الدين أو جريمة إيمانية وإنما فقط كان يريد المناوئ «كان أبى يقصدك عند الكرب، وجدت نفسى ..... فقاطعه (الشيخ) بهدوء لا يخرج عنه: أنت تريد بيتا ليس إلا» (ص ٢١). ويشير ذلك إلى سطحية العلاقة بالدين .

فائدة من المقاومة سلم وأعدك بأنك ستعامل بإنسانية» إلا أنه سخر من ذلك قائلاً: كإنسانية روف ونبوية وعليش والكلاب! (ص ١٣٩)، وظل يقاوم حتى نفذت ذخيرته ولقى حتفه. كما استخدم ميكانيزم «التوحد بالمعتدى» حين طلب من نور أن تحضر له قماش بدلة ضابط، وقام هو «بالحياكة». وارتداها رغم الحصار، وذهب لكي يقتل روف علوان، كما أنه حين فاجأه مضبران في الصحراء وكان يرتدي نفس البدلة «وخشى أن يفلت الزمام منه بقوة (أى أن يشكا فيه) فبقوة لا تعرف التردد وجه قبضتيه معا إلى بطني الرجلين فترنحا وقبل أن يتمالكا نفسيهما أنهالا عليهما لكما في مواطن الضعف... حتى سقطا مغشياً عليهما (ص ١٢٦).

أما موقفه من المخبر حسب الله فقد حاول «مداهنته» في أكثر من واقعة خاصة الفصل الأول من ص ١ : ١٧)، كما أطلق على الشرطة في أكثر من مناسبة كلمات مثل: الأوغاد الكلاب.

سادساً : العلاقة بالسلطة بشكل عام: موقف سعيد مهران هو موقف عدائي، حيث نصب نفسه حاكماً وقاضياً وولاداً لاقامة العدل والقانون في الأرض، وهذه مأساة سعيد مهران، والذي ظل منذ المنظر الأول في الرواية حتى آخرها وهو يركض تجاه نهايته المحتومة مؤكداً قول هيجل الشهير: «إنك بقتلك الآخر إنما نفسك تقتل»

ينحازون في أحكامهم تبعاً لمكانة الشخص، وأنهم يتركبون اللصوص الحقيقيين، ويطبقون القانون على «الفقراء والمهمشين»، علماً بأن مثل هذه الاتجاهات قد توصل إليها الباحث الحالي في دراسته عن ديناميات صورة السلطة لدى المسجونين، بل ذهبوا إلى أن مسألة القبض عليهم من رجال الشرطة ثم تطبيق القانون عليهم هو من قبيل سوء الحظ، بدليل أن هناك العديد من اللصوص من الذين يسرقون أكثر متهم ورغم ذلك لم يتم القبض عليهم، وهذا ما جعل سعيد مهران يردده لنفسه أكثر من مرة. فلولاً خيانة زوجته وصديقه ما استطاع الجن نفسه أن يلقى القبض عليه.

وقد استطاع نجيب محفوظ بحذسه الواحي أن يعبر عن ذلك في الفصل (١٥) حين جعل سعيد مهران يهلوس لنفسه بأن يدافع عن نفسه أمام المستشارين، إلا أنه وقبل أن يمضى في دفاعه أكد انفسه (..ولكن كيف تطمئن على قضايتك وبينك وبينهم خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام؟ إنهم أقرباء للوعد (يقصد روف علوان) ويفصل بينك وبينهم قرن من الزمان (ص ١٢٠).

خامساً : العلاقة بسلطة الشرطة : علاقة عدائية. وقد برزت بجلاء في الفصل الأخير (١٨) حين رفض الاستسلام لهم وقضل أن يستمر في إطلاق الرصاص باتجاههم أو حين هتف صوت الشرطي في ظفر : سلم لا

التساؤل الثاني : ما هي العوامل التي تفاعلت وتشابكت وقادت إلى هذه الصورة العدائية للسلطة ؟

تشابكت مجموعة من الأحداث والمواقف وقادت إلى الصورة العدائية للسلطة. فقد كان الابن الوحيد لوالدين كهلين انشغلا بالبحث عن لقمة الخبز. والاب راض وقانع وكذا الأم، وحرص الأب على أن يلقنه درس الدين، ولكن الواقع كان أقسى وأمر حين مات الوالد، ومرضت الأم وتم طردهما من مستشفى خاص فاضطر أن يسرق، ولذا فقد قام والده الفكري - في مقابل الوالد البيولوجي ، روف علوان بتحريضه على السرقة، وأن الفقر الذي نعانى منه ما هو إلا رد فعل لسرقة الأغنياء لنا، ولذلك عاش في صراع تمثل في مستويين :-

الأول : القناعة كما يمثلها الأب البيولوجي (عم مهران الكهل الطيب بواب العمارة)، ويشبتهما الشيخ على الجنيدي خلاصا في الدين

الثاني : قسوة الواقع وثراء البعض وفقر الأغلبية مع دعوة للتحرير والسرقه كما يمثلها رمزه الأعلى (روف علوان)

ولذا فإن سعيد مهران احترف اللصوصية (حيث تتفق مع أفكاره أو

تتعارض مع الرضى بالقليل، ومثل له روف الجانب الفكري في حين مثلت له نبوية زوجه وصديقه وأدواته التي كان يستخدمها لتحقيق السرقات . وإذا كان جانبه العقلي - أو أن شئت الدقة قل أتباعه ومريده قد خانوه ووشوا به إلى السلطة، فإنه ظل يبحث عن جانبه الفكري المتمثل في روف علوان، ولذا فقد عاش سعيد مهران انفصالا بين الفكر فكر الآخر، والفعل (حيث يقوم هو بالفعل). مما جعله - بعد الخيانة - يضع روف علوان في جانب ضحايا السلطة والكلاب والممثل لهم، وسعيد في جانب السلطة والاستغلال، ولذا فقد أخذ على عاتقه المحدود الإمكانيات مواجهة الظلم وقوة بطش السلطة الفاشمة. وقد قاده ذلك إلى مجموعة من «التخططات غير المحسوبة التي قادته في النهاية إلى أن يلقى حتفه، رافضه كافة المحاولات التي من خلالها يستطيع أن يتصالح مع نفسه ثم مع السلطة التي يخضع لأوامرها حتى وأن رفض ذلك على المستوى الشعوري والشخصي

ثالثا: شخصية سعيد مهران بين السواء وعدم السواء؟

يذهب أحمد خيرى حافظ إلى أن سعيد مهران ليس سيكوياتياً ، بل مأساته أنه كان يحيا في مجتمع مضطرب، وقد حاول

ارتد الفرد كغير التابع بالمبادئ (١)  
٢- من محكات السواء أن يكون الإنسان واقعياً، أى يتعامل مع الواقع كيفما تقتضى الضرورة بيد أن سعيد مهران، يلوى عنق الأشياء، ويرفض التعامل مع الحاضر ويقحم الماضي عليه. وهذه مأساته. فلم يعد يرى عيش سدره (صديقه وتابعه القديم) إلا ذلك الخادم الذى يتمسح به، ولم يعد يرى زوجه إلا خائنه قد نبقت فى أرض الوحل والخيانة، ولم يعد يرى رؤوف إلا ذلك الطالب نو الملابس الرثة والأفكار التى تحرض على السرقة.

٣- من محكات السواء النفسى أن يطور الإنسان نفسه، وهذا ما يفتقد إليه سعيد مهران، وقد اتضح ذلك حين ذهب لزيارة رعوف علوان، وذكر له صراحة أنه قد تعلم مهنة الخياطة فى السجن (ص: ٣٩)، ورغم محاولات رعوف الصداقة أن يساعده فى الحاقه بأى عمل إلا أنه سخر قائلاً: لماذ لا أعمل محصراً معك فى الصحافة؟ وأصر على احتراف مهنة واحدة لا يجيد غيرها ألا وهى: التصويرية (ص: ٣٥). ولذا فقد صدم فى رعوف علوان حين وجده يتبرأ من الماضي (ص: ٣٥) بل حين نصحه رعوف علوان بضرورة نسيان الماضي والبحث عن عمل شريف إلا أن سعيد مهران سخر منه

اصلاح هذا الاضطراب فجعل، أو بمعنى آخر - كما يقول خيرى حافظ «سعيد صرخة الاحتجاج المدوية فى عالم الظلام والفساد والخيانة (ص: ١٥٦).

ولكننا نختلف حول الرأى السابق، فبغض النظر عن «تصنيف» سعيد مهران فى فئة إكلينيكية ما، إلا أن معيار السواء وعدم السواء تحتّم علينا إقرار حقيقة أن سعيد مهران كان مضطرباً وغير سوى لعدة أسباب: -

١- من محكات السواء أن يكون الإنسان مرناً ومن الواضح أن سعيد مهران قد اعتنق أفكاراً واتجاهات معينة ورفض التخلّى عنها ( رغم تغير الظروف)، بل ذهب إلى أبعد من ذلك واعتبر من يخالفه، أو يخالفه فى الرأى خائناً لدرجة أنه وصف «رعوف علوان» بخالفه الذى ارتد (ص: ٣٧)، ولذا فإن تكرار كلمة «خيانة ومشتقاتها» قد تكررت كثيراً فى الفصل الأول مثلاً (٧) مرات وفى الفصل الثانى (٥) مرات، والفصل الثالث (٤) مرات، والفصل الرابع (٥) مرات وهكذا فى باقى الفصول، ولذا فإن الشخصية السوية تستطيع أن تتجاوز خيانة مثل خيانة رؤوف لأنه من المفروض إذا كان الشخص يؤمن بمبادئ قد اعتنقها لا كفره هو رمز وتجسيد لهذه المبادئ، بحيث إذا



قائلاً: «ما أجمل أن ننصحن الأغنياء بالفقر...!» (ص ٣٦)

القانون لأنهم من وجهة نظره «منحازون» إلى اللصوص الحقيقيين، ويرى أن كل ثرى يسكن قصراً ما هو إلا لص يجب الانتقام منه، كما أن الحوارات الفلسفية التي دارت بينه وبين الشيخ على الجنيدي (رمز الجانب الدينى والقناعة والرضى بالقليل والتعلق بالمثل العليا). قد أفصحت عن مأساة سعيد مهران وأنه يركض وراء سراب، وقد أفصح عن ذلك للشيخ قائلاً: «هل تستطيع أن تقيم ظل شيء معوج؟ فقال الشيخ بركة: - أنا لا أهتم بالظلال» (ص ١٣٢) إشارة إلى أن مهمة سعيد هي إقامة العدل في الأرض وهو لا شك فوق إمكانياته كخضص .

٦ - من محكات السواء النفسى أن يقيم الإنسان توازناً بين الماضى والحاضر والمستقبل لكن يتضح أن سعيد مهران «يطلقى لديه جانب الماضى ، ويفتقد كذلك إلى التعايش مع الحاضر وكذا المستقبل ، ورغم أن ابنته «سناء» وكذا المرأة التى أحببته بإخلاص من قبل (نور) يمكن أن يكونا من دعائم ربطة بالحاضر والمستقبل إلا أنه ضيع كل هذا، ولم تشغل غير فكرة واحدة وهى : الانتقام من الخونة والكلاب والأوغاد من وجهة نظره وإقامة العدل المعتقد على الأرض، وقد استغل (نور) فى إحضار السيارة وبدلة الضابط وكان بين كل جريمة

٤ - من محكات السواء النفسى أن يكون للإنسان هدف نبيل يسعى إليه. وسعيد مهران لم يكن لديه هدف سوى الانتقام من الأوغاد والكلاب، وقد عبر عن هدفه قائلاً: قمة النجاح أن يقتلا معا، نبوية وعليش، وما فوق ذلك يصلى الحساب مع روفى علوان ثم الهرب ، الهرب إلى الخارج إن أمكن» (ص ٥٩). ونحن بدورنا نتساءل : هل قتل نبوية وعليش وروفى وحتى مئات غيرهم ، هل ذلك القتل سيحل العدالة فى الأرض؟ وما الهدف من الانتقام ، إن سعيد مهران ليس كما يصفه أحمد خيرى حافظ بأنه متمرد (ص ١٥٥)، وإنما هو إنسان يتخبط فى جنبات الاضطراب ، ويتحرك بلا هدف ، وإذا فإن نجيب محفوظ بحدسه الباهر قد جعله فى غمرة انتقامه ينتقم من آخرين لا علاقة لهم بالذين خانوه.

٥ - من محكات السواء النفسى أن تكون الأهداف التى يحددها الشخص له على قدر إمكانياته، لكن سعيد مهران يريد أن «يرسى دعائم العدل فى الأرض»، ويظن - إلى درجة الاعتقاد واليقين - أنه نصير الملايين من ضحايا الكلاب والمستغلين وإذا فإنه يشكك فى نزاهة القانون، ومن يطبقون

المجلد الأول، العدد الثانى ، يوليو ١٩٥٨،  
القاهرة

٥ - سميرة شحات : العلاقة بين تصور  
الذات وتصور البيئة لدى الجانحات، رسالة  
دكتوراه غير منشورة كلية البنات ، جامعة  
عين شمس ، ١٩٨٠ القاهرة.

٦ - سعد محمد شاهين : مدخل فى علم  
الاجتماع والقانون، الناشر غير مبين ،  
١٩٨٥، القاهرة.

٧ - سمير محمد حسن : تحليل المضمون  
، عالم الكتب ، ١٩٨٣، القاهرة.

٨ - شكرى عبد العظيم : السجن -  
دراسة فى دينامية الجماعة ، ماجستير غير  
منشورة ، آداب عين شمس ، ١٩٨٤،  
القاهرة.

٩ - عبد المنعم الحفنى : موسوعة علم  
النفس والتحليل النفسى، مكتبة مدبولى ،  
١٩٧٥، القاهرة.

١٠ - عبد الرحمن أبو عوف : الرؤية  
المتغيرة فى روايات نجيب محفوظ - سلسلة  
دراسات أدبية ، الهيئة المصرية العامة  
للكتاب ، ١٩٩١، القاهرة .

١١ - عبد الله عسكر : غياب الأب  
الرمزى - دراسة فى التحليل النفسى لرواية

وأخرى يخطط لجرعة ثانية حتى ينست منه  
واختفت إلى الأبد من حياته لأنها أمنت أن  
الماضى هو قيد سعيد ومأساته أنه لا يتعامل  
أبدا الا مع الواقع ولا مع أى بصيص من  
الأمل مع المستقبل.

وهذه حقا مأساة سعيد مهران ،  
وعبقرية سبر أغوار النفس الإنسانية. وهذا  
ما جعلنا - رغم كل ما سبق - متعلقين  
ومشفقين بل ومنحازين إلى شخص سعيد  
مهران .

المراجع :

١ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية  
والجنائية : الاستجابات الإدراكية للأحداث  
المنحرفين - بحث تجريبى ، «١٩٦٥» القاهرة

٢ - أحمد خيرى حافظ : سيكولوجية  
الأخر عند نجيب محفوظ - دراسة تحليلية  
لرواية : اللص والكلاب. فى كتاب : دراسات  
نفسية عربية ١٩٨٥، غير مبين الناشر  
القاهرة.

٣ - أحمد فائق : الأمراض النفسية -  
دراسة فى اضطراب علاقة الفرد بالمجتمع،  
دار أتون للطباعة والنشر، ١٩٨٢، القاهرة.

٤ - أحمد عزت راجح : سيكولوجية  
المجرم العائد ، المجلة الجنائية القومية،

- ١٨ - لطيفة الزيات : نجيب محفوظ -  
الصورة والمثال ، مقالات نقدية ، كتاب  
الأهالي ، رقم ٢٢ ، ١٩٨٩ ، القاهرة .
- ١٩ - مصرى حنورة : مربع العبقورية فى  
مسيرة نجيب محفوظ الإبداعية ، محاضرات  
الموسم الثقافى الأول لرابطة الأخصائيين  
النفسيين ، ١٩٩٠ ، القاهرة
- ٢٠ - محمد عاطف غيث : قاموس علم  
الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،  
١٩٧٧ ، القاهرة .
- ٢١ - مجدة أحمد محمود : الشخصية  
بين الفردية والانتماء - دراسة فى  
سيكولوجية العلاقة بين الفرد والمجتمع ،  
دكتوراه غير منشورة ، آداب عين شمس ،  
١٩٨٥ ، القاهرة .
- ٢٢ - مجدة حسن محمود ، وهمدى  
أحمد المكاوى : خصائص مرتكبي السلوك  
الاجرامى ، مجلة علم النفس العدد ٩ ، الهيئة  
المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، القاهرة .
- ٢٣ - مكرم شاكر اسكندر : أدباء  
منتحرون - دراسة نفسية ، دار الراتب  
الجامعية ، ١٩٩٢ ، بيروت ، لبنان .
- ٢٤ - محمد مندور : الأدب ومذاهبه ، دار  
نهضة مصر للطباعة والنشر غير مبين سنة  
النشر ، القاهرة
- « الطريق » لنجيب محفوظ ط٢ ، ١٩٩٧ ،  
الأنجلو ، القاهرة .
- ١٢ - عبد الله عسكر : الصدام  
الإيديولوجى وهوية الذات - دراسة فى  
التحليل النفسى المضمون رواية «قلب الليل»  
لنجيب محفوظ ١٩٩٤ ، الأنجلو ، القاهرة .
- ١٣ - عادل صادق : دراسة نفسية  
وعصبية للقتلة المصريين ، دكتوراه غير  
منشورة ، كلية الطب ، جامعة عين شمس ،  
١٩٧١ ، القاهرة .
- ١٤ - فرج أحمد فرج : التحليل النفسى  
والأدب - دراسة فى تحليل المحتوى لقصة  
يائيل ديان «طوبى للخائفين» غير مبين مكان  
ولا سنة النشر ، القاهرة .
- ١٥ - قدرى حفى : الأسرائيليون من  
هم ؟ دراسة نفسية ، ١٩٨٨ ، مكتبة مدبولي ،  
القاهرة
- ١٦ - كمال جندى أبو السعد : انحراف  
الأحداث الجناح ، بحث فى ضوء التحليل  
النفسى وعلم النفس الإكلينيكي ، دار  
المعارف ، ١٩٧١ ، القاهرة .
- ١٧ - كابتاس لوى : النقد الأدبى  
والعلوم الإنسانية ، ١٩٨٢ ، دار الفكر ،  
سوريا .

- 32 - Barclay, KL Gallemar. J : ٢٥ - محمود فوزى : اعترافات نجيب محفوظ ، دار الشعب العربى، غير مبين سنة النشر، القاهرة .
- 33 - Freud, s : the Future of an illusion , standard edition of. s. Freud . The Hogrth pressl the institute of psy choanalysis, london, 1974. ٢٦ - محمد حسن غانم : ديناميات صورة السلطة لدى المسجونين - دراسة نفسية مقارنة ، ماجستير غير منشورة ، آداب عين شمس ، ١٩٩٠ ، القاهرة.
- 34 - Jan - Mar : Deviant Behaviour, 1983. Ponderins pande-rins, voly (2) . U. N. A. ٢٧ - نجيب بكير : آدم وحواء والقانون والإنسانية ، مكتبة عين شمس ، غير مبين سنة النشر ، القاهرة .
- 35 - Herbert. A.Blochand Gi-vert: Man crim and Socity the farma of criminal behaviour gan-don hanrepublishing, New york , 1962. A . S . A. ٢٨ - نجيب محفوظ : رواية اللص والكلاب، غير مبين سنة النشر دار مصر للطباعة ، القاهرة .
- 36 - Robert Marton : Social theary and social Sturncture , 1957, New yark , U. S . A . ٢٩ - نادية سالم : إشكاليات استخدام تحليل المضمون فى العلوم الاجتماعية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، عدد ٢٣ سبتمبر ١٩٨٣ ، الكويت .
- ٣٠ - هوراس . ب . إنجلش : علم نفس الطفل فى كتاب : ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية، المجلد الأول، ترجمة السيد محمد خيرى، إشراف : يوسف مراد، ط٤، دار المعارف ، ١٩٧٥، القاهرة .
- ٣١ - يحيى الرخاوى : قراءات فى نجيب محفوظ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، القاهرة.

## الغزو الثقافي والتحديات الحضارية رؤية نقدية

د. سامية الساعاتي \*

« العياية العياري ما تدفي وإن دعت ما تدوم،

« مثل شعبي مصري، (١)



« إن الجيل الحالي من علماء الاجتماع في الشرق الأوسط يجدون أنفسهم في موقف يستوردون فيه أدوات تم تشكيلها وتطورها لتناسب حاجات فترة الانتقال في الثقافة الأوروبية في القرن التاسع عشر، (٢).  
يمكن أن نختار لنقطة البداية في أي بحث يتعلق بقضية كقضية الغزو الثقافي واحدا من مستويين :

(١) المستوى الوضعي التقليدي: المعمول به في العلوم الاجتماعية والإنسانية الغربية المعاصرة، أي أن نبدأ بالتسليم بأن عملية الغزو الثقافي هي في آن واحد ظاهرة طبيعية، لا مفر منها، من ناحية، ومن ناحية أخرى ظاهرة لا بد وأن تتبدى بشكل أكثر حدة في مجتمعات آسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية في عصرنا.

(٢) المستوى النقدي: أي أن نتساءل عن الجذور التاريخية لظهور فكرة الغزو الثقافي. وكذلك ارتباط هذه الفكرة ببيان الفلسفة الاجتماعية السائدة في مجتمعات الغرب، ثم دراسة كيفية انتقال هذا الجو الفكري إلى مجتمعاتنا.

\* أستاذ ورئيس قسم الاجتماع بكلية البنات - جامعة عين شمس .

(١) العياية المستعارة لا تدفي، وإن أدلت فإن دفتها غير دائم .

(٢) عبد القادر زنگل، المدارس الفكرية العربية والهياكل الاجتماعية في الشرق الأوسط «المستقبل العربي»،

العدد ٢٤ العدد ٢٧ مارس آذار ١٩٨٢ ص ٧ .

(١) أن ظاهرة التخلف الثقافي في مجتمعاتنا العربية تمثل في المحل الأول الوجه السالب لعملية جدلية تركيبية شاملة، تمثل فيها مجموعة المجتمعات النامية في الغرب العنصر الإيجابي .

(٢) أن للتقدم صورة وحيدة وفضلى هي التي تتمثل في ثقافة الغرب الرأسمالي، وبالتالي فإن أرقى درجات الحضارة البشرية هي حضارة الغرب. وما زال هذا التمرکز الأوروبي حول الذات -Europeo centrism يحكم تصرفات القوم حتى الآن، ويجد لنفسه الشاهد الأخير في الابتكارات التكنولوجية المذهلة ( بغض النظر عن جنواها الحقيقية وأثارها السلبية).

(٣) أن للتقدم مساراً فريداً يتعين على كل الشعوب أن تسلكه، وأن تمر بالبواب الضيق الذي اجتازته الثقافة الغربية، فالتخلف Underdevelopement ليس إلا مجرد تأخر Backwardness. وكان الأمم جميعاً قد وقفت يوماً على خط البدء من ميدان سباق وأخذت تصعد حين دقت إشارة البدء فقطع بعضها الشوط بأكملها. وتعثرت البعض في منتصفه، في حين لم يتجاوز جهد البعض الثالث إذ إنها تسلم بإمكان وصول كل الأمم إلى ما وصلت إليه

فإذا كان الهدف هو مسايرة تجارب مجتمعات أخرى فحسب، على اعتذار أن مجتمعاتنا لا يمكن أن تهدف إلى أبعد من تقليد الغير، فيكون الموقف الأول هو المطلوب، بكل ما يترتب عليه من نتائج واختيارات أو قرارات تنفيذية.... الخ.

أما إذا كان الهدف هو تحقيق نهضة حضارية شاملة لمجتمعات أمتنا العربية، كما حدث أو ما زال يحدث في عدد من أهم الشرق المعاصر، فإنه يصبح إلزاماً علينا أن نختار الموقف الثاني النقدي. وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الموقف النقدي لاتمليه علينا فقط احتياجات تحركتنا القومي، بل إنه في الوقت ذاته يمثل في الأساس الموقف العلمي المنهجي الأصيل، فالموقف العلمي يختلف اختلافاً جذرياً عن السلفية الفكرية وعن مجرد النقل والتقليد، وإنما هو يهدف دائماً إلى الإبداع ابتداءً من التسيج الموضوعي للمجتمع، أخذاً في الاعتبار خصوصته الثقافية.

مسلمات الغزو الثقافي:

يستطيع المرء أن يستقره وراء ظاهرة الغزو الثقافي في المجتمعات العربية خطأ فكرياً يجمع بين عدد مجنود من المسلمات التي يندر أن تصاغ صراحة:

السبل وغالبوا شعورهم القومي، والوطنى، وهكذا تظل شعورينا تجرى وراء سراب لن تلحق به.

والغرب حين يمدنا بالعون يوصينا بالصبر وتحمل الآلام والمعاناة كما تحملت شعوبه ومجتمعاته فى العقود الأولى التى تلت الثورة الصناعية. وليس عجبا أن يكون ذلك مسلك الغرب. فغاية الكرم أن يعطى المرء مما عنده النذر اليسير أو القدر الكبير. ولكن العجب أن يسلم باحثونا ومفكرونا بنظرية المسار الفريد للثقافة بأن يرضوا لأنفسهم وشعوبهم بهدف القدرة على المحاكاة وهى فضيلة القرد، متخلين عن القدرة على الإبداع وهى فضيلة الإنسان.

(٤) أن هذا المسار يمكن اختصار أمد سلوكه بالتركيز مباشرة على اكتساب ثمراته المادية أخذاً عن الغرب.

وهذا الاختصار مبني على اختزال ظاهرة التغير الاجتماعى فى الغرب لردّها إلى أمر واحد هو الآلة وما يتصل بها من تكنولوجيا وما تؤول إليه من إنتاج مادية متزايدة واستهلاك مادية لا تهدأ له شهوة. وفى ضوء هذا الفهم يكون الخلط بين الثقافة

أمم الغرب، ولكن طبيعتها الحقيقية تظهر إذا ما تساطنا: ولماذا تأخرت أمم كثيرة؟ عندئذ يسوق البعض على استحياء أو بدون حياء تفسيرات لا تستند إلى أساس: تفسيرات جغرافية ( مثل القول بأن ظروف البلاد الحارة تؤثر الكسل، وكأن تلك البلاد لم تكن بالدقة موطن الحضارات الأصيل)، أو دينية ( مثل الزعم بأن الإسلام يعلم التواكل، وكأن الحضارة العربية الإسلامية لم تكن من أزهى حضارات التاريخ)، أو قيمة ( كالقول بأن بعض القيم الثقافية تقتل الحافز الفردى، وكأن الثقافة مستحيلة بدون فردية متورمة) على أن الزعم بالمسار الفريد، يناهى التاريخ، وينكر قدرات البشر. فقديمًا ازدهرت حضارة مصر، وحضارة الصين فى خطوط متوازية ومختلفة دون صلة بين البلدين(١)

وهذا الزعم بعد كل ذلك وقبله، يفرض على مجتمعاتنا أن تركز كل جهودها على محاكاة الغرب، والنقل فيه، والاعتماد على خبرته وعلمه وروؤس أسواله. وبهذا تتأكد تبعيتها له، وتقل أبواب الإبداع، ويلجأ القادرون عليه إلى الغرب، ما تيسرت لهم

(١) للمزيد عن مفهومى الثقافة والحضارة :

انظر: سامية حسن الساعاتى، الثقافة والشخصية، بحث فى علم الاجتماع الثقافى، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨٣ ط ٢، وأيضا مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٨٢ ط ١

الثقافية. ولكن الجهود المبذولة لا تصفى الفقر والامية والمرض. ولا تحرر كل الطاقات الكامنة لدى الجماهير ولا تقطع حبال التبعية الخارجية.

التحديات الحضارية المعاصرة (٢): دروس مستفادة :

ليس القصد مما سبق طرح تجربة التطور الثقافي في الغرب جانبا، والامتناع عن التماس دروس منها، وإنما بيان أن الفائدة تتحقق بتحليل عوامل التطور الثقافي، وفهم أبعادها الحقيقية، والبحث عما يقابلها في المجتمعات الأخرى، وليس نقل نتائج التطور نقلا أعمى .

ويمكن أن نلقى الضوء بعد هذا العرض السريع للموضوع، على التحديات الحضارية المعاصرة، والمترتبة بالدراس التي استفادوها من التجربة الغربية .

أولا : الفرد الثقافي عملية تغرب جنورها في كل جوانب الحياة وتفضى إلى مولد ثقافة جديدة، أو مرحلة جديدة من

في شمولها وبين مظاهرها المادية (الحضارة)، ويكون الظن بأن الحصول على هذه الأخيرة وحدها هو الثقافة بعينها.

وقد ساءت هذه النظرة بعض المجتمعات العربية إلى الظن بأن التزوين بالزنى الأوروبي، والكتابة بالحروف اللاتينية، ونقل النظم والقوانين الأوروبية تكفى في ذاتها لتحويل البلد إلى ( قطعة من أوروبا)، اعتقدت بعض مجتمعات عربية أخرى حبثها الطبيعة بمادة أولية مرتفعة الثمن ومصدر طاقة تشتد عليه طلب البلدان الصناعية أنهم يبيع هذه الموارد النافذة وإقامة المباني الأوروبية، واستهلاك السلع الحديثة، وإقامة بعض المصانع، يقتربون من مستوى حضارة الغرب (١) المنشود.

وأخيرا تناضل بعض النظم العربية من أجل تعبئة الجهود الوطنية والاستعانة بما تيسر من موارد خارجية لإنجاز تصنيع سريع يدخل بشعوبهم عصر التكنولوجيا الحديثة، ومواكب الكمبيوتر، ثقة منهم بأن هذا هو في ذاته التقدم الثقافي والتنمية

(١) يقصد بالغرب في هذه الدراسة أوروبا وامتداداتها الثقافية. وبغض النظر عن النظام الاجتماعي والاقتصادي فإن دول أوروبا الاشتراكية تعد جزءا من الثقافة الأوروبية بالمعنى الواسع. وقادة الفكر الاشتراكي لم يزعوا أبدا دفن التراث بكل ما يحتوي، بل أكنوا دائما أنهم رثة كل ما هو إيجابى فيه ومحروبه ومكروه.

(٢) مفهوم المعاصرة : نعني به السمات الثقافية بعناصرها المادية وغير المادية التي يتميز بها مجتمع من المجتمعات في فترة معينة من الزمن تكون، بالضرورة، الفترة الحاضرة.

انظر سيد عويس حديث عن الثقافة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠ .



شباب ثقافة عريقة تضم حضارة عريقة بالطبع، هو جهد يفوق طاقات أى مجتمع عربى منفرد وإنما هو ظاهرة «قارية» من حيث الاتساع الجغرافى أو الإسهام البشرى. وهذا ما يؤكد تاريخ أوروبا، فقد أسهمت شعوب القارة جميعا، وامتدادها الثقافى فى أمريكا الشمالية بالفكر والممارسة.

خامساً : المحتوى التقنى الاقتصادى للحضارة الغربية والذى يبهز الناس، ذلك هو الجزء المادى من الثقافة الأوربية، لم يكن متصورا بدون استيلاء الأوروبيين على موارد الشعوب الأخرى: الموارد الأرضية (أمريكا الشمالية وأستراليا...) والموارد البشرية (الرقائق الأفريقى والعمل فى المناجم والمزارع فى المستعمرات)، والطبيعة (المواد الأولية والطاقة). أما الثورة الصناعية فى ذاتها فلا يكتفى بها لتفسير كل شئ. كذلك لا يحل التصنيع بذاته كل المعضلات.

#### الخلاصة :

خلاصة القول بالنسبة لقضية الفن والثقافى وعلاقتها بالتحديات الحضارية المعاصرة، أن التنمية الثقافية، تعنى فى حالة العرب، حركة إحياء ثقافى للمجتمعات

مرآجل التغير والتطور الثقافى، بكل ما يميزها من قيم، وعادات، وسلوك، وأساليب إنتاج، وأوضاع اجتماعية، ونظم سياسية، وتقدم علمى، وتجدد أدبى، وفنى .

ثانياً : للثقافة شقان : شق فكرى وآخر مادى، وكل منهما يغذى الآخر ويقوى حركته. فمناهج العلم ومكتشفاته خلقت جواً مواتياً للاختراع، ولكن تحويل الاختراعات إلى أدوات إنتاج تفهمه ضروريات اقتصادية وقوى اجتماعية ذات مصلحة قوية ، كذلك استمرار البحث العلمى التطبيقى مرتبط بتطوير الإنتاج، الخ .

ثالثاً: التنمية الثقافية لا تستعار، وإنما هى فى الأساس عملية إبداع، فأوروبا قد درست علوم العرب وفلسفتهم وأحييت تراث الإغريق والرومان، مركزة الأضواء على جوانبه التى تساند تطلعات التطور. ثم تجاوزت هذا كله بإبداع مستمر فى كل محاولات الفكر والسياسة. وقبلها. فعل أسلافنا العرب، فقد أخذوا عن اليونان والرومان والهند ومصر والشام والعراق، وفارس. ولكنهم تجاوزوا ما أخذوا إلى إبداع ثقافة جديدة زاهية بقدر ما هى أصيلة .

رابعاً : مولد ثقافة جديدة، أو تجديد

العربية شأنها في ذلك شأن معظم البلدان النامية، موثقة بشبكة كثيفة من العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية التي تربطها بالدول الرأسمالية المتقدمة. ومن ثم فلا يمكن الحديث عن التنمية الثقافية والتكامل الثقافي أو الوحدة الثقافية بين الأقطار العربية إلا بعد تحديد واضح لموقع العرب من عالم اليوم.

فالسيطرة الغربية على سوق رأس المال تقسر حقيقة مرة وهي أن أقساط خدمة الدين الخارجي وعوائد الاستثمار الأجنبي وفروق أسعار المواد الأولية تجعل الدول النامية تحول إلى الدول الصناعية من الأموال أكثر بكثير مما تتلقى منها. وأخيرا هناك الفزوة الثقافي والسيطرة الثقافية التي يمارسها الغرب من خلال نظم التعليم والإعلام والاتصال، فالتعليم الحديث منتشر في المدن الصناعية في حين مازالت غالبية الأقطار العربية تعاني من الأمية، والمتعلمون عندنا تلقوا العلم في مدارس الغرب أو في مدارس وجامعات تقلد النمط الغربي للتعليم في عزلة تامة عن ثقافاتنا، وتاريخنا،

العربية، ترد للمجتمع العربي قدرته على التجديد ذاتيا، وتفتح أمامه سبل الإبداع، ولا يتأتى هذا إلا بتحرير العقل العربي من السلفية المتحجرة التي ترفض الاجتهاد والتجديد.

كذلك يجب الاهتمام بتحرير العقل العربي كذلك من التبعية لكل أو معظم ما تتعلم من الدول الصناعية المتقدمة.

وتحرير الموارد العربية من صنوف السيطرة الخارجية والاستئثار الداخلي. وبهذا، وليس بإقل منه، يمكننا أن نصل إلى إسهام جديد في الثقافة البشرية يأخذ عن الفير، ولكنه لا يكتفى بمساكاتهم، ويبني على أفضل ما في التراث دون انفلاق عليه، أو انكفاء على الماضي، ويتدبّر تقسيم مجتمعات حديثة بكل معاني المداثة لها ثقافتها الحديثة، لكنها بالضرورة مختلفة عن المجتمع الغربي وثقافته (١).

ولكن هذه المقاصد السامية التي يجب أن نقصدها تصطبغ بالضرورة مع واقع أن العرب لا يعيشون في فراغ، أحرارا في اتخاذ ما يرون من قرارات، فالأقطار

(١) انظر اسماعيل صبري عبد الله، العرب بين التنمية القطرية والتنمية القومية، المستقبل العربي، العدد ٩، السنة ١٩٧٨.

وانظر غالي شكرى، الشخصية الثقافية في عالم متغير، المستقبل العربي، عدد ١٢، ١٩٨٦.

وقمينا.

مكانها في فلكه وتدور حوله.

وتبلغ المسألة قممتها حين تهدر اللغة القومية (العربية) وتسود لغة أجنبية التعليم والبحث العلمي والعمل الحكومي.. بل والمعاملات العادية بين الناس.. ومحصلة ذلك كله هو انهيار الفئات العليا والمتعلمة في مجتمعاتنا بالثقافة الغربية. وحرصها الشديد على تقليد الغرب في كل شيء، واعتقادها الجازم بأن طريق التقدم الوحيد هو محاكاة الغرب. ومصادر الأخبار تحتكرها أربع وكالات أنباء غربية تختار ما تذيع، وما تحجب. والسينما والتلفزيون (لا سيما مع استخدام الأتمار الصناعية) تنقل القيم الثقافية، وأنماط السلوك، والصور الزاهية لحضارة الغرب حتى إلى الأميين في أقصى القرى من البلدان العربية.

وهكذا نرى أن المجتمعات العربية لا تواجه روابط اقتصادية غير متكافئة فحسب، فأمور الاقتصاد هنا لا تنفصل عن قضايا الثقافة والاجتماع، والسياسة. فنحن إزاء نظام للعلاقات الدولية له قلب يسيطر ويمارس الفعل داخل المجتمعات العربية، وهذا النظام يشبه الأوضاع الفلكية من حيث أن الجرم الأثقل وزنا يخضع حركة الأجرام الأخرى لحركته ويجذبها حتى تأخذ

وايس المطلوب من عالم الاجتماع الابتعاد عن العمل السياسي، بل إن المطلوب الابتعاد عن العمل السياسي، كبديل للأبحاث الاجتماعية الميدانية طويلة المدى، فالقيام بالأبحاث الميدانية الدقيقة التي تلتزم بوصف الواقع المعقد هي وحدها الكفيلة بإثراء النظرة السياسية، وجعلها قابلة لتغيير الواقع المرير في كل أوجه المجتمع العربي.

وعلى الباحثين الاجتماعيين العرب أن يعمموا ثقافتهم العربية والدولية حتى يتمكنوا من إجراء النقد اللازم حول المنهجيات التي يستخدمونها في أعمالهم، وبالتالي حتى يتمكنوا من تكتيف هذه المنهجيات تكييفاً جديداً وسليماً لمعطيات الواقع العربي، وهذا يتطلب جهداً فكرياً كبيراً. للتعمير عما فات الأبحاث الاجتماعية العربية منذ أكثر من ثلاثين عاماً، من القيام بالأبحاث المنهجية النقدية. وعليهم أن يحتاطوا في استخدام المقولات والنماذج الخاصة بالدول الغربية استخداماً ألياً، وأن يلتصقوا بالواقع المحلي من خلال نظر ثاقب يسمح بإدراك الواقع إدراكاً شاملاً وصحيحاً.

## تقنين مقترح لطريقة أداء الحليات فى العزف على آلة الناي

د. محمد أحمد عبد النبى \*



تعد آلة الناي من أهم آلات النفخ فى الموسيقى العربية التى لها دور فعال ومؤثر فى الحضارات المختلفة. وقد اهتم بها قدماء المصريين، وآلة الناي تظهر إمكانيات متعددة، فهي قادرة على أداء ألوان متنوعة من الألحان كما أنها تؤدى ألواناً مختلفة من الارتجال (التقاسيم) مما يجعلها متميزة فى أداء هذا اللون الذى يؤثر فى وجدان الشعوب.

فوق العلامات الموسيقية، يؤدى العازف مضيفاً إليها من روحه وإحساساته الأمر الذى يجعل عدم قراءة التدوين الموسيقى والاهتمام به - يؤثر فى أداء العازف لأشكال ومصطلحات التعبير المختلفة التى هى جزء أساسى مرتبط بالتدوين الموسيقى واللحن. يعنى تلك الفترة كانت الآلات الموسيقية المستخدمة والموجودة على الساحة الفنية هى - الناي - القانون - العود -

كان العازفون يعتمدون على السماع والتلقين فى أداء مختلف ألوان الموسيقى العربية. ولما عرف التدوين الموسيقى اعتمد عليه الملحنون والمؤلفون فى سرعة تنفيذ أعمالهم واعتبره بعض العازفين أنه معطل لإبداعه، وحاول البعض تعلمه، والاجتهاد فيه ولكن بوزن الاهتمام على المدى الطويل بأهمية التدوين الموسيقى وما يترتب على ذلك من وجود أشكال ومصطلحات ترسم

\* أستاذ مساعد بالمعهد العالى للموسيقى العربية - قسم الآلات (الناي).

والآلات الإيقاع. ولم تكن آلة الأودج وآلة الجيتار تشتركان مع باقي الآلات بشكل دائم .

واهتم عازفو الآلات الوترية بتعلم النوتة الموسيقية دون غيرها من عازفي الآلات العربية الأخرى والتي ذكرناها من قبل. ثم بعد ذلك تم إنشاء المعاهد والفرق الموسيقية المختلفة، وبدأ جيل من العازفين المهرة دراسة الموسيقى والآلات المختلفة في المعاهد الخاصة والحكومية، وتخرج جيل من العازفين والمغنين على دراية كاملة بأسس الموسيقى والغناء . وكما حدث في السابق أن الآلات الوترية كان لها النصيب الأكبر من الدراسة والتحصيل ذلك مرجعه وجود مناهج لهذه الآلات تتفق مع إمكانياتها دون الآلات العربية الأخرى . ونخص بالذكر هنا آلة الناي التي تهتم بحثنا والتي ظلت حتى الآن دون مناهج دراسية شاملة لأهم جوانب التقنيات الحديثة لأهم أساليب وطرق الأداء التعبيري، وكذلك المكونات الآلية والفنائية المناسبة لإيقاع وروح العصر .

مشكلة البحث ،

لاحظ الباحث من خلال عمله أستاذاً لآلة الناي بالمعهد العالي للموسيقى العربية أن الدارسين لآلة الناي اعتادوا أداء حليات

ابتكارية فورية عند أدائها لبعض المقطوعات الموسيقية بمجهود فردي خاص دون الرجوع لأصول وأسس قواعد أداء الحليات، الأمر الذي أدى إلى قصور في أهم جوانب الأداء التعبيري، ومن ثم أصبح هناك تباين واختلاف في الأداء الجماعي بين عازفي آلة الناي والآلات الأخرى في طريقة أداء الحليات والزخارف .

الهدف من البحث ،

تتبع وتحديد أسلوب الحليات لدارسي وعازفي آلة الناي للوصول إلى مستوى أفضل للأداء .

وتتبع أهمية هذا البحث من أهمية آلة الناي في الموسيقى العربية ومن محاولة التوصل إلى اكتساب الدارس والعازف المهارة الخاصة لأداء الحليات بالطرق المتعارف عليها عالمياً، وبذلك يكون البحث قد ساهم بالنذر اليسير في محاولة الوصول إلى مستوى أفضل لدارسي هذه الآلة .

الإطار النظري،

لعبت الحليات دوراً فعالاً في موسيقى الآلات ذات المفاتيح في القرن السادس عشر بعد أن كانت تزين وتزخرف الموسيقى الفغائية فقط في القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر. ويرجع تاريخ

العربية :

تلعب الحليات دوراً هاماً فى أداء الموسيقى العربية وقد أستخدامها المؤلفون والممثلون فى كثير من أعمالهم الأمر الذى أدى إلى وجوب الاهتمام بدراساتها والاستفادة منها :

وقد اختار الباحث بعض الحليات التى تناسب آلة الناي والمستخدمه فى الموسيقى العربية يوردها فيما يلى .

الحلية أو الزخرفة : Ornaments  
( ١ / ١٣٤ - ١٣٥ )

هى نغمات موسيقية تكتب على هيئة صغيرة أو إشارة خاصة تسبق النغمة الأساسية أو تليها ولا تحسب مدتها الزمنية من أزمته المازورة بل تأخذ مدتها الزمنية من مدة النغمة الأساسية التى يسبقها أو التى تليها ومنها :

التريل أو الزغردة : Le Trille

هى إشارة يرمز لها بالصرفين (Tr) ويتبعها خط متعرج ( )  
يوضاغان فوق النغمة الأساسية ويدلان على تكرار هذه النغمة التى تلوها بدرجة متصلة، ويؤديان فى سرعة كبيرة منتظمة. وتكرر هاتان النغمتان حتى تنتهى المدة الزمنية لهذه النغمة الأساسية كما فى

الحلية إلى القرن الثانى عشر، حيث انتقلت الموسيقى فى ذلك الوقت بحلياتها من أسبانيا حيث الحضارة العربية إلى أوروبا. وظلت الحلية من أهم العناصر فى تكوين الموسيقى ( ٩ / ٨٦١ ) وفى عصر الباروك والعصر الكلاسيكى ازدهرت الحليات واستخدمها المؤلفون فى الكثير من أعمالهم.

– حليات عصر الباروك : ( ٨ / ١٢١ - ١٢٤ ) :

الكادنزا : The Cadenza – الافتراز  
والذبذبة : Tremolo and Cibrato .

الغبراتا : Vibrato

– حليات العصر الكلاسيكى ( ٧ / ٣٧٢ - ٢٤٨ - ٢٥٠ ) .

التريل The Trill – الحلية الدائرية  
الاستدارة The turn

– الإيجياتيرا The Appoggiatura

– إتشيكاتوا The Acciacatura

– التألف المفكك The Arpeggio

– المورندت Mordente

– الزلخلة The Slide

– اليورتامنتو The Bortamento

– الحليات المستخدمة فى الموسيقى

نموذج رقم (١)



نموذج رقم (٢)

ب - المزجج :

هما نغمتان في زمن (الدبل كروش) تسبقان النغمة الأساسية وتبوان على هيئة صغيرة على ألا يكون إحدى هاتين النغمتين من نفس الطبقة الصوتية للنغمة الأساسية. وهاتان النغمتان تأخذان مدتهما الزمنية من زمن النغمة الأساسية التي تليهما أو تسبقهما وتؤديان بسرعة بالنسبة للنغمة الأساسية. كما في نموذج رقم (٣).



نموذج رقم (٣)

الجريتو: Le grupetto (١) / ١٢٦ -

(١٢٧)

هي مجموعة إما من ثلاث نغمات أو من

نموذج رقم (١)

- نغمات الارتكاز (الإتشيكاتوا) Acciacatura كما تسمى Appoggiature (١ / ١٣٢ - ١٣٣).

نغمة موسيقية أو أكثر تسبق النغمة الأساسية وتكتب على هيئة صغيرة وتأخذ هذه النغمة أو هذه النغمات مدتها الزمنية من بدء المدة الزمنية للنغمة الأساسية وتؤدي هذه النغمة أو النغمات في سرعة كبيرة وتؤدي عادة كما يؤدي (التريل كروش). ومنها .

أ - الفردي :

هو نغمة في زمن (الكروش) تسبق النغمة الأساسية ويقطعهما خط صغير ويدون على هيئة صغيرة . كما في نموذج رقم (٢).



نموذج رقم (٥) إيجاتيورا من أعلى



أربعة نغمات بدرجات متصلة تسبق النغمة الأساسية أو تليها على أن تكون نغمات المجموعة أعلى من النغمة الأساسية ونغمة أخرى أسفلها أو أن تبتدئ المجموعة بنغمة تكون من نفس الطبقة الصوتية للنغمة الأساسية كما في نموذج رقم (٤)

انزلاق - ترزلق : Glissando ( ٢ ) /

(١٨٧)

التدريب



الأداء

انزلاق (زحلقة) الإصبع بسرعة كبيرة على أوتار الآلات القوسية يسميها الإيطاليون بصفة غير منتظمة حلية سريعة Acciacatura وتحدث بين نغمتي مسافة الثالثة الهارمونية وأحياناً بين نغمتي مسافة الرابعة التامة أو أكثر ( ٤ / ٢٥٧ )

نموذج رقم (٤)

الابجاتيورا The Appoggiatura

( ٥ / ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ ) :

ويرى الباحث أنه من خلال العزف على آلة الناي قرابة خمسة وعشرين عاماً نجد أن أداء الانزلاق (Glissando) يخضع لأسلوب أداء العازف وخاصة في الأداء المنفرد (Solo) الذي تتميز به آلة الناي ويرى الباحث أن المدرس لابد وأن يقدم للدارس الشرح لطريقة وأسلوب أداء الحليات التي تحتاج لأدائها إلى قدرات خاصة وذلك حسب المستوى التحصيلي لكل دارس

تسمى بالألمانية فوشلاج وهي اللمسة القوية التي تعزف في الزمن الخاص بنغمة ما مجاورة غريبة عن الهارمونية فتصلها بالنغمة التي تتطلبها الهارمونية وهي عبارة عن علامة تركيز ذات استمرار مختلف تكتب قبل النغمة الأساسية أو أسفلها. والابجاتيورا تأخذ نصف زمن النغمة الأساسية التي تليها أو أقل من نصف الزمن. كما في نموذج ( ٥ ، ٦ )

نموذج رقم (٥) إيجاتيورا من أسفل



## الفيبراتو: Vibrato (٣ / ٧٦)

هو طريقة أداء تعطى نوعية من التعبير بصوت احدى النغمات بواسطة ذبذبات لحظية سريعة للطبقات الصوتية. ويختلف أداؤها حسب نوع الوسيط غناء كان أو آلات وتورية أو آلات نفخ أو آلات ذات لوحة مفاتيح

وهناك نوعان من الفيبراتو يستعملان فى أداء آلة الناي وهما :

- فيبراتو الرأس، يؤدى بواسطة هن الرأس:

- فيبراتو هن الآلة ، وينتج عن هن الآلة: يستعمل فيبراتو هن الرأس فى العزف على آلة الناي بتغلب فيبراتو الحدة على فيبراتو الشدة؛ لأن الفيبراتو هنا يحدث نتيجة للتغيير المتناوب لموقع اصطدام التيار الهوائى، ويرى الباحث أن استخدام الفيبراتو فى أداء الليجاتو Legato واحد من أهم الوسائط التعبيرية الأدائية الواسعة الانتشار فى الفن الأداى على آلة الناي وعلى كافة الآلات الموسيقية، فاستعمال الفيبراتو هنا يمهّد إلى ليونة وسلاسة الانتقال من نغمة إلى أخرى.

وتفتقر معظم كتب أصول العزف على الفلوت خاصة والآلات الهوائية عامة إلى ذكر

أى شىء عن موضوع الفيبراتو ويقتصر بعضها على ذكر ضرورته الموسيقية وشىء ضئيل عن بعض طرق إخراجها. ويرى الباحث أن أداء الفيبراتو على آلة الناي لا يرتبط بآلية قراة العازف بل هو خاضع تماماً لرغباته الموسيقية فى كل جملة. كما يخضع عامة لدرجة تدريبه على تربية طابع أدائه الشخصى الذى يميزه عن غيره من العازفين .

الكادنزا The ceadenza (٥ / ٣٤ -

( ٣٥ :

ارتجالات حرة تستعمل لتزيين النهاية. وهى امتداد للحلية خارج إطار الميزان فى الحركة. وتعتبر الكادنزا قمة أنواع الحليات ولذلك فمن الطبيعى أن يؤجلها المؤلف ليصل بها إلى قمة الزخرفة الموسيقية . وهى عبارة عن نغمات كثيرة متتابة بدرجات متصلة أو منفصلة تدون على هيئة صغيرة وهذه النغمة تسبقها نغمة أساسية أو سكتة تكون فوق علامة الإطانة (Corona) وتكون هذه النغمات خارجة عن أزمنة المازورة كما فى نموذج رقم (٧)



### نموذج رقم (٧)

ويرى الباحث أن الكاندزا تستخدم بكثرة فى الموسيقى العربية فيبدأ بها المؤلف الموسيقى، كما فى لونجا الفراشة وموسيقى مناجاة لعطية شرارة، وأحيانا تكون قبل الحركة الثالثة كما فى كوينشوتو الناي لعطية شرارة، والكاندزا يؤديها العازف مضيفا إليها بعض الارتجالات مع الاحتفاظ بروح المقام الموسيقى، وهى تبين مهارة العازف المنفرد.

الاطار التطبيقي : يتضمن :

- تمرينات تطبيقية مقترحة فى مقامات متنوعة لأداء هذه الحليات .

- نماذج تطبيقية مقترحة لبعض المقطوعات الموسيقية قام الباحث بوضع الحليات المناسبة لها.

- التمرينات التطبيقية المقترحة :

أولاً : - التريل أو الزغردة .

التمرين الأول : فى مقام البياتى ميزان  $\frac{4}{4}$  فى زمن البلاتش .



هذا التمرين يساعد على أداء حلية التريل أو الزغردة .

ثانياً : نغمات الاتكاز القصيرة (الفردى - الزوجى) ،

أ - الفردى :

التمرين الثانى : فى مقام (العجم) ميزان  $\frac{4}{4}$  فى زمن البلاتش



هذا التمرين يساعد على أداء نغمات الارتكاز (الفردى) .

ب- الزوجى :

التمرين الثالث : فى مقام (الصبا) ميزان  $\frac{4}{4}$  فى زمن البلاتش .



هذا التمرين يساعد على أداء حلية نغمات الارتكاز (الزوجى).

ثالثاً : الجريتو :

التمرين الرابع : فى مقام البياتى ميزان  $\frac{3}{4}$  فى زمن النوار والكروش .



هذا التمرين يساعد على أداء حلية

رابعاً : الإيجاتورا :

التمرين الخامس : فى مقام الراست ميزان  $\frac{4}{4}$  فى زمن البلاتش .



هذا التمرين يساعد على أداء حلية الإيجاتورا .

- نماذج تطبيقية لبعض المقطوعات الموسيقية .

اختيار الباحث نموذجين :

النموذج الأول: موسيقى عزيزة لحن محمد عبد الوهاب ميزان  $\frac{4}{4}$  عدد الموازير ٤٩ .

قام الباحث بوضع الحليات المناسبة على عدد من الموازير.

اشتملت موسيقى عزيزة على الحليات الآتية :

- حلية التريل جاءت في مازورات أرقام ( ٣ ، ٥ ، ٧ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٠ )

- حلية الإتشيكاتورا جاءت في مازوات أرقام ( ١٧ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٤١ ) .

- حلية الأبجياتورا جاءت في مازورات أرقام ( ١ ، ٤ ، ١٢ ، ٢١ ) .

- حلية الجريبتو جاءت في مازورات أرقام ( ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٧ ) .

النموذج الثاني : موسيقى بنت البلد لحن محمد عبد الوهاب مقام بياتي ميزان  $\frac{4}{4}$  عدد الموازير ٢٩ .

اشتملت موسيقى بنت البلد على الحليات الآتية

- حلية التريل جاءت في مازورات أرقام ( ٣ ، ١٤ ، ٢٤ )

- حلية الإتشيكاتورا جاءت في مازوات أرقام ( ٢ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ٣٥ )

- حلية الأبجياتورا جاءت في مازورات أرقام ( ١ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ )

- حلية الجريبتو جاءت في مازورات أرقام ( ٤ ، ٦ ، ٣٢ ، ٣٨ ) .

النموذج الأول : عزينة تأليف محمد عبد الوهاب

عزينة

تأليف : محمد عبد الوهاب

The musical score is written on a single staff with a key signature of one flat (B-flat) and a common time signature (C). The melody is composed of eighth and sixteenth notes, with some measures containing triplets. The score is divided into measures numbered 1 through 29. Measure 29 is marked 'fine'. There are several repeat signs and first/second endings indicated by bracketed numbers (e.g., 1, 2, 3, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 10, 11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29). The notation includes various ornaments and phrasing slurs.

النموذج الثاني : بنت البلد تأليف محمد عبد الوهاب

بنت البلد

تأليف : محمد عبد الوهاب

1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39

### نتائج البحث :

قام الباحث بعرض لتاريخ آلة الناي والمراحل التي مر بها العازفون لتعلم التدوين الموسيقي، وما ترتب على ذلك من قصور في الأداء التعبيري لعازفي آلة الناي، وعرض الباحث تاريخ الحليات في عصر الباروك والعصر الكلاسيكي منها الكانزا - الإمتزاز والذبذبة - الفيبراتو - التريل - السليد - الزحلقة - البورتامنتو - الجريتو - نوت الارتكاز (الإتشيكاتور). واختار بعض الحليات المناسبة لآلة الناي والمستخدم بكثرة في الموسيقى العربية والتي هي موضوع البحث. واقترح تمرينات تطبيقية لأداء هذه الحليات ليتمكن الدارسون من طريقة الحليات بالطرق المتعارف عليها عالمياً. واختار الباحث بعض النماذج لمقطوعات موسيقية معروفة. وقام بوضع بعض الحليات المناسبة لها على عدد من الموازير .

– خبراء في مجال العزف على آلة الناي :

د . محمد أحمد عبد النبي : أستاذ مساعد لآلة الناي بقسم الآلات بالمعهد العالي للموسيقى العربية، أكاديمية الفنون .

د . قدرى مصطفى سرور : أستاذ مساعد لآلة الناي بقسم الموسيقى العربية، كلية التربية الموسيقية جامعة حلوان .

د . عاطف إمام فهمي : أستاذ مساعد لآلة الناي بقسم الآلات بالمعهد العالي للموسيقى العربية، أكاديمية الفنون :

أ . عبد الحميد عبد الغفار : عازف ناي وخبير الموسيقى العربية بوزارة الثقافة .

قام الباحث بتوزيع استمارة استطلاع رأى الخبراء في مجال العزف على الناي، وجلس مع كل منهم لشرح فكرة البحث والهدف منه ثم بدأ في جمعها وأخذ أرائهم .

استخلص الباحث رأى الخبراء في :

– التمرينات التطبيقية المقترحة لأداء الحليات.

– المقطوعات الموسيقية والحليات التي أدخلت عليها

– وقد جاءت نتائجها كالآتي :

حصلت التمرينات التطبيقية المقترحة لأداء الحليات على موافقة جماعية بنسبة ١٠٠٪  
وحصلت فكرة المقطوعات الموسيقية التطبيقية والحليات التي أدخلت عليها بنسبة ١٠٠٪.

توصيات البحث :

في ضوء ما توصل إليه الباحث من نتائج ومن أجل التوصل لمستوى أفضل لدارسي آلة

الناى يتقدم الباحث ببعض التوصيات والمقترحات يوردها فيما يلى :

- يوصى الباحث أساتذة آلة الناي وضع خاص لأسس قواعد أداء الحليات
- ضرورة وجود مقطوعات موسيقية تشتمل على أهم الحليات المستخدمة فى الموسيقى العربية .
- الاطلاع على أهم أساليب وطرق أداء الحليات .
- تقديم المدرس الشرح والتدريب على طريقة أداء الحليات .
- قائمة المراجع:

- (١) أحمد بيومى : قواعد الموسيقى ونظرياتها - الطبعة الثانية - ١٩٥٤ .
- (٢) أحمد بيومى : القاموس الموسيقى - القاهرة - الهيئة العامة للمركز الثقافى القومى (دار الأوبرا) - ١٩٩٢
- (٣) حسام يعقوب إسحاق : الفيبراتو كواسطة فنية تعبيرية فى العزف على الفلوت - العراق - منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقى - ١٩٨١ .
- (٤) سعيد فهمى عوض : صعوبة توحيد الحليات لعازفى آلة الكمان العربى وكيفية التغلب عليها - رسالة دكتوراه - بحث غير منشور - المعهد العالى للموسيقى العربية - أكاديمية الفنون - القاهرة - ١٩٩٢ .
- (٥) سلوى عزت أمين : تدرج أساليب عزف الحليات من عصر الباروك إلى آخر عصر الكلاسيكى - رسالة ماجستير غير منشورة - كلية التربية الموسيقية - جامعة حلوان - القاهرة - ١٩٨٠ -

(6) Basrien James w, : How to teach piano success fully general words and unsc publishers 1973 .

(7) Donington, Robert , The in terpretation of early unsc first published, London, 1963 .

(8)The new Grove Dictionary of music and musicians, Edited by slianly sadi, macmillan publishers limited , 1980 .



# تاريخية الرؤية المعاصرة

فى

إضاءة التراث النقدى

د. حسن البندارى \*

(١)

صمد بعض الباحثين منذ ثلاثينيات هذا القرن - إلى دراسة «نصوص النقد العربى القديم، برؤية ذات طابع ثنائى، تاريخى- فنى»، غايتها إضاءة النصوص بمنهج معتدل أحيانا ومقتحم غالباً. وقد تأسس «الاعتدال» على تجنب تحميل النصوص غير ما تحتوى عليه أو عدم «إقحام ما لم يخطر بعقول المؤلفين القدماء من نظريات وآراء» (١)، ويؤكد ذلك قول أحد الدراسين بأنه ينبغي على أن أترك النقد القدامى يتحدثون بلغتهم، فلا أترجم ما قالوه إلى لغة نقدية معاصرة إلا فى حالات قليلة جداً، حين تستغلق العبارة على القارئ المعاصر، كما هى الحال فى نقد حازم القرطاجنى (٢)، وربما ظهرت هذه النظرة بمظهر سلبي، لا نحياها إلى النصوص وتقليب الإشادة بعبقيرية أصحابها.

\* أستاذ النقد الأدبى . بكلية البنات . جامعة عين شمس.

(١) د. محمد منور. النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر. ط (٢) ١٩٧٢ ص ٦.

(٢) د. إحسان عباس. تاريخ النقد الأدبى عند العرب. نقد الشعر من القرن الثانى حتى القرن الثامن

الهجرى . دار الشروق، عمان - الأردن - طبعة ١٩٩٢ ص ١٢ .

تسرب بعض هذه المفردات إلى عدد من المؤلفات العربية التي عرضت لتصوص التراث النقدي، إذ استغل أصحابها هذه المفردات لإضاعة التصوص موضع النظر، لا سيما أن غيرنص منها قد احتوى على بعضها. كطبقات فحول الشعراء لابن سلام الذي قسم الشعراء إلى طبقات على أساس زمني ومكاني، وعنى بـ «توثيق الشعر» وصحة نسبته إلى قائله (٣). وكتاب الحيوان للجاحظ الذي تناول تأثير البيئة والموهبة والجنس في الشعر (٤). وكتاب الوساطة للجرجاني، الذي ألمح إلى تآثر الشعر وقائله بالبيئة (٥).

ويؤكد قيمة هذه الإفادة بعض الباحثين المعاصرين حين رأوا ضرورة الاستفادة من تجارب الغير، ومن التقدم المنهجي الكبير الذي أحرزه الباحثون الأوروبيون في مجال الأدب واللغة (٦) وإن أبدوا حذرهم من التوسع في فرض مذاهب الآداب الغربية على النصين الإبداعى والنقدي (٧). وهى

ويعنى «الاقترحام» بأن الباحث يتخذ أسلوب «حوار التراث» الذى يخلل الإضاءة الغالبة، لأنها تخلو من التقيويم الموضوعى للنص، ولأنها ليست سوى «تجاهل للحقائق الأدبية والنقدية فى أدبنا المعاصر نفسه فضلاً عن الآداب العالمية، كما أن وقوف الباحث عند حدود الشرح والإحصاء لهذه الآراء - يفقده الأصالة فيعيش بأرائه فى غير عصره عن قصور أو ضيق أفق» (١).

وقد أفاد البحث النقدي «المعتدل» والمتحتم، من معالم هذا الاتجاه ومفرداته التى ترددت فى المؤلفات الأوروبية الحديثة، مثل «البحث عن الوثائق أو الهورسليقا» Heuristik، و«نقد المصدر»، و«نقد التفسير الهرمنوطيقا» ونقد النص - Textik، و«الترتيب النقدي للمراجع» الذى يرتكز إلى «تصفح» recensio، وإصلاح emendato وفحص النص - exami natio (٢).

وتتمثل الإفادة من هذا الاتجاه فى

- (١) د. محمد غنيمي هلال: دراسات وتمازج فى مذاهب الشعر ونقده، نهضة مصر د. ت. ص ٩
- (٢) لانجولا وسينويوس، وبول ماس، وإما نويل كانت: النقد التاريخي ترجمة د. عبد الرحمن بدوي - دار النهضة العربية طبعة (١) ١٩٧٠م صفحات ٣٣، ٨٥، ٩٥، ١٢٥، ٢٥٨، ٢٦٥.
- (٣) طبقات فحول الشعراء. تحقيق: محمود شاكر. المحدث - القاهرة ١٩٧٤ ص ٧ وما بعدها.
- (٤) الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون. الطلي مصر - ١٩٣٨ - ٤ / ٢٨.
- (٥) الوساطة: تحقيق أبو الفضل، والبجوى، العمري، بيروت ط ١٩٦٩، ص ١٨.
- (٦) النقد المنهجي ص ٦.
- (٧) أحمد الشايب - تمهيد ص ١ - بتاريخ ١٩٣٧ - الذى مهد لكتاب طه أحمد إبراهيم تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ط (١) ١٩٣٧

المذاهب التي لم تخطر على عقول نقادنا القدامى - كما أشرنا منذ قليل .

والواقع أن الباحث محق في هذا الحذر تجاه الأفكار المطروحة عليه، خاصة إذا نظر إليها بمعيار عملي نفعي من زوايا اعتقاده بأنه «لا قيمة لفكرة تستفاد من ثقافة أخرى إلا بقدر ما تلبي حاجة أو تحل مشكلاً، أو تضيء سبيلاً»<sup>(١)</sup>.

لكنهم نبهوا رغم هذا التحذير إلى عدم الاقتصار على ما كتبه الأقدمون من نقاد الأدب العربي أمثال قدامة والأمدي والجرجاني وابن رشيق وغيرهم ممن غلبت على مذاهبهم الأفكار الجزئية والمباحث المجزأة الضيقة والنظرات السريعة، لأن الفن الأدبي يحمل طاقات عاطفية وشعورية تعكس مزاج صاحبه، وإمكانيات بيئية ذات دلالات مختلفة .

وفي ضوء هذا كان من الضروري التفكير في تحرير الدرس النقدي من الدائرة الشكلية الجزئية وتنظيمه وإقامته على أسس سليمة، وذلك بالاتجاه إلى دراسته بثنائية «تاريخية فنية» تعنى بأطواره وأصول أحكامه اللفظية والمعنوية وعوامل الإبقاء على هذه الأصول أو

تغييرها، والمؤثرات التي تدخلت في صياغة أحكامه حقاً أو باطلاً، ومظاهر الحضارة العربية والأجنبية التي كان لها سلطان على فن النقد الأدبي (٢).

فكل من الجوانب التاريخية والجانب الفني اعتمده عدد من الباحثين المعاصرين من حيث أنهما يمثلان فن النقد الأدبي الخاص بهذا الاتجاه، على نحو ما نرى ذلك في مؤلفاتهم التي شقت لها اتجاهاً متبهماً - وسط المؤلفات النقدية الأخرى - يتمتع بالأصالة لتسامه بالتطور الطبيعي؛ فقد بدأ بدراسات تتصف بروح حذرة مترددة، ثم ما لبث أن قوى وتمكن بدراسات أخرى جنت إلى التحوار مع التراث تحاوراً قام على الفحص والتحليل الفني. وهذه المؤلفات منها ما هو كتب موسعة ومنها ما هو بحوث مركزة.

فمن الكتب: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري لطله إبراهيم ١٩٣٢، والنقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور ١٩٤٣، ودراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى غاية القرن الثالث للدكتور بدوي طيانة (١٩٥٣). وأسس النقد الأدبي

(١) د. سعد مصلوح: شكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية. ضمن المجلد (٢): قراءة جديدة لتراثنا النقدي - نادي جدة - السعودية ط (١) ١٩٨٨ هـ ٨٢١ .

(٢) أحمد الشايب . مقدمة كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطله إبراهيم صفحات ح ، هـ ، و .

(٢)

ولئن اتسمت هذه الكتب والبحوث بفروق في الرؤية البحثية وتمايز في تناول واختلاف في التوجّه والنهج - فإنها تشترك جميعاً في «التاريخية الفنية» وفي الاعتماد - غالباً - على مفردات هذه الثنائية، مما استدعى جمع معطياتها وتصنيفها والتقريب بين المتشابه والمتوافق منها وحصره ما أمكن في سبعة محاور هي: «نقد المصدر»، و«تحقيق النصوص ونسبتها»، و«الإحاطة التتبعية»، و«تاريخية التناول»، و«التسرب الثقافي»، و«التحول أو العدول» و«التحليل النوعي».

أما المحور الأول وهو «نقد المصدر» فيعني أن هدفاً من باحثي هذا الاتجاه قد دعوا عند دراسة التراث النقدي إلى اتخاذ ستة إجراءات ضرورية: أولها: «تجميع الكتب أو النصوص القديمة» التي تدرس ظاهرة معينة بغية الاعتماد على بعضها أثناء دراسة هذه المسألة على نحو ما بين ذلك د. محمد مندور وهو يتابع بالتحليل موازنة الأمدي التي تشبّه الموازنة المعاصرة (١) وثانيها «البحث في المصادر المختلفة» لصاحب النص النقدي موضوع

عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوي (١٩٥٨)، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب: نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن للدكتور إحسان عباس (١٩٧١)، واتجاهات النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة للدكتور أحمد مطلوب (١٩٧٣)، ونقد الشعر في القرن الرابع الهجري للدكتور قاسم مومني (١٩٨٢)، وقسيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم (١٩٨٩)، ومقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي (١٩٩١) للدكتور حسن البنداري وغير ذلك من الكتب.

ومن البحوث المركزة: جناية عمود الشعر على الشعر العربي (ضمن كتاب: دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده. للدكتور محمد غنيمي هلال (١٩٦٩)، والنقد العربي القديم والمنهجية للدكتور عبد القادر القط: بمجلة فصول (١٩٨١)، ونظرة في كتاب المثل السائر للدكتور محمد الهادي الطرابلسي بقراءة جديدة لتراثنا النقدي (المجلد الأول) (١٩٨٨)، وتنويع الحكم النقدي بالوصف والتصوير للدكتور حسن البنداري بدراسات عربية وإسلامية (١٩٩٣). وغير ذلك من البحوث.

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٩٥ .

التي تعرضت لأم جندب وامرئ القيس  
وعقمة الفحل، لارتكازها على حكم ذى  
مقياس نقدي، وكيف خامره الشك في  
صحتها(٦). وسادسها: يختص ببحث  
أصول الكتاب النقدي، ككتاب الموازنة، الذي  
يرجع إلى مؤلفات القرن الثالث الهجري(٧).

ويستند باحثوا المحور الثاني «تحقيق  
النصوص ونسبتها» إلى أربعة أفكار  
متنوعة.

الأولى: فكرة فحص الشعر «الموضوع»  
أو «المنحول» على النحو الذي نهض به: طه  
إبراهيم، ومحمد مندور، وبدوي طبانة،  
وطاهر درويش، وحسن البنداري وسواهم -  
حيث اتفق هؤلاء على أن ابن سلام طبق  
الروح العلمية «بإسناد كل قول إلى صاحبه،  
وكل شعر إلى عصره»(٨). واستعمل أدلة  
عقلية ولغوية ونقالية وفنية، تتعلق بحدائث  
العربية القصص، واستبعاد أي قصيدة

الدراسة بأن تلتصق مثلاً المصادر المتنوعة  
للأحكام النقدية التي استند إليها الأمدى  
وهو يفحص شيوع ظاهرة الأبدع في شعر  
أبي تمام(٩). أو المصادر التي اعتمد عليها  
حازم القرطاجني وهو يتناول العلاقة بين  
الشاعر والمتلقي(١٠) ثالثها: «دراسة  
الملاحظات النقدية السابقة» التي وجهت إلى  
شاعر معين وذلك لتكوين رؤية منصفة غير  
بعيدة عن النظر النقدي الحديث(١١).  
ورابعها: «دراسة الشروح التي تناولت شعر  
الشاعر لمعرفة أثرها وتأثيرها على نحو ما  
تم بالنسبة لشروح ابن جني لشعر المتنبي.  
وطرق الكتب التي عرضت لتلك الشروح(١٢)  
. وخامسها: «دراسة الروايات المتفاوتة»  
باعتبارها مصدراً للنص النقدي كما صنع  
حسن البنداري عندما درس روايتي الحكم  
النقدي لطرفة بن العبد على بعض شعر  
المسيب بن علس، أو عمرو بن كلثوم(١٣)، وطه  
إبراهيم حين فحص مدى صحة «الرواية»

(١) السابق صفحات ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٩.

(٢) د. حسن البنداري: حواشي كلية البنات جامعة عين شمس عدد ١٦ / ١٩٩٠.

(٣) السابق ص ١٩٠، هـ ٢٩٠.

(٤) السابق ص ٢٣٣، ٢٣٤.

(٥) مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي، الأنجلو المصرية ط(١) ١٩٩١ هـ ٨، ٧.

(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري ط(١) ١٩٣٧

ص - ٢٠، ٢٢.

(٧) السابق ص ١٧٦.

(٨) السابق ص ٧٦. وحسن البنداري: قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم الأنجلو

المصرية ط(١) ١٩٨٩ هـ ٨١.

فيها على وجه الحقيقة وللتأكد من صحة نطقها (٥).

وأما الفكرة الرابعة فإنها تتصل بضرورة التأكد من أن الكلمة في النمر أو العبارة - لم يدخلها تصحيف ولا تحريف (٦).

وأما المحور الثالث وهو «الإحاطة التتبعية» فيتجلى في «الوعي الشامل بمذاهب الشعر وفنونه» فالأمدي في الموازنة لا يكتفى «بالخوض في أشعار أبي تمام والبحثى، ولكنه يتعرض لكثير من شؤون الشعر العربي القديم والحديث خاصة، وكذلك كتاب الوساطة؛ فهو يتصدى للبحث في شعر المتنبي، ويعرض في الاستشهاد أو التدليل أو التماس العذر إلى كثير من الشعراء» (٧). كما تتجلى في الوعي بعلوم اللغة لتوضيح أحكام النقد وتعليلها، وبالأحداث التاريخية المواكبة للفن الشعري وتقاليد له الشعراء، ويمتابة من تناولوا الشاعر على مر السنين؛ فأبو هلال العسكري يدير حواراً مع المتنبي مفسحاً

تعزى إلى عهد أقدم من عهد المقصدين للقصيدة وهم امرؤ القيس ومهلل وطرفة، ويثنه - ابن سلام - توصل إلى أسباب ظهور هذه المشكلة المنحصرة في «العصبية النوعية»، و«ألوان الرواة» (١). كما بين الباحثون الأربعة الأول، وفي «عملية التكوين» عند الباحث الأخير (٢)، ويأن صنيع ابن سلام في «تحقيق النصوص» و«وصحة نسبتها» إجراء أساسى في العملية النقدية تيسره «الدرية» على قراءة النصوص والتمرس بها (٣).

والفكرة الثانية هي «فكرة فحص النسخ القديمة» الأخرى غير المعروفة، فيها يتمكن الدارس من «تحقيق النص قبل الحكم عليه». كما فعل الأمدي حين أطلع على النسخ العتيقة التي جهلها الصولى. وهذا الاطلاع يمثل «أولى مراحل النقد المنهجى المستقيم» (٤).

والثالثة تتعلق بحاجة الدارس إلى «المعرفة الواسعة» بأسماء الأماكن، وأسماء الأشجار والنبات والمواضع والمياه التي ترد في الشعر حتى يستطيع معرفة الصواب

(١) السابق من ٨٠ والنقد المنهجى من ١٩ .

(٢) فى النقد الأدبى عند العرب - دار المعارف بمصر ط (١) من ١٤٤ .

(٣) النقد المنهجى من ١٩ . (٤) السابق من ١٠٤ .

(٥) د . أحمد بدوى : أسس النقد الأدبى عند العرب . نهضة مصر من (٢) ١٩٦٠ من ٢٩١ .

(٦) السابق من ٢٩١ .

(٧) طه إبراهيم: تاريخ النقد الأدبى عند العرب من ١٥١ ، ١٥٢ .

علم البيان وعلم النقد الأدبي. فعلم البيان يرجع إلى أصل واحد، لأنه عربي محض، بينما يرجع علم النقد الأدبي إلى جملة أصول فنية ترجع إلى المزاج العربي، وأمثلة أخرى ليست بعربية. وعلم النقد نما وترعرع في كنف الشعراء والرواة والمتأديين بينما ترعرع ونما علم البيان في كنف المتكلمين، ومن هم إلى الفكر والعلم أقرب، وعلم النقد ظهر في الشعر.. على حين ظهر علم البيان في النثر» (٢).

والزاوية الثانية تتصل بتطور كلمات أو صيغ بعينها كصيغ «نقد» و «أدب» و «شعر» و «نثر» و «موهبة» و «تكسب» وغير ذلك من الصيغ التي حظيت بنظرات أجيال النقاد واللغويين. (٤). والثالثة : دراسة القضية النقدية كعمود الشعر، وكيف أنها أضرت بالشعر العربي أو لم تضربه هبر مسيرته (٥)، وقضية «اللفظ والمعنى». وتتضمن هذه الزاوية تاريخية تناول معنى نص شعري بشكل متباين (٦)، مثل نص

المجال لغيره بفرض استمرار هذا الحوار الذي تولته في العصر الحديث دراسات زكي مبارك التي أودعها كتابه «النثر الفني». كما تتضح هذه الإحاطة في ملاحظة القضية أو الظاهرة المعنية الواحدة في بلدان عديدة. مثل قضية «الخصومة» - التي ثارت في جرجان على يد علي بن عبد العزيز الجرجاني، وفي فارس بنظرات ابن العميد، وفي بغداد بمناقشات ابن جني.. وظاهرة «التوجه البديعي» في الشعر التي درسها الجاحظ وابن المعتز فاستقرت اصطلاحيا في كتاب البديع (١)، وتنامت في غير كتاب مثل بديع القرآن لابن أبي الإصيص المصري، وظاهرة «الأخذ الفني أو السرقات»، التي أخذت هيذا وأسعا في التراث النقدي (٢)

ويتمثل المحور الرابع «تاريخية التناول النوعي» في فحص الباحثين المعاصرين للتراث النقدي من عدة زوايا: الأولى: «النشأة والمرجعية» ففيها جاء تفريقهم بين

(١) د . بدوي طياته دراسات في نقد الأدب ص ٢٤٨ .

(٢) د . حسن البنداري: قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم ١٢٧، وما بعدها ، والصنعة الفنية في التراث النقدي مركز الحضارة العربية ، ط (١) ص ١٢٧، وما بعدها .

(٣) طه إبراهيم : المرجع السابق ص ٦

(٤) د . أحمد بدوي أسس النقد ص ٩ - ٩ .

(٥) د . غنيمي هلال : دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ص ٩ ، ود. حسن البنداري عمود الشعريين والثبات والتحول ط (١) الأنجلو المصرية ص ٧، وما بعدها .

(٦) د . حسن البنداري تكوين الخطاب النقدي في النقد العربي القديم ط (١) الأنجلو المصرية ١٩٩٣ ص ١٠٨ .

يتألف من ثلاثة أبيات اشتهرت في تاريخ النقد العربي وهي :

ولما قضينا من منى كل حاجة  
ومسح بالآركان من هو ماسح  
وشدت على دهم المهاري رحالنا  
ولم ينظر الفادي الذي هو رائح  
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا  
وسالت بأعناق المظي الأباطح (١)

فعلى حين قرر كل من ابن قتيبة، وقدامة  
ابن جعفر، وأبى هلال العسكري «توهين  
معناها» لتفاهتها رغم تسليمهم بقصاحة  
ألفاظها وإحكام صنعتها - نجد من تصدى  
للدفاع عنها مثل ابن جنى وعبد القاهر حيث  
أشادا بألفاظها ومعناها (٢).

وتكمن الزاوية الرابعة في الوقوف على  
تطور قضية «الصراع بين القديم والحديث»  
وتأصيلها على نحو ما عمد إلى ذلك عدد من

وفي هذا المجرى بحث المعاصرون  
«التأثير الأجنبي» في النقد القديم، «وتأثره»  
بالإطار الثقافي المحيط به؛ فوجدوا أن

(١) كثير بن عبد الرحمن ، ديوانه ١ / ٧٩ وقد نسبت إلى كل من : يزيد بن الطثيرة وعقبة بن كعب بن زهير.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عن العرب ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

(٣) مثل طه إبراهيم في تاريخ النقد ص ٨٩، ومحمد منور في النقد المنهجي ص ١٦٣ ، ١٨٦ ، ٢٤٩ ،  
وأحمد بدوي في أسس النقد الأدبي عند العرب ص ( ) وإحسان عباس في : تاريخ النقد .. نقد  
الشعر ص ١٤٧ ، ٢٥٢ ، ٣١٢ .

(٤) طه إبراهيم ، تاريخ النقد ص ٨٩ .



يحذرون من فرض مناهج حداثة على القضية النقدية ذات الطابع التراثي (٢) ولا سيما المناهج التي ولّتها دراسة آداب مفايرة بطبيعتها التاريخية لأدبنا العربي (٣). وهذا التحذير صائب وصحيح، ويرجع ذلك إلى «خصوصية» المرحلة التي أفرزت هذه القضية أو تلك . فهي مرحلة محكومة بظروف تاريخية وفكرية تختص بها وتفرض اللغة النقدية التي تتناولها.

يكشف المحور السادس «التحول النومي» عن دراسة المعاصرين لألوان من التحول التي مارسها النقاد القدامى.

فثمة «تحول نومي» خاص بالأحكام النقدية التي بدأت بنوع ساذج غير معلن في بعض نماذج نقد العصر الجاهلي، ثم نضجت بنضوج النوق وثقافته في نماذج من العصور التالية لذلك العصر.

وقد لاحظ المعاصرون ذلك في ضوء دراستهم لأحكام نقدية لعدد من الشعراء والعلماء بالشعر (٤)، وفي ضوء تجربة ابن

القمامي رحبوا بهذا التأثير وإن أثروه - كما ندعو اليهم - متسماً بالاعتزان. ومن ثم نادوا بالاعتدال في الجمع بين القديم والحديث، كما وجدوا أن تأثير الناقد بالإطار الثقافي المحيط به مظهر لإمكان الاستعانة بإنجازات كل من علماء الدين، وعلماء العربية، ورجال الترجمة. وبعبارة أخرى: الاستعانة بفكرة «علمية الفترة الزمنية وفكرها» (١). التي أثرت بدورها في حركة النقد الأدبي الذي أصبح يعتمد على مصادر ثقافية متنوعة تتمثل في الذهنات المتعاقبة للغويين والأدباء والعلماء المثقفين بثقافة أجنبية، والعلماء المتأثرين كل التأثر بالثقافة اليونانية.

وعلى الرغم مما تتضمنه دراسات المعاصرين لصنيع القدامى من «موافقة» على الاستعانة بالرؤى الأجنبية في دراسة الأدب، ومن ترحيب بأهمية المصادر الثقافية المتنوعة بالنسبة للنقد ونقد النقد معاً - لكن بعض المعاصرين يحذرون من المغالاة في «اسقاط» الثقافة النقدية الحديثة والحداثيّة على دراسة النص النقدي القديم، كما

(١) السابق ١٢٢ - ١١٤ .

(٢) د . عبد القادر القط. (النقد العربي القديم والمنهجية) فصول ٤ أبريل ٨١ ص ١٣ .

(٣) د . محمد مندور: النقد المنهجي ص ١٢٨ ، ص ١٣٢ .

(٤) د . حسن البنداري: مقاييس الحكم الموجز. في الموروث النقدي ص ٧ وما بعدها.

النصوص الأدبية في العصر الجاهلي من الجزئية إلى الكلية منذ نهوض النقد القدامى بمهمة التأليف المنهجي الذي عرّفناه عند ابن سلام، والأمدي، والجرجاني، وعبد القاهر وغيرهم.

ويتضح المحور السابع «التحليل الفني المتنوع» بدراسة المعاصرين لتحليلات عديدة مارسها النقد العرب القدامى حين تصديهم لظواهر وقضايا أدبية مختلفة. فمثلاً عمد المعاصرون إلى «تحليل سمات نقد القرن الرابع الهجري» في ضوء عمل الأمدي في كتاب الموازنة، والجرجاني في كتاب الوساطة. وأوصلهم التحليل إلى الوهمي بطبيعة العمل النقدي لدى الاثنين؛ إذ يتألف من عناصر صحيحة وسليمة تتجلى في «النوق المثقف»، و«الإحاطة» بمذاهب الشعر وفنونه، و«دقة التحليل»، وغير ذلك، ليثبت التحليل - من ثم - «سيادة الروح العلمية وسرياتها في النقد الأدبي» (٥).

سلام، الذي قاس فيها نجاح الناقد بمدى تحصيله المعرفي ومدارسه النصّوص وتدريبه عليها (١)، واعتماده على القواعد والقوانين العلمية على النحو الذي جرى في العصر العباسي (٢).

وثمة تحول فكري نراه في تطور مفهوم الفكر الذي يعتبر النقد أحد مظاهره؛ فقد درس المعاصرون: تطور نقد العصر العباسي من حيث انقسامه إلى «معسكرين» أو حزبين هما: حزب الأحرار المقابل للمحدثين، وحزب المحافظين المساوي للقدماء، اعتماداً على نصوص ابن قتيبة التي حددتهما، وبينت الدور المؤثر لكل منهما (٣).

على حين وقف بعض المعاصرين بالدراسة على نوع ثالث من التحول يسمى «التحول من الجزئي إلى الكلي» (٤)؛ فقد انتقلت الأحكام النقدية الصادرة على

(١) النقد المنهجي ص ١٦٣ .

(٢) أحمد أمين: النقد الأدبي . نهضة مصر ط (٤) - ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب ص ٨٧ .

(٣) أحمد أمين : النقد الأدبي ص ٤٤٠ .

(٤) د . بدوي طبانة : دراسات في نقد الأدب العربي : ص ١٢٩ وما بعدها .

(٥) طه إبراهيم : مرجع السابق ١٥١ - ١٦٦ . ود . حسن البنداري . قيم الإبداع الشعري في النقد العربي القديم ص ٨١ وما بعدها

ما لا يدخل في صميم الفن أو الإبداع، ولا صلة لها بشعر أبى تمام مثل «كفره» و «التخبط في فهم شعره»، و «الادعاء الكاذب» من بعض شراحه ونقاده السابقين - كالصولي - بأنهم أكثر قدرة على فهم شعر أبى تمام، لا سيما أن الأمدى توصل بالتحليل إلى ضعف هذا الفهم وتهاويه. لتبقى في النهاية العناصر الحقيقة ذات الصلة بالعملية الفنية(٢).

ويتضح «الإنصاف» الموضوعى لدى المعاصرين في اعترافهم بتقدم النقد الأدبى على يد ابن قتيبة، لأنه «أخذ في نقده بالروح العلمية في الأحكام» إذ حكم نظره الشخصى، واستند إلى رأيه المستقل عن سواه، وقدر الأشياء في ذاتها(٤)، كما ظهر إنصافهم في ملاحظتهم أن دراسة الأمدى لأخطاء أبى تمام تمت «بروح علمية صادقة»(٥) مجافية للتجوز والانفعال

وقد نبه المعاصرون كذلك إلى ما اتصفت به دراسات النقاد القدامى من صفات عديدة - أيضاً - مثل : المقارنة الصميجة، والشمولية، والتصفية، والإنصاف الموضوعى.

وتبدو «المقارنة» في دراسة الظاهرة الأدبية اعتماداً على عناصر فنية بالعملين موضع المقارنة مثل وضع الخطه، وتحديد خصائص العملين، والاقتصاد في الحكم النزيه، كما نرى في مقارنة شعر أبى تمام بشعر البحتري(١) ..

ونقف على «شمولية» الرؤية في تحديد الأمدى لأخطاء أبى تمام؛ حيث استند في تحليله إلى «الرواية» و «الفتنة النفسية»، و «الخبرة بالأشياء» ، و «المعرفة النحوية»(٢). وتظهر «التصفية» التى لاحظها المعاصرون على نقد الأمدى في استبعاد

(١) النقد المنهجي ص ١٤٩ .

(٢) السابق ص ١٢٤ - ١٢٧ .

(٣) السابق ص ٨٣ .

(٤) السابق ص ٢٨ .

(٥) السابق ص ١١٥ ، ١١٦ .

شأنه أن يوجد فيه» (٤). وهذا التحذير يمثل دعوة صحيحة تدعونا إلى بذل المزيد من الفحص والدرس، بفرض الكشف عن إمكانات النص التراثي وطاقتها النقدية، بدلاً من اتهامه بالقصور، أو النقص، أو الجزئية.

ويكفى أن الناقد القديم، قد وقف عند أفكار نقدية تناوأت أحكام البناء الشعري (٥) كفكرة ترابط الأبيات في القصيدة على النحو الذي تناوله كل من ابن طباطبا، وابن رشيق، وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

ولكن رأى بعض المعاصرين أن تحليلات النقد العربي القديم تتصف «بالقصور النوعي»؛ إذ بينوا أن ثمة قصوراً يتعلق «بالموازنة» التي طبقها أبو تمام على أساس «الشك» في بعض الروايات الخاصة بها (١)، وأن التحليل لدى القدامى جزئي، فلم نعرف عنهم أنهم حللوا نصاً أدبياً كاملاً (٢)، وأن نظرية النظم كما درسها عبد القاهر قاصرة لأنها مقيدة بالعبارة المحدودة، فلم يدرس النص الأدبي الكامل الذي يحفل بعناصر الخيال والإيقاع والتماثل والنقاء الخ (٣).

والحق أن الملاحظتين الأخيرتين تتطلبان على دعوة تطبيق المنهج النقدي الحديث بمفرداته على نص نقدي قديم. وهذه الدعوة تواجه بتحذير في نفس الموضوع من نفس الدارس المعاصر بالآ فرض «المناهج الحديثة على نقدهم - أي القدماء - فلا نطلب من التراث النقدي «ما لم يكن من

(١) طه إبراهيم : تاريخ النقد ص ١٧٩ .

(٢) د . عبد القادر القط : فصل ع أبريل ٨١ ص ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ .

(٣) السابق ص ٢١ .

(٤) السابق ص ٣٠ .

(٥) د . حسن البنداري : تنويع الفن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي . ط (١) الأنجلو المصرية

١٩٨٩ م

## المتابعات

(الكتاب - المؤتمر)



# المشهد الروائي

## في روايتي نبيل عبد الحميد

### «حافة الفردوس» ، «فرس النبی»

عبد الرحمن شلش\*

المشهد الروائي لدى الكاتب المصري نبيل عبد الحميد، مشهد يتسم بشرائه وضائه وعمقه، ومقدرة الكاتب على اصطفاء المنعمات المرئية، مما يمكن أن يحقق ما يعرف بمشهدية الرواية ودراميتها. فنحن إزاء مبدع له حس درامي عال، وله إنجازات يصل عددها إلى أربع روايات، هي: «مسافة بين الوجه والقناع» ، «حافة الفردوس» ، «العصر الرمادي» ، «فرس النبی» ، وتاريخ إصدار هذه الروايات على التوالي: ١٩٧٨، ١٩٨٢، ١٩٩٠، ١٩٩٨، بالإضافة إلى أن له ست مجموعات قصصية، أو لاها صدر عام ١٩٧٠، وأحدثها صدر عام ١٩٩٥ .

مقياساً في النقد، لأن العبرة - في النهاية - بجودة العمل الروائي ونضجه. من هنا، فإن كاتبنا لا يعجبنا بالكلم، بل النوعية، لأنه لا يعنى بمظهر الأشياء، بل بجوهر الأشياء وعمقها. لكننا في دراستنا هذه، سنحاول أن نتناول أبرز ملامح المشهد الروائي عند نبيل عبد الحميد، من خلال تحليلنا لنموذجين

إنه كاتب ينتمي إلى ما يسمى «جيل الستينيات» في مصر، بوصفه جيلاً له إسهامات متميزة في حياتنا الأدبية المعاصرة، إبداعاً ونقداً .. ويكتب وعيانه على دراما الواقع ومتناقضاته.

ويبدو الكاتب مقلداً - إلى حد ما - في كتابة الرواية، لكن القلة أو الكثرة لا تمثل

\* ناقد أدبي .

لننظر إلى مشهد البداية، إلى مشهد النهاية في هذه الرواية. فالمشهد الافتتاحي يبدأ هكذا: «جسر الغمام يزحف قريباً من الأرض، ككتل تتدافع وتتداخل وتتولى، أشباحاً أسطورية تتمدد أطرافها، كهوفاً وسرايب قزم أقواها وتعتصر جوفها، صفير الهواء يأتي من بعيد ويهز الأشجار، ويرطم بالجدران، ويخلع أوتاد الخيام، ويقلب المناضد والمقاعد، ويسوق الرمال والأواني والأكواب والزجاجات ولعب الأطفال وقطع الملابس والكتب القديمة والعصى والقيبعات والأحذية وأطواق الزهور المخفورة» (الرواية ص: ٥) .

أما المشهد الختامي في الرواية، فهو يأتي على النحو التالي: «ومن بعيد بدأ جسر الغمام يتداعى، ويزحف قريباً من الأرض.. كتلة تتدافع وتتداخل وتتولى .. تردد بداخل البرميل صوت الطفل، رفيعاً باكياً .. ظل يتطاير مع الهواء العاصف .. يتسع ... ويتسع .. حتى احتوى المكان!!» (ص: ١٥٤) .

وبين هذين المشهدين، يتجسد ذلك العالم الروائي، باتساعه، وامتداده، وبشخصه، وإمكاناته وأزمته، ودلالاته، وجمالياته .

لقد اختار الروائي أرضاً صغيرة، هي المزرعة، كي تكون مسرحاً لرؤيته: جاء

روائيين، مختارين من أعماله، هما «حفاة الفردوس»<sup>(١)</sup> و«فرس النجم»<sup>(٢)</sup>، ثم سنرصد .. في الخاتمة .. ما بينهما من جوانب اتفاق أو اختلاف. والتساؤل الذي نطرحه: كيف يعبر الكاتب عن المشهد الروائي، وعن العالم الذي يرصده تجسداً وتصويراً، وتعبيراً .. في هذين النموذجين؟

#### ١ - حفاة الفردوس .. والعزلة القاتلة:

تفتتح رواية «حفاة الفردوس» على عالم روائي متخيل، له ملامح واقعية، ولامح أسطورية .. عالم يبدو واقعياً وخرافياً، لكنه قريب من زماننا الحالي، الذي نرى فيه إنسان عصرنا الزاكن، وكأنه عاد إنساناً أسطورياً يسلكه وتفكيره وأفعاله، كما لو كان خارجاً من جب الفراهة، وطالعا من جوف الأسطورة .

فالرواية تبدأ من حيث انتهت، بمعنى أن النهاية تقود إلى البداية، وأن النهاية تؤدي إلى البداية... متخذة بذلك شكلاً دائرياً .. نراه - مثلاً - متحققاً في رواية ماركيز: «مائة عام من العزلة»، ودالاً على استدارة الزمن فيها، كما يتحقق في أشكال مسرح النواثر المغلقة، فضلاً عن كونه شكلاً من أشكال الحياة.

(١) نشر مركز الحضارة العربية. القاهرة ط . (٢) ١٩٩٨ .

(٢) نشر المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة ط . (١) ١٩٩٨ .



وظل ذلك السر لحد الكتمان حتى واجهته به العجوز - في النهاية - موضحة أنها كانت تعرف زوجته قبل أن يقتلها: «كانت صديقتي لمدة طويلة، لم تكن نتزاور كثيراً، ولكنها كانت تطلعني على أدق أسرارها ... وعندما عرفت أنني سأترك المدينة لأعيش في مزرعتي البعيدة، بكت وأخبرتني أن زوجها ينوي قتلها.. واعترفت لي بأنه فاجأها وهي تضاجع صاحبها». سكنت واختلست نظرة خاطفة إلى وجهه .. أريدت بصوت حزين: «لم أرها منذ زمن طويل .. ولكنني عرفت أخيراً أنها أختنت .. أو قتلت .. ولكنهم لم ينجوا جثتها، ففشلت المحاكمة .. وأفلت الجاني» (ص: ١١٩).

ولم يكن هذا الجاني سوى ذلك الرجل الذي أفلت من حكم العدالة، وجاء إلى ذلك المكان في رحلة وهم وخداع وكذب وتضليل. وبذلك انكشف السر.

وتبدو الرحلة إلى حافة الفردوس خداعاً في خداع، أو سراباً يظن الظمان أنه ماء في وسط الصحراء، لكنه لا يلبث أن يكتشف أنه وهم!

وحين اكتشفت العجوز حقيقة الرجل، قتلها، ثم قتل الجميع بالسم، عدا الطفل. وقتل الحارس الذي باغته بالبندقية، ثم مات هو بالسم ذاته، الذي أجبره الحارس - قبل اغتياله - على تجرعه: ويبدأ مشهد الموت

بمجموعة من البشر، تركوا الأهل والأهل والسلطان، واعتزلوا حياتهم، وفروا إلى تلك المزرعة، من أجل أن يعيشوا في خيام، وفي مناخ نقي صاف.

وكانت هذه المجموعة تضم خليطاً من البشر، بينهم الكبير والصغير، ومنهم المفكرون وغير المفكرين، والمخادعون وغير المخادعين، والعالمون وغير العالمين .

ولم تكن الرحلة إلى ذلك المكان سهلة ميسرة، بل كانت مضنية، خاصة للمفكرين منهم، كما قال قائد تلك الرحلة الأب العظيم الذي أضاف: «التجربة الروحية أثبتت لنا جميعاً أن أهل الفكر يعجزون تماماً عن إدراك الحقيقة الخفية ورؤية الأنوار السماوية، إذا هم أسلموا القيادة إلى سلطان العقل المجرد» (ص: ٢٩).

ودعاهم هذا القائد للرحلة - والتجربة - إلى ضرورة أن يكونوا شركاء في كل شيء، وخاصة، في التفكير في أي أمر، أو في اتخاذ القرار: «لكن غاييتنا قدس الأقداس، وأنوار الفيض والإشراق» (ص: ٣٠).

إن هذا القائد للتجربة، استأجر المزرعة - التي أقام فيها مخيماً - من امرأة عجوز ذات دهاء، إذ كانت تعرف السر الذي أخفاه الرجل عن الجميع. وجعل ابن هذه العجوز حارساً على المخيم حتى لا يهرب أحد منه.

بالسم مأساويًا، معبراً عن الفاجعة التي حلت بمعظم الشخصيات

ولا تظهر هذه الشخصيات من خلال أسماء محددة لها، بل من خلال تجريد في الاسم، كالأب العظيم، والمرأة العجوز، والحارس والفتاة الجميلة - وهي فتاة موهوبة تجيد الرسم - والفتى الجميل - وهو عازف موهوب يعشق الموسيقى: لغة الأرواح - والرجل الطويل والمرأة الطويلة - وهما زوجان ووالدا الطفل - والمرأة الضعيفة، والفتاة البدينة، والفتى النحيف، والرجل الأصم، والفتاة السوداء، والرجل الأشقر، والمرأة الشقراء، والصديق بطل حمل الاثقال، والضابط، والجنود، والطفل الذي لا يكف عن اللهو والمرح ببراعة ودهشة، وهو الوحيد الذي يبقى حياً بعد موت كل من جاء إلى تلك الأرض الصغيرة.

إنها شخصيات تصارع من أجل البقاء في تلك الأرض، لكنها كانت تعيش وحاً صنع لها الأب العظيم، وأسهمت هي في نسجه، وفي تصديقه. عاشت هذه الشخصيات عزلة رهيبة ومعقوتة، حتى قضت عليها نيران الخديعة والوهم، والفردية، والأهواء والرغبات الجامحة، والعواصف الهوجاء.

ولم يكن الأب العظيم سوى مخادع عظيم، استطاع أن يخدع كل الشخصيات،

باستثناء المرأة العجوز التي كشفت أعيابه، كما استطاع أن يسيطر على المجموعة التي كان قائدها، بوصفه المحرك والعقل المدبر والمؤثر، والمصور الرئيسي في المعالجة الروائية.

والصراع يحتدم في أعماق الشخصيات: بين القهر، والعدالة، والمادة والروح، والواجب والخطيئة، والهروب والضلال، والام والشفاء، والندس والظاهرة، والحياة والموت أو البقاء والغناء، والجزء والكل، والوهم والحقيقة، أو الخديعة والصديق.

فالفتاة البدينة تقول - موجهة كلامها إلى الفتى النحيف، معبرة عن جانب من جوانب ذلك الصراع والخديعة -: «كلنا نعرف أننا خدعنا، وأنا جئتنا طلباً للشفاء من الخديعة» (ص: ٦٠) .

وتسود مناخات القتل، والغزع، والرعب؛ مجسدة أبعاد المأساة التي شهدتها الجميع، وكأن الدمار لهذا الوضع، أو السلوك من العزلة والوهم والتوقع، يأتي من داخل حياة تلك المجموعة التي رخصت بالعزلة... معبراً عن الانهيار الكبير لذلك الشكل المتداعي في الواقع .

ومسواء أكان الإطار أو المكان لذلك الصراع مادياً واقعياً، أم معنوياً متخيلاً، فهو إطار مكاني جاء مجسداً للصراع بين

وتحتل الرواية التفسير من منظور واقعي، يراها معالجة لجريمة ارتكبت في الخفاء، ثم قر الجاني كى يتخفى بعيداً عن أعين العدالة، واضعاً أقنعة من الخداع والرهف والدهاء، حتى لا ينكشف أمره. لكن عندما ظهرت الحقيقة ووضعت كاشميس في رائحة النهار، تحول مارداً شيطانياً أسطورياً، يقتل الذين خدمهم، مرتكباً جرائم جديدة تصاف إلى جريمته السابقة.

وبالمثل، فالرواية تحتل التفسير من منظور رمزي، يرى الأب العظيم رمزاً إلى قوة السلطة المهيمنة على المغلوبين على أمرهم. وهو رمز إلى السلطة - بوجه عام - يبطشها وقهرها وقوتها وسيطرتها. لكن هناك ما يسمى السلطة الاستعمارية، أو السلطة السياسية، أو السلطة الاجتماعية، أو السلطة الدينية، أو السلطة الفكرية، وهذه هي الأقرب. وباقى الشخصيات يرمز إلى المخدوعين الذي جاؤا إلى العزلة القاتلة، ثم اكتشفوا أنهم عاشوا في وهم، حتى قتلوا. والطفل - الذي بقي - يرمز إلى الأمل في أمان حقيقي، لكنه مفقود. أما الشجرة العتيقة فترمز إلى الخصوبة والحياة والمعرفة. وأما التفاحة فترمز إلى الفاكهة المحرمة. أما القتل فيرمز إلى العنف قديماً وحديثاً .

ربما تحتل الرواية - شأنها شأن أي

الشخصيات، بمواصفاتها الجسمية أو دلالاتها الواضحة إلى الأنماط المتنافرة التي جمعتها الخديعة، لكن فرقتها العزلة، وشتتها المكر والعنف والقتل، وقضى عليها الانهيار النابع من سلوك همجي، لا يستقيم مع منطق العصر الراهن، ولا يتماشى مع معطيات الحضارة والتطور .

ولئن جاء التجريد في المكان، متوافقاً مع التجريد في الزمان، فهما مع التجريد في أسماء الشخصيات، من أبرز الأمور التي تجعل الرؤية - بوجه عام - تميل إلى الرصد التجريدي الذي يعطى هيكلًا عامًا للعزلة بوصفها ظاهرة مرصودة، دون أن يفقد المعالجة أهميتها الفنية العالية، تجسيداً وتمبيراً، عن عالم متخيل، ولكنه وثيق الصلة بواقعنا العربي .

فحين يغيب منطق العقل، وحين تكون الخديعة هي الأساس في التعامل بين البشر، وحين يسود سلوك العزلة.. يمكن أن يحدث أي شيء، غدرًا وقتلاً، على النحو الذي حدث في تلك المناسبة الرهيبة، التي تومئ إلى صورة الإنسان الضعيف، فكراً وسلوكاً وموقفاً .. في زمن يهتز فيه الإحساس بالقيم السامية، كما تومئ إلى ما يحدث في مناطق كثيرة في العالم - حتى يومنا هذا - من عنف ودمار، وتخريب وإرهاب.

انعكاساتها على حياة الإنسان المصري من جانب، والمجتمع ككل من جانب آخر.

فالمعالجة الفنية للظاهرة، تكشف - في النهاية - عن حجم التغير الكبير الذي حدث في مجتمعنا، في ظل الانفتاح منذ حقبة السبعينيات حتى الآن ونحن في نهايات التسعينات. إنه تغير متسارع، يتزامن مع التغيرات المتسارعة في عالمنا اليوم.. بوصفنا جزءاً من كل .... ولا ننقص عن الذي يحدث من حولنا. فكيف عالج الروائي هذه الظاهرة روائياً ؟

ما إن تبدأ الرواية، حتى تواجه مشهداً يصف موكباً فخماً وضخماً.. يقول الروائي: «تحرك الموكب الفخم، خارجاً من ساحة المطار إلى الطريق الرئيسي. في المقدمة يزمرج موتوسيكلان كبيران، ويطلقان أصوات «السايرنة» المميزة والإشارات الضوئية. من خلفهما تزحف المرسيدس الحمراء، وعلى جانبيها سيارتان سوداوان تلمعان في وقار. وفي الخلف «ميني باص» مملوء بأصوات تزعق في حماس. انفرجت ملامح الحاج قطب الممتنئة، وسرى فيها حيوية الانبساط والرضا. أعجبه شكل الموكب ومظاهر الأبهة، فخرج من عباته المقصبة، وتمطى على راحته في مقعد المرسيدس الخلفي» (ص : ١).

هذا المشهد الافتتاحي في المعالجة، يعبر

عمل غنى بدلالات - تفسيرات أخرى، سواء جاءت واقعية، أو تاريخية، أو دينية، أو رمزية، أو تجريدية.. لأن الرؤية تقبل أكثر من تفسير.

ومن ناحية أخرى، فالروائي استطاع أن يجسد الصراع، وذلك من خلال حركة الأحداث وتشابكها، ورسم الشخصيات، وبناء المشاهد المعبرة. وإن أسرف في التعبير عن مشاهد الجنس .

٢ - فرس النهر... والجنشع المميت:

إذا كان الروائي نبيل عبد الحميد في روايته «حافة الفردوس» يخلق في أفاق واقعية وتجريدية ورمزية، فإنه في رواية «فرس النهر» يهبط إلى أرض الواقع، مقدماً رؤية لظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية في مصر، وهي ظاهرة ما يسمى بالانفتاح الذي شهدناه في الربع قرن الأخير من القرن العشرين. هذه الظاهرة وإبدة التغيرات والتحولات في زمن الانفتاح أو عصره، ولها تأثير ملموس في الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وهو تأثير ظهر في مجتمعنا إن سلباً، وإن إيجاباً.

إن الروائي يضع هذه الظاهرة تحت مجهر الرصد الفني، وذلك من خلال معالجة تتناول أبعاد الظاهرة وتجلياتها ومؤثراتها والظروف المحيطة بها.. مشيراً إلى

ولم يكن ذلك الطريق سوى : بناء المبانى المخالفة، مثل برج التوحيد والنور، وشراء الاراضى بالطريقة الصحيحة أو الملتوية، وتنفيذ المشروعات الصورية أو الوهمية من أجل رعاية مصالح الناس والتخفيف عنهم، كما يزعم القطب ( ص : ٢٧ )، فالرجل بوضعه الجديد ومركزه، سيكون بعيداً عن الشبهات، قريباً من مراكز السلطة ( ص : ٢٦ ) . كان رجلاً داهية، عميق القرار، يفكر بألف رأس كى قلت .. كما وصفه أبو العيون ( ص : ٢٦ )، إن هذا الرجل فيه نصيب من اسمه القديم، الذى حاول أن يهرب منه أو يتناساه، وفيه من حشرة فرس النبى - الرمز والدلالة - أنه يعيش حالة متطفلاً على التهام غيره .

هكذا يظهر هذا النمط البشرى فى الرواية، كآته شخصية أسطورية، مثله مثل الأب العظيم فى رواية «حافة الفردوس» وإن اختلفت الشخصيات فى الدوافع والرغبات، وفى التكوين النفسى والاجتماعى والثقافى. نراه من بحضوره الأسطورى القوى فوق مسرح الأحداث - كآته كائن خرافى، أو ديناصور منقرض - لكنه يأتى ملتهمأ كل شىء .. حتى الناس، والقيم والأخلاق. لا شىء يعنيه سوى الكسب والمال بالطرق المشروعة وغير المشروعة!

من هنا، فهو نمط مسيطر ومهيمن على

عن صورة صغيرة لموكب كبير، كآته لسنول أو ملك، أو رئيس، لكنه يدل على مسوكب الشخصية المحورية فى الرواية، بوصفها رمزاً من رموز الانفتاح. الموكب ينطلق متحركاً من المطار حتى يصل - أخيراً - إلى مدينة نصر، حيث يتوقف عند السرادق الكبير، أمام عمارة الحاج قطب، الذى عاد - ثوياً - من رحلة الحج المباركة.

إننا إزاء شخصية ذات طبيعة مركبة وغامضة، تثير الشك، وتدعو إلى التساؤل: مَنْ هو هذا الرجل؟ ما ظاهره وما باطنه، أو ما الذى يظهر منه .. وما الذى يختفى ؟

كان هذا الرجل يعيش فى قصر كبير وواسع، يحتشد فيه الأثاث الفاخر، ويحيط به الأعمان والخدم. بدأ نباتاً من نباتات برية، ظهرت فى مناخ مغاير لما كان سائداً من قبل ظهور الطبقة الانفتاحية، وكآته نبت فى أرض غير الأرض. إنه « المعلم فرس النبى»، الشخصية التى انتهت كما يقول صاحبها، لأنه أصبح - الآن - الحاج قطب، بعد أن ترك طريق المخدرات إلى طريق آخر، كما كشفه أبو العيون - زميله وكاتم سره - وإن حاول الحاج أن يؤكد له : «أن شخصية الحاج قطب ستكون أفضل مليون مرة من شخصية المعلم فرس، لأنه اكتشف طريقاً آخر، أجدى وأسرع فى جمع المال، ويلوِّغ «مركز القوة، من طريق تجارة المخدرات» (ص : ٢٥) .

بسلوكها الإيجابي .. في مقابل النماذج السلبية لتحقيق تباين بين نوعيتين من الشخصيات حتى لا تكون كلها من نوعية واحدة.

ولأن الحاج كان يجيد قواعد اللعبة، فهو بارع في تنفيذ الصفقات. لذا حين التقى «المكشوف» - وهو شقيق أحد الوزراء - حاول أن يوهمه أنه مواطن صالح، ويسعى لرفع المعاناة عن الحي الذي ينتمي إليه، مقررًا إنشاء مجمع خدمات خيري، يشمل مستشفى، وجامعاً، ودار حضانة. وذلك على قطعة أرض كبيرة، استولت عليها الوزارة لبناء النادي الرياضي. أما المطلوب من «المكشوف» فهو أن يقطع شقيقه بأن قطعة الأرض هي للحاج قطب، ينقل ملكيتها إليه بشكل قانوني، نظير رشوة خمسة ملايين جنيه.

فالرشوة، والخذاع، والادعاء، والمناورة، والجشع، والطمع .. جاءت كلها مفردات في لغة تعامل الحاج مع الآخرين. والآخرين كانوا واقعين في دوامات الانتهازية والتفعية والواجبة، مما يدفعهم إلى السقوط في مستنقع الوهم.

ويقدر الحاج أن يدخل لعبة الانتخابات، من أجل أن يصبح عضواً بمجلس الشعب، لهذا فإنه يعتمد على خبرة صديقه المأمور وعلاقاته، في مساعدته، وفي الوقوف إلى

كل ما حوله: أهل بيته، وزملاء الكفاح البقيض، وأعدائه، ورفقة السهر والفساد، ومعارفه من مسئولين في بعض الأجهزة الشعبية والحكومية.. وكأنه الولاء الذي يحل في مكان، فلا يتركه سوى خرابا .

وتبدو الشخصيات الأخرى في الرواية، أشباحاً بجوار تلك الشخصية / المحور. لكنها شخصيات مئة من لحم ودم، فيها من الضعف أكثر مما فيها من القوة. إنها شخصيات تدور حول المحور والقطب، منها عباس معاونه وساعده الأيمن القوي، الذي يريد الزواج من فائزة. وأنشراح زوجة الحاج قطب، وأم البنات، وكانت زوجة الأسبوطي الموجود في السجن، وفائزة وحسنية هما ابنتا أنشراح من الأسبوطي. والمأمور ياسر الشاهد الذي تنازل الحاج له عن قطعة الأرض التي حاولت وزارة الداخلية أن تحصل عليها، لكن الحاج رفض. وأبو العيون زميل التجارة القديمة. والمهندس مدكور الذي استغنى الحاج عن خدماته، لأنه وضع مبلغ مليون جنيه كإكراميات في تكلفة الأنوار العشرة المخالفة في البرج السكني. واللواء عبيد الجابر وزوجته. وبركات وزوجته عفاف، وغيرها من حشد كبير من الشخصيات التي تتسم كلها بالسلبية، دون أن يكون هناك حرص على تقديم شخصيات أخرى، تتسم

جواره.

يرسم صورة لموكب الحاج القادم من الأراضي الحجازية. والمشهد الذي يحمل رقم (٥٦)، وهو يجسد مواجهة بين عباس والقطب من ناحية، والقطب والمكشوف من ناحية ثانية، والمشهد الأخير، الذي يأتي ختاماً لمساة الحاج، مصوراً ضياعه بين الماضي والحاضر، والوهم والحقيقة، والهبوط والصعود، والحياة والموت، والحزن والفرح.. فالولد راح كما أتى، وينتفض الرجل لامناً، محاولاً الخروج من جوف الكابوس الثقيل.. وينتبه محدثاً نفسه : «قم يا فرس النبي، انشط يا رجل فالיום عيدك» (ص: ٢٢٠). ونراه - وهو يتخيل لحظة دخوله قاعة المجلس - يخطو ثابثاً متعالياً الهامة، إلى عالم المقاعد الكبيرة اللامعة، والميكروفونات اللغوية المتناثرة، ووجوه الزملاء والوزراء ورجال الأعمال .. تبسم كلها في ارتياح، وتتكلم في اطمئنان، هذا الرجل أكثر ارتياحاً وانشراحاً .. وتساؤل بينه وبين نفسه : «أين ملايسي الجديدة؟ أين ملابس مجلس الشعب الموقر» (ص: ٢٢١).

ثم تنتهي الرواية نهاية مفتوحة هكذا: «وعندما هم من سريره، انفجر صوت الطلقة النباغية وهي تحض بأذنه في سرعة رهيبة» (ص: ٢٢١). إنها نهاية تثير التساؤل : أمات الرجل، أم أصيب؟

وعندما كان يتطلع إلى صورة في تائر واضح، أخذ يقربها من عينيه وهو شارد في تشويق. كانت الصورة - كما يذكر الراوي - لأخيه عبد التواب، الأخ الأكبر والوحيد، بعد أن مات الآخرون، أكلهم القدر في حوادث متلاحقة، الواحد تلو الآخر، اجتثهم من غير رحمة من شجرة العائلة ليبقى هو البرعم الوحيد في شجرة أبيه ... ( ص : ١٥٨ ) .

ويتدفق نهر الخواطر - والحاج يحرك جمرات الشيخة بأصبعه، ويشد نفساً متراحياً : - «ومن يدري .. فقد يباغت القدر ويأكله هو أيضاً، في أي لحظة، وكما أكل كل أخوته، معقول يأكله قبل أن يرى الولد، ويضعه إلى أحضانته، ويتأكد أنه يحمل ملامح أبيه، أو جده، أو ملامح عمه عبد التواب. معقول يأكله قبل أن يمتلى مقعده في مجلس الشعب، ويتمكن منه، فيقطع بذلك السنة أهل بلدته التي تناولت على عائلته، عائلة فرس النبي، وحاصرت أباه حتى مات مقهوراً» (ص: ١٥٨) .

وبقدر ما يعنى الكاتب بتحريك الشخصيات على كثرتها داخل المشهد الواحد، بقدر ما يعنى ببناء المشاهد على كثرتها - كذلك - في النص الروائي. وهناك مشاهد كبيرة، يجيد الروائي رسمها، كما تتبدى في الرواية، كمشهد البداية، الذي

والشخصية من الداخل، والتشويق الذي يشير إلى الفن الجيد في إخفاء الفن، كما قال جون درايدن.. - فإن الكاتب استخدمها كذلك في روايته الثانية.

وفيما جاءت الرواية الأولى في اثنتي عشر مشهداً، فإن الثانية جاءت في ثمان وستين مشهداً.

وإذا كانت الرواية الأولى انتهت بنهاية حاسمة، إلا أن الرواية الثانية انتهت بنهاية مفتوحة، تثير التساؤل.

وأخيراً، فإن رؤيتي نبيل عبد الحميد الإبداعيتين في روايتيه: «حافة الفردوس» و «فرس النبي»، تتوازيان لتؤكد أن ثمة تبايناً بينهما في الموضوع، وفي المعالجة الفنية، مما يسهم في إثراء المشهد الروائي عنده بصفة خاصة ، وفي تجربته مع الرواية بصفة عامة .

ومهما كانت النهاية، فهي تبعث على التفكير في تلك الظاهرة التي لم تختف من حياتنا، بوصفها إحدى ظواهر التغير المتسارع في زمن الانفتاح. وكان الكاتب موفقاً في تجسيدها روائياً، سواء من حيث الرصد، أو التعبير .

#### ملامح الاتفاق أو الاختلاف:

يبقى أن نقف - في النهاية - عند وشائج صلة القربى بين هاتين الروايتين، لنرصد ما يبينهما من ملامح، إن اتفاقاً وإن اختلافاً ، وذلك من خلال ملاحظات موجزة.

فالروايتان: «حافة الفردوس» و«فرس النبي»، تعتمدان على راو من الخارج، يرصد حركة الأحداث، ويعبر عن كل شيء في المواقف المطروحة في الرؤيتين. فهو ماسك الخيط، والسارد، والمعلق على الأحداث. وهو صوت معبر عن صوت الروائي الذي يطل من وراء قناع الراوي.

وفيما تميل الرؤية في الرواية الأولى إلى التجريد في الإسم والمكان والزمان، فإن الرواية الثانية تميل إلى التحديد الواقعي في الملامح المشار إليها .

وإذا كان الكاتب في الرواية الأولى يستخدم تقنيات للتعبير عن عالمه الروائي مثل : الحوار والمناجاة، والتصوير والتجسيد، والصراع، والحلم، والاسترجاع،



## مؤتمر طهران لحوار الحضارات

د. محمد السعيد جمال الدين •



وجهت الحكومة الإيرانية الدعوة للجنة المصرية للحوار الحضاري للمشاركة في مؤتمر طهران الذي عقد يومي الرابع والخامس من ديسمبر ١٩٩٩ بمقر وزارة الخارجية بالعاصمة الإيرانية، وشارك في المؤتمر ممثلون عن كل من مصر وإيران وإيطاليا واليونان، باعتبار هذه الدول ممثلة للحضارات القديمة التي ساهمت بنصيب بارز في تكوين الحضارات الحديثة .

وكان السيد عمرو موسى وزير الخارجية، قد دعا منذ نحو عام ونصف مجموعة من أساتذة الجامعات المصريين للمساهمة في تعزيز ثقافة الحوار بين الحضارات كبديل عن ثقافة الصدام الى دعا إليها بعض المفكرين الأمريكيين من أمثال منتجتون وفوكاياما . سيما وأن مصر قد ساندت الدعوة إلى هذا الحوار على المستوى الدولي في الأمم المتحدة .

وعقدت المجموعة سلسلة من اللقاءات الفكرية تمهيداً للمشاركة في مؤتمرات دورية تعقد في عواصم الدول الأربع المذكورة على التوالي وتنتهي قبل حلول عام ٢٠٠١ الذي اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة عاماً لحوار الحضارات .

وشاركت اللجنة ببعض أعضائها في المؤتمر الأول الذي عقد باليونان في ربيع ١٩٩٩ .

وقد شاركت اللجنة في المؤتمر الثاني الذي عقد بطهران في أوائل ديسمبر ١٩٩٩ بوفد كبير، تقدّمه السفير نبيل بدر مستشار وزير الخارجية، وضم الوفد كلاً من الدكتور محمود مكي أستاذ الدراسات الأندلسية بجامعة القاهرة، والدكتور محمد \* أستاذ ورئيس قسم لغات الأمم الإسلامية بكلية الآداب، جامعة عين شمس .

حسن وهبة أستاذ الحضارات اليونانية والرومانية بجامعة عين شمس، والدكتورة فايزة هيكل أستاذ الحضارة المصرية القديمة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، والدكتور محمد شفيق أستاذ علم الاجتماع بجامعة عين شمس، والدكتور محمد السعيد جمال الدين رئيس قسم لغات الأمم الإسلامية بجامعة عين شمس .

وكانت مهمة كل وفد من الوفود المشاركة أن يعرض رؤيته العلمية في مدى ما تحقق من تفاعل إيجابى بين الحضارات الأربع، الأمر الذي يسهم في دعم الاتجاه نحو الحوار والتفاهم المشترك واحترام ثقافة الآخر والقبول بالتعددية الحضارية ومواجهة الدعوة في الوقت نفسه إلى الصدام والنزاع .

وقد افتتح المؤتمر السيد كمال خرازى وزير الخارجية الإيرانية بكلمة جامعة عن الدور الذى تميزت به الدول الأربع عبر العصور في تحقيق التقدم للبشرية في شتى مجالات العلم والمعرفة.

وألقي السفير نبيل بدر كلمة مصر فعبّر عن دعمها لثقافة الحوار وحرصها على أن تنهض هذه الثقافة على أسس علمية رصينة تسهم في التقارب والتواصل البناء بين الأمم والشعوب.

وحين جاء دور الأبحاث المتخصصة كان للوفد المصرى النصيب الوافر. فقد تحدثت الدكتورة فايزة هيكل عن نشأة الحضارة المصرية وخصائصها المؤثرة في حضارات العالم القديم . كما تحدث الدكتور محمد حسن وهبة عن الديانة المصرية القديمة وأثرها في الديانة اليونانية. وكان بحث الدكتور محمد السعيد جمال الدين عن مصر الإسلامية ونورها في التفاعل الحضارى، ودار بحث الدكتور محمود مكي حول انتقال الحضارة الإسلامية إلي أوروبا عبر الأندلس، أما بحث الدكتور محمد شفيق فدار حول أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية.

ومن المقرر أن يُعقد المؤتمر الثالث للحوار الحضارى بالقاهرة في شهر نوفمبر المقبل إن شاء الله . .

## مؤتمر العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ

د. أحمد إبراهيم الشعراوي \*

عقدت في الفترة من ١٦ إلى ١٨ من شهر نوفمبر ١٩٩٩م الندوة السنوية لاتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، وذلك بقاعة فندق دار الإمداد والتموين بمدينة نصر، وكان موضوع الندوة «العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ» وذلك على مدى ثمان جلسات صباحية ومساءية، واشترك فيها عدد كبير من مؤرخي كافة الدول العربية الأعضاء بالاتحاد.

وقد تناولت موضوعات الندوة عصور التاريخ المختلفة: القديم والوسيط والحديث، وحفلت بالموضوعات بنقاش مثير للعديد من النقاط الهامة عن: خطط الراشدين في البحر المتوسط، والمحاولات العربية لفتح القسطنطينية في العصر الأدوي، ومعايير الحضارة الإسلامية إلى الغرب الأوربي، وبطبيعة الحال فإن المعبر الرئيسي والهام للحضارة الإسلامية إلى أوروبا كان هو بلاد الأندلس، ولذا فقد حظيت الأندلس بنصيب وافر من محاور الندوة ومن المناقشات المستفيضة لموضوعات أهمها: علماء الأندلس وبورهم في التصدي للقوى الأوربية المسيحية في عصر ملوك الطوائف، وقاعدة نيربنة، وبورها في الجهاد ضد الفرنجة والتوسع في أوروبا، والتاريخ السياسي لمدينة أسنجة الأندلسية، وانتقال العلوم الطبية عند المسلمين إلى أوروبا وأثر ذلك في تطور علم الطب عند الأوربيين. أما موقعة بلاط الشهداء وفتوح المسلمين فيما وراء جبال البرتات فقد كانت مثار نقاش وتعليقات كثيرة لأهمية هذه الموقعة. وكذلك كان الحال بالنسبة لسقاية، وهي أحد المعابر الحضارية الإسلامية إلى أوروبا، والنشاط البحري الفاطمي في صقلية وجنوب إيطاليا.

كذلك ألفت بعض الموضوعات الضوء على العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين العرب وأوروبا في العصور الوسطى، وأشارت إلى التأثيرات الحضارية المتبادلية بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام.

وأما في مجال التاريخ الحديث فقد كان هناك موضوعات أهمها: جنود التنافس الأوربي في الخليج، ومؤسسة التجارة الإنجليزية الميزانية السعودية لسنة ١٩٤٢ في ضوء الوثائق الأمريكية، وشركة ما تسمان والصراع على امتيازات المناجم في مراكش.

وهكذا نرى تنوعا في موضوعات التاريخ المختلفة في كافة عصوره القديمة والوسطى والحديثة.

وعلى كل حال فقد كانت هذه الندوة فرصة طيبة لجمع حشد كبير من مؤرخي العرب الذين ينتمون إلى كافة الدول العربية للتباحث وتبادل المعلومات والخبرات للتهنئة بالدراسات التاريخية في كافة بلدان العالم العربي.

والله نرجو أن يوفقنا إلى ما فيه خير أمثنا إنه نعم المولى وبه التوفيق والسداد

\* أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية، بكلية البنات - جامعة عين شمس .

## المادة غير العربية

\* البحث

\* المقال النقدي

## طفولة وكهولة

### قصيدة بالفرنسية: د. نفيسة عيش

ترجمة: د. كاميليا صبحي \*



الطفولة تعادل الكهولة

الطفولة عكس الكهولة

أى روعة وجدة!

أى فرحة وعنوية !

انتظار ميلاد .. طفل

\*\*\*

أى قبح ودمامة !

أى ألم وبؤس

انتظار موت .. كهل

\*\*\*

دعابة أم سخرية ؟

قسوة أم سخاء ؟

عيون محدقة ، صراخ ، دموع

وجوه نضرة ، تقطيب وخوف

هلهو وصخب

عيون ناعسة، أفواه مقوسة

نظرات صامتة، ملامح متهدلة

أبدان متاثلة ، صارمة ، مفزعة

ما الذى يحدث ؟

\*\*\*

هيا سريعا ، نبحث عن دار حضانة

هيا سريعا ، نبحث عن مدفن

بحاجة نحن إلى نصائح طبيب أطفال

\* أستاذ اللغة الفرنسية ، وعميدة كلية البنات - جامعة عين شمس .

\* أستاذ مساعد بقسم اللغة الفرنسية - كلية الآلسن - جامعة عين شمس

بحاجة نحن إلى طبيب مسنين  
حليب ، مقويات  
حليب ، مقومات  
وهن ، وضعف .. وحكمة  
تعلم ، تعلم .. وقلة خبرة  
غيرة ، تكشيرة ، دفء ، حنان  
أجساد دافئة  
قلوب حانية  
أطفال عجائز  
وعجائز أطفال

\* \* \*

معا جالسين على ذات الأريكة ..  
على ذات الأريكة ،  
عجوز هزيل ضامر ،  
وطفل ينصت بشغف  
وقد ضمت الأقدام ، وارتكزت الأيدي على الأنتان  
واحد يحكي ، والآخر ينصت  
لكن ، كل هذا غير دائم ..  
لنحكي حكاية الجنرال «دوراكين» ، لا بل عقلة الإصبع!  
نفاذ صبر .. إيماءات .. كر وفر  
إنه يتأرجح ، لا يثبت على حال .. يجرى  
الطفل البريء ، «جافروش» المتقلب  
يغنى ، يغنى ، يغنى ، ويغنى !  
صبرا أيها العجوز ذو الثمانين عام.

\* \* \*

أيها الصغير  
اغتنم فرصتك ، وانعم باستقلاليتك  
بفضولك ، بابتكاريتك  
داخل عالمك المحدود ، واكتشف ، اخترع ..  
وأنت أيها الكهل الحكيم  
لم التشييب بالماضي ؟  
جنتك فقدت إلى الأبد ..  
أمازلت تحب شخصية «شبرويان» لبومارشيه

أُتعيد قراءة «بلا عائلة» لهيكتور مالو  
 دع عنك هذا الحنين  
 أمض في حياتك ، حاول ،  
 واجعل صغارك يحاولون ..  
 أعد على أسماعهم ، إن شئت ، حكمك  
 تحرك أمض بسعادة  
 سواء كنت في الثمانين من العمر أم بلغت المائة ..  
 اغتتم أيامك الأخيرة  
 تحمل ، ابتسم ثم امض إلى حال سبيك ..  
 وداعا أيتها الحكمة ، أيها الإخلاص  
 وداعا للقمط ، للملابس الأطفال ولباس البحر  
 وداعا للقلنسوة ، لطاقم الأسنان ، والكوفية والعصا  
 وداعا للسيرك والمهرج والحاوي

\* \* \*

وداعا للقراءة ، وداعا للخبرة  
 وداعا للخط ، وداعا للمخاطر  
 كم كان هذا عذبا ، بديعا  
 واليوم .. أى ثورة ، أى حنق  
 تجاعيد ، شعر متساقط  
 صعوبة تنفس ، أنين  
 صوت أجش ، لاهث ، أنفاس متقطعة  
 هيا ، استمر

في سرد حكاياتك الخيالية  
 احك لهم قصة «الأطفال غير المحتملين» لكوكتو  
 ولتكن ميتتك رحيمة ، رحيمة  
 أو قص عليهم «أميل» لروسو  
 عالم سحري أو طوباوى ؟  
 علاء الدين فوق بساطه السحري  
 يجوب العالم مع فيلمه السينمائي

\* \* \*

الطفولة والكهولة  
 يشهدان ويؤكدان  
 أن الثقافة .. خير ملاذ للإنسان .

Vos contes de Fée  
Cocteau et les Enfants Terribles  
Ah! que votre Mort soit très Douce  
Émile et Émile chez Rousseau  
Était-ce magique ? Était-ce utopique ?  
De voir Aladin sur son tapis ?  
Parcourir le monde avec la cassette ?  
Enfant et Vieux certifient et prouvent  
Que l'asile le plus sûr  
C'est au sein de la culture.



Dans ton univers clos, découvre et invente  
Mais pourquoi se pencher  
Vers le passé  
Sage vieillard ?  
Ton paradis est irrémédiablement perdu  
Aimes-tu encore le Chérubin de Beaumarchais ?  
Relis-tu le Sans - Famille de Hector Malot ?  
Oublie cette nostalgie  
Passe ta vie et essaye  
Et tes petits enfants doivent essayer

Répète si tu veux  
Tes proverbes fabuleux  
Marche et bouge avec plaisir  
Octogénaire ! centenaire !  
Profite de ton dernier séjour  
Supporte, souris, et péris...  
Adieu, adieu sagesse et foi  
Adieu lange , layette et maillot  
Adieu bonnet, dentier, foulard et canne  
Adieu cirque, clown, prestidigitateur

Adieu lecture, adieu expérience  
Adieu fortune, adieu dangers  
C'était délicieux ! c'étaient merveilleux !  
Aujourd'hui quelle révolte ! quelle fureur !  
Les rides, les cheveux tombés  
Respirer, gémir difficilement  
Voix rauque et essoufflée  
Allez, allez, continuez

Et vite, vite à la recherche  
D'un cimetière  
Le besoin et les conseils d'un pédiatre  
Où est-il notre cher gérontologue ?

Du lait, des vitamines  
Du lait, des vitamines  
Faiblesse - Faiblesse et sagesse  
Apprentissage - Apprentissage et maladresse  
Jalousie, bouderie, tiédeur, tendresse  
Corps tiède  
Coeur tendre  
Enfants Vieux !  
Vieux enfants !

Ensemble sur un banc  
Sur un banc, un vieillard presque momifié  
Sur un banc, un enfant certes intéressé  
Les pieds joints, le menton appuyé  
L'un raconte, l'autre entend  
Pas pour longtemps  
Le Général Dourakine, non les Petites Filles Modèles  
Les aventures de Télémaque, non Le Petit Poucet  
Impatience, gestes, fuite et poursuite  
Il se balance, remue et court  
Candide enfant, capricieux Javaroche  
Chante, chante, chante et chante !  
Octogénaire, patiente !

Enfant  
Profite vite de cette indépendance  
De ta curiosité, de tes créations

# *Enfance – Vieillesse*

*Dr. Nefissa Eleiche \**

*Enfance = Vieillesse*

*Enfance ≠ Vieillesse*

*Que c'est beau ! C'est nouveau !*

*Quelle joie ! Quelle douceur !*

*L'attente ! La naissance*

*D'un enfant !*

*Que c'est laid ! C'est périmé !*

*Quelle douleur ! Quel malheur !*

*L'attente ! La mort*

*D'un vieux.*

*Plaisanterie ou moquerie ?*

*Cruauté ou générosité ?*

*Yeux ouverts, cris et pleurs*

*Visage frais, grimaces et peur*

*Assez léger, assez bruyant*

*Yeux cachés, bouches courbées*

*Regard muet, traits abîmés*

*Corps pesants, effrayants et serrés*

*Mais que se passe-t-il ?*

*Vite , vite , à la recherche*

*D'une pouponnière*

---

\* - Professeur de littérature française- Département de langue et de  
littérature française – Faculté de jeunes filles – Université Aïn - Chams

## ملخص

## المؤتمر الدولي للتربية والتدريس والتدريب

د. حسن مصطفى \*

انعقد المؤتمر الدولي للتربية وتدريب المعلمين في جولته العالمية بمدينة مسقط - سلطنة عمان - وقد أثيرت موضوعات في المؤتمر ذات صبغة دولية، وذات تطبيقات محلية، تتعلق بنظام التعليم الأساسي، وبتوظيف المعلومات التكنولوجية. وقد انحصرت هذه الموضوعات في ثلاثة محاور.

أما المحور الأول فيختص بعرض برنامج لإصلاح التعليم الأساسي وتطويره. إذ ركزت البحوث المقدمة على «ضرورة تنمية التفكير النقدي» في منهج التدريس، والعمل على حل المشكلات والمهارات الحياتية للطلاب المتعلم العماني الصغير، التي تمكنه من مساهمة التطور العلمي العالمي ومواكبته. وقد أكدت كذلك على ضرورة زيادة ساعات تعرض الطالب لموضوعات اللغة الإنجليزية والرياضيات والعلوم، بالإضافة إلى تعامله مع تكتيك المعلومات، ومهارات الكمبيوتر. وقد اهتم المسئولون في عمان بتطبيق هذا البرنامج على عدد غير قليل من المدارس ابتداء من سبتمبر عام ١٩٩٨ .

وأما المحور الثاني فيعنى بالمشروعات العمانية الخاصة بالعملية التعليمية مثل مشروع «التعاون الأمريكي العماني لتدريب المعلمين»، الذي يهدف إلى إطلاع المعلمين على مجالات العلم والتكنولوجيا الحديثة التي تنهض بقدراتهم. مع مراعاة أن يتناسب هذا المشروع مع القيم العمانية الدينية والثقافية والبيئية.

وأما المحور الثالث فهو بحث «موضوع المشاركة» المكثفة في تدريب المعلمين. وهذا البحث الذي تم طرحه في بنجلادش، يحرص على وجود توازن بين التكنولوجيا الغربية وظروف الدول التي توجه إليها هذه التكنولوجيا. بمعنى أن لا يحدث تعارض بينها وبين القيم الدينية، والاجتماعية والثقافية عند التطبيق .

\* أستاذ مشارك بقسم اللغة الإنجليزية - كلية الآداب - جامعة السلطان قابوس.

**(12) Hilary Bourdillon, Senior lecturer in Education,  
Centre for Research into Teacher Education, School of  
Education, The Open University, Walton Hall, Milton  
Keynes, MK7 6AA, UK  
Tel: +44 1908 654123; Fax +44 1908 652218  
e-mail: H.Bourdillon@open.ac.uk**

8/9/99

(6) Daniel Nomishan, D. Ed  
Fitchburg State College  
Fitchburg, Massachusetts, USA  
Tel: +1 978 6653516; Fax: +1 978 6653517

(7) Woodrow W. Denham, Ph.D.  
(Former) Associate Professor of Anthropology  
and Director of Information Sciences  
North South University  
Dhaka, Bangladesh  
e-mail: hubley@emirates.net.ae

(8) Gwendolyn Y. Turner  
University of Missouri - St. Louis  
8001 National Bridge Road  
St. Louis, Missouri, USA  
Tel: +1 314 5165096  
Fax: +1 314 5165948

(9) Howard Mehlinger  
Director, Centre for Excellence in Education  
Indiana University  
Bloomington, IN 47405, USA  
Tel: +1 812 8568210  
Fax: +1 812 8568245

(10) Philip Lyon, The Hong Kong Institute of Education  
Hong Kong,  
work Tel: +852 29487761; Fax: + 852 294 87763

(11) Dr. Elaine Jacchow, Dean, College of Education,  
Texas Technological University, P.O. Box 41071,  
Lubbock, Texas 79409 – 1071 USA,  
Hugh Barr, senior Lecturer, School of Education,  
University of Waikato, Private Bag 3105,  
Hamilton, New Zealand,  
Tel + (07) 838-4500; Fax: + (07) 838-4555

**Addresses**

**(Numbers in brackets cross-refer to those in the body of the article.)**

(1) Dr. Hassan Mustapha  
Department of English  
College of Arts  
P.O.Box 42  
Sultan Qaboos University 123  
SULTANATE OF OMAN  
Tel/fax +968 538826  
e-mail : [hassanm@omantel.net.om](mailto:hassanm@omantel.net.om)

(2) V. Adamets  
International Bureau of Education  
UNESCO  
Case Postale 199  
1211 Geneve 20  
Switzerland  
Tel: +41 22 7981455 ; Fax: +41 22 7981486

(3) Dr. Sana Al-Belushi and  
Said Al-Kitani  
Technical Office for Planning & Studies  
Ministry of Education , Sultanate of Oman  
Tel: +968 793549; Fax: +968 797784

(4) Salha Issan & Nariman Gomaa, College of Education  
and Islamic Studies, SQU, P.O.Box 32 Al-Khod,  
Muscat, Sultanate of Oman ,  
Tel: +968 515696; Fax +968 513817

(5) Jacira da Silva Camara, Catholic University of  
Brasilia (UCB) & University of Brasilia (UNB, Brazil,  
SQS 303, Bloco E, Apr 102,70336-050)  
Brasilia DF, Brazil, Tel 55 61 226-8919, Fax 55 61 226-3050

*Appendix*  
*Recommendations* \*\*

1. Some of the final World Assembly recommendations were as follows:

Assertions of principles and practices:

- Programmes and equipment should be culture-sensitive, teacher-friendly, co-operative and minimally invasive.
- The role of teachers working within “traditional” paradigms needs to be considered sensitively and with all respect due for the traditions of the teachers concerned.
- Teacher educators and trainers should integrate technology in all courses on offer. The need to do this is getting more and more urgent given the vast and fast development taking place at the present time.
- The concepts and practices related to student-centred teaching and learning should be enhanced and promoted.
- “Teachers of teachers” should be made aware of, and familiar with technological developments.

*Notes*

\* The Ministry of Higher Education, Sultanate of Oman, has just published Proceedings of the Assembly. This article was written before the Proceedings were published.

\*\* It is perhaps worth mentioning that in arriving at the recommendations for the topic groups and also those for the overall Assembly the procedure followed did not involve any representative, official or otherwise, of ICET. Only presenters, rapporteurs, rapporteur leaders and the senior rapporteur (1) were involved in all stages of the write-up.



conferencing highlights "the collaborative nature of the learning" in subject classrooms in a learning community that is open and organized at the same time.

This article has not done justice to all presentations in the Assembly. It would have been unfair on the participants and the reviewers in the conference to even attempt to do that. Proceedings of the Assembly do of course provide comprehensive coverage\*.

The title of the 44th ICET World Assembly emphasized Quality Teacher Education for an Interconnected world. Many participants covered that theme. However the healthy and realistic attitude that we may still live in a world dis-connected by technology give the proceedings qualities that are not often seen in gatherings of this nature.

---

effect it cannot survive without these technologies. Moreover, it is probably also an incentive for more use of new technologies and further development in these. Thus "computer-mediated conferencing...has been added to the... open and distance education delivery mediums".

The paper (12) on The Open University's (OU) Postgraduate Certificate in Education (PGCE) focused on "learning to teach" which was "revolutionised through the use of computer, computer software package, ...modem and printer". These were provided to students and tutors to develop students' competence in the use of IT. This and availability of the "First Class" comments gave students access to an electronic network.

The "electronic learning environment" developed and used by OU gives students access to 'virtual' "PGCE University Campus". Thus, "on logging on... a desk top metaphor of a University Campus, with various 'rooms or learning environments'" is demonstrated on the monitor. Consequently and significantly the technology that lies between the learner and their participation in (their educational) community is hidden and access is facilitated. E-conferencing in this environment supports student-teachers when they "rehearse" and begin to understand what it is to be a teacher.

Over the eighteen months of the OU's PGCE course student-teachers "develop their IT skills... and make use of the computer as part and parcel of their day-to-day lives". This includes "planning ... lessons on electronic templates, word processing their...assignments and sharing and making resources on their computers". Posted discussions and messages change student-teachers perceptions of aspects of teaching and learning. Their current and future students also get the benefit of this change in attitude and perception and the technology behind it and being driven by it. The posted discussions and conversations contributing to the specific 'classroom' are sometime formal arguments and sometimes "more conversational". Such e-

education goes beyond the use of "computers in the classroom" and is an area that should not only be 'studied'- it should be 'done'. Computers play a role there but they also have a role in other studies. In other words the role of computers is not restricted to technology. The by now familiar uses of the Internet, e-mail or electronic libraries are easily accessible to students. But "transportation systems, constructions ... rarely ...[figure] in teacher preparation programs".

In preparing teachers and students for the 21<sup>st</sup> century there is need to include technology in all teacher education programs. The teacher's need for such awareness may sometimes be greater than that of many students who keep demonstrating that they are more "technologically sophisticated than we seem to believe".

For educationalists to be "interconnected" means, among many other things, making it "possible to bring the world to the classroom". While all good teachers have always tried to relate classroom work to the outside world what the two authors (11) of a paper on " The Small World Project" refer to here is the net. The net has developed to be a tool and a skill similar for example to the effective use of the library. "Students need to be taught how to access information efficiently; and, having located relevant data, they need to be taught what to do with it."

The project ran for six weeks during which the seven schools participating in it in New Zealand were provided with a set of questions for each week. The purpose was for each school to find out where other participating schools are located and to collect information about them. Answers appeared on a home page each week. Each week had questions about a specific theme e.g. climate, historical events or recreational activities. Students had to meet the weekly deadlines. Information gathered over the six weeks was then presented on the project collective home page.

Distance learning is probably the one area that does not just rely on new technologies to transform the ways it itself operates. In

- (i) to fit school curriculum and in consultation with schools,
- (ii) to meet needs of individual teachers,
- (iii) as special events program "in response to news breaking events" and
- (iv) to educate teachers in international studies.

This last type was of particular interest since it aimed at helping participants "understand the world [outside the USA] today and the forces that are shaping the world of the future". The course offered content that students "would not otherwise have studied". The 8-minute videotape resulting from this course contained segments from different class sessions and included samples of the discussions held in these classes. The audio in the first part of the tape is mute. This provides users of the tape in other situations the opportunity to make their own "voice-over" descriptions as is suitable to their situation.

The impression given by the above presentations is that the need for technological advance in the field of education is obvious. However the transfer of technological developments will not always be simple or straightforward. Applications of technology in the West and in the East raise human-related issues. These need to be sensitively handled. The ICET 45<sup>th</sup> World Assembly highlighted the issues and focused on the solutions found or yet to be arrived at. But its work is not 'done' yet. This was reflected in many of the final recommendations of the Assembly (See below).

### **Teacher Training**

Quite expectedly teacher training occupied the minds and practices of many educationalists such as those represented in the Assembly. The use of technology in the context of Special Education needs (SEN) raises specific challenges. Some of these were dealt with in a presentation entitled "Technology and Special Education" (10). SEN students will be found inside and outside institutions that especially cater for them. However there is "lack of knowledge as to what technology education is". Technology

not be seen as "serious... in many areas outside of the IT Department." IT is rapidly changing and together with these changes there is a requirement for equally rapid changes in intangible and sometimes even 'unteachable' attitudes and views of the end user. The global and openly accessible resources that come with such technology may need to be filtered or adapted for the use of local clients. In other words the author is of the view that pre-packaged technology needs to be un-packaged and re-packaged before the recipient culture is exposed to it. The need for culture-sensitive technology is a major issue that producers, exporters and importers should take note of and act upon.

Gwendolyn Turner (8) focused on the impact of technology, including computers, on self-improvement and the ability of 172 USA pre-service teachers to conduct research. While many of these teachers felt they were not "up to date on many of the new technologies" some went further to express "concern about their ability to keep up with what was current". Thus simple access to technology was neither the problem nor the solution. Compare this with the situation in Bangladesh and the worldwide picture turns out to be more complex than at first it seems. For both situations raise issues that are tangible (i.e. concerned with soft- or hardware) and intangible (e.g. perceptual & cultural). Turner's realistic 'findings' point out the seriousness as well as the urgency of addressing what may be called 'para-technological' issues. Once more here is an issue that might be pursued in further research.

Howard Mehlinger (9) reported on a professional development course. His paper on "Global Education for Teachers via Interactive Video" details the work Indiana University carries out in the field of international studies by its Centre for Excellence in Education. There again one issue was how to make the resources of the university more available to schools in Indiana.

The project designed offered four types of programs or services to schools. These, the author says, were developed in order

learning'. The teacher training and retraining implications of the project are significant. This is probably where higher education offers itself as a natural partner in the project. Higher education Faculty offer professional development courses and institutes, demonstrations of Science and Mathematics teaching and Technology applications, family Mathematics and Science fairs and round table discussion sessions. As an important by-product these activities help change both the attitude and behaviour of teachers, parents and administrators.

Working apart and separately the Ministry of Education in Oman and the PALMS frameworks in the USA each attempted a reform movement and arrived at their own model, practices, principles and conclusions. Some of these overlapped, some agreed while some were totally opposed to each other. Further research is perhaps needed to follow both frameworks up and to explore, in depth, the findings and implications of each of these two projects.

### Partnerships

On one particular situation in Bangladesh, Woodrow Denham (7) reports on the "successes and failures" of a programme he describes as laying the foundations for a technology-intensive teacher training programme at a wealthy, new private university in Dhaka. The programme focuses, among other things, on the interesting area of "problems that derive from strongly held attitudes and values of the faculty and staff."

The paper distinguishes between the introduction of technology and the use made of it once it is installed. Western technology may work in a "western context" where all concerned share the attitudes, values and practices that arise and evolve in such contexts. Such compatibility does not necessarily exist in a non-western working environment. Many of the problems arising in cases of wholesale transfer of technology may "derive from religious & social values that operate throughout the university and the society at large". More significantly such problems may

teachers "to assess how much learning" and communication are taking place and in what manner. The frameworks developed view Science & Technology as "practices based on inquiry". The simple questions of: "How does it work" or "How can it be improved" are seen as fundamental to inquiry inside and outside the classroom. The answers to these questions and the explanations offered are suggested by science, technology and mathematics.

In this context science offers explanations for "the observable" while technology deals with issues of human adaptation to the environment. On the other hand mathematical power, among other things, helps students understand problems and equips them with the tools for solving them.

The frameworks adopted for these disciplines also suggested "that students learn best in an inclusive environment". This is a particularly insightful finding that systematically takes into consideration learner factors such as "background, individuality, gender..., culture, physical ability or developmental levels". None of these, individually or collectively, are seen as an obstacle. The frameworks work with each and with all of these factors.

While the Omani Reform model goes for an increase in the total number of teacher-student contact hours the PALMS project adopts a "less is more" principle. This is a concept based on the recent suggestion "that there are relatively few big ideas in science and mathematics" and "that teachers must make sure that students do not get bogged down with memorization of the trivia." Each model generates its own principles and applies these in different environments. Each of these models, however, should be watched carefully and followed up with all due attention to the needs and requirements of their respective end-client namely the student.

The student addressed in the PALMS framework is a student who 'can learn'. Implied in this situation is a teacher who can 'teach

curriculum frameworks in Mathematics ... Science and Technology". Funding was provided by the US Department of Education and the National Science Foundation.

The curricular frameworks of each of the disciplines developed emphasised problem solving (cf. Oman), communication, reasons, connections, inquiry and "the relations of Science, technology and human affairs". Mathematics and Science were seen as major contributors to the "vitality of the economy and the quality of life". Educationally they provide the right arena for problem-solving. Thus the disciplines developed help correct misconceptions about themselves. In PALMS they are presented not just as a pre-packaged, ready-made and complete "body of knowledge". In fact their status, as part of a process for establishing new knowledge and acquiring experience, is highlighted. The framework developed by PALMS suggests that questions asked by students would help them "explore the world and their environment more". The responsibility and role of teachers in this respect is of paramount importance. The aim is to make students "work like Scientists ... raising questions, hypothesizing and", equally important, attempting to answer "these questions".

This emphasis on enquiry on the part of young learners does not compromise the rigour of learning or the status of the teacher and his or her knowledge and experience (an issue of equal importance in the USA as well as in Oman and many other educational systems). On the contrary it will certainly result in a new partnership in the acquisition and ownership of knowledge and experience. It also capitalizes on children's natural curiosity. It also exposes them systematically and naturally to "the habits, ideas and values" of their culture with particular reference to Mathematics, Science and Technology and places these in the context of their day to day life.

Making connections between disciplines on the one hand and between these and real life on the other will enable parents and



### *New Information and Communication Technology*

There is no one-to-one relationship between computers and advanced technology. There is also a difference between studying computers and/or advanced technology as tools in themselves and using them as tools to further knowledge and learning.

From Brazil an intended study (5) of the implications of the use of the Internet and its subsequent impact on 14 to 18 year olds focused on the behavioural aspects of these adolescents at school, in the family and within the educational system.

The use of Internet results in the loss of person to person relationship and skills (including "dating"! ) and manual writing skills being seen as " something of the past". This, probably among other things, has led to the Internet being seen in some quarters as a "bad habit". The study should shed some light on behaviour characteristics of adolescents in the family, their attitude, abilities and types of learning in addition to the more positive potential of the Internet in fostering such concepts as solidarity, tolerance and justice.

When complete the study should be of interest to educationalists as well as families seeking to promote the use of technology in the service of "cultural diversity" and teacher specific knowledge.

On new information and communication technologies Daniel Nomisham's presentation (6) highlighted a model of actual "Partnerships Advancing the Learning of Mathematics and Science" (PALMS). As in the case of Oman above this reform movement aims at making students educationally and experientially equipped for the real world. However this partnership project follows a model different from the Omani state-directed and fully state-funded approach.

Thus PALMS capitalizes on co-operation between "business and industry, parent groups, school districts, museums and", significantly, "higher education". "It aimed at the development of

In order to equip those students for the demands of the 21st Century English will be introduced at an earlier stage and for a total number of contact hours equal to more than double the number of lessons students are currently exposed to. This increase in contact hours is a major consideration in the New Educational Reform. Thus the total number of class hours will increase from 5693 to 9600. English language, Mathematics and Science are among those areas that will have their contact hours significantly increased. Subjects that are not included in the current curriculum i.e. Life Skills, Information Technology and Computer Skills will be introduced at the rate of 240, 120 and 264 class hours respectively. Seventeen schools have already experienced the changes that this Reform brings. Other Schools will follow gradually according to plan.

The World Assembly proceedings included what amounted to national reports on developmental work. As pointed out earlier Oman, the country hosting the Assembly, is currently going through major revision and reviews of various aspects of education. The reports on Vocational Institutions were of particular interest since this crucial type of education is sometimes forgotten in world conferences on teacher education. One presentation (4) went beyond analysis of the system in operation in Oman and focused on teachers of Technical and Vocational Education who join the profession without formal training. The fierce competition to join the University has been a major catalyst in diverting attention from, and perhaps even undermining, the status of non-"academic" education. However the same forces work together with the need for Omanisation in drawing attention to diversifying types and sources of training teachers. This consequently points to the need for training trainers. In doing that the presentation draws upon corresponding situations in the UK, Spain and Germany.

The New Educational Reform in Oman reflects a firm commitment to bringing about realistic changes in grades one to four in stage one of the "Reform". Stage two will involve grades five to ten. These changes were effected in some schools beginning September 1988 with a view to covering all schools in the Sultanate by 2000. Sana Al-Belushi and Said Al Kitani (3) reported that, included in this Reform, the school year will be extended from the current 160 days to 180 days and that lessons will be forty minutes each, an increase of five minutes on each of the current class lessons.

More importantly perhaps is the curriculum being introduced into basic education. The launch of this major project puts Oman in the forefront of countries promoting "critical thinking", "problem solving" and "life skills" right from the beginning of the school cycle of all eligible young Omanis. The shift from teacher-centred to learner-oriented attitudes and methodologies will mark a quantum leap in the history of education in the Sultanate. By the end of their school education school leavers should be equipped with such skills and areas of knowledge and information as may be required of them in order to cope with the modern world. This is, and will be, a world where technology plays an ever increasing and perhaps even overwhelming role.

This reform will involve current teachers in a major re-training programme. Teachers already in the system, new teachers and teachers in training, will be made familiar with the implications of making the learner the centre of the learning (and teaching) process. All participants in this process will also assign to examinations only the weight and significance they deserve. The current teacher-centred and examinations-oriented practices and attitudes will be replaced by emphasis on the assessment, rather than mere testing, of the full person i.e. the child at school. Memorization, like exams, will be a tool to be used but not an objective in itself. Critical and individual thinking will be the mode in which all participants in the educational process will engage.

*QUALITY TEACHER EDUCATION IN AN  
INTERCONNECTED WORLD*

*HASSAN MUSTAPHA (1)*

The International Council on Education for Teaching (ICET) is not international by name only. Nor is it international just by either membership or numbers. The 44<sup>th</sup> World Assembly held in Muscat, Sultanate of Oman in December 1977 was witness to how international in both form and content ICET is. To this extent the topics covered were of international interest. Yet the solutions and the conclusions offered were in many cases of local nature. The 35 or so countries represented covered a spectrum of economic and social categories from the developed to the developing. No value judgement were made or implied on the nature or stage of educational development in any of the countries involved. Given this factual and attitudinal background it would only be possible in this article to investigate and comment on a limited number of presentations made. Some of the Assembly's recommendations are given in an appendix.

In his presentation to the Assembly V. ADAMETS (2) highlighted two major issues on the International Educational Agenda. These are "basic education and the new information and communication technologies". Most of the remaining part of this article will deal with how these issues were dealt with in the presentations concerned.

*Basic Education*

An exciting and challenging development in basic education is taking place in the Sultanate of Oman, the host country to the 1997 ICET World Assembly.



البحوث والدراسات المنشورة بالعدد (٣) لسنة ١٩٩٩  
الناشر: مركز الحضارة العربية

٤ شارع العلمين - الجيزة تليفاكس ٣٤٤٨٣٦٨

**ويطلب من مكتبة الإنجلو المصرية**

١٦٥ ش محمد فريد القاهرة ت: ٢٩١٤٢٣٧

## • الافتتاحية

• المادة العربية ( البحث ـ المقال النقدي ).

**الثنائيات الفنية هي رواية (السيد الذي رحل)**

محمد قطب .

### الشخصيات القلقة في الرواية العربية

١٠٠ البحث عن السعادة في قصيدة (حدثونا عنها)

## لشازك الملايكة

التمرد في شعر سعاد الصباح .

التبادل الصيفي في قصيدة (غادة اليابان) لحافظ إبراهيم د. حسن البنداري

**تطوير الاتصال الجماهيري: قياس تعرض جماهير**

العجيج للتلفزيون السعودي . د . أسامة حريزي

الحكم النقدي بين الواقع والمثال

د. أحمد درويش

● المتابعات (الكتاب- المؤتمر).

مع الكتاب، المفهوم الإغريقي للمسرح. رؤية نقدية. زينب العسسال

د. نفيسة عيش مع المؤتمر العالمي للاتحاد الدولي لمدرسي الفرنسية

• المادة خير العربية ،

DESCRIPTION OF AMERICA Along poem by. Ahmed Taymour.

**Dr . Maher Shafiq Farid.**

د. ماهر شوقي فريد

### Pluie de La traduction dans les revues littéraires

Dr. Carne'lia Sobhy.

د. كاميليا صبحي

## البحوث والدراسات المنشورة بالعدد (٢) لسنة ١٩٩٩

الناشر: مركز الحضارة العربية

٤ شارع العلمين - الجيزة تليفاكس ٢٤٤٨٣٦٨

ويطلب من مكتبة الإنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد القاهرة ت ٢٩١٤٢٣٧

د. حسن البنداري

## ● الافتتاحية

● المادة العربية ( البحث - المقال النقدي ) .

. انكسار الإيقاع - قراءة عروضية دلالية

لقصيدة ظل الوقت .

د. محمد حماسة عبد اللطيف

. قصيدة النثر بين التراث والحداثة

د. محمد عبد المطلب

. التنازع بين الفكر والضم في الشعر العربي الحديث

د. عزة الغنام

. التدفق الضمني : مدخل لتعليم التفكير المنتج

د. صفاء الأوسر

وتنمية الزكاء

د. عاطف العسراقي

. التنوير وثقافة العولمة

. جامعة الضباط .. الجامعة الأولى

د. محمد عبد النعم خفاجي

في مصر الإسلامية

د. نبيل راضب

. أصول الحكمة الدرامية والروائية

. الانعطاف الصاخب في قصص

د. حسن البنداري

نجيب محفوظ القصيرة

المتابعات

مع كتاب التنوير لا التضليل . الإسلام وقضايا التنوير محمد قطب

مؤتمر اللغة الإسبانية الخاص بالترجمة د. محمد أبو العطا

ISimposio Internacional sober sober Ia Traduccio'n

(a'rabe - espanol - arabe) 6 - 8 de abril de 99

By Dr . Mohammed Aboul Ata

المواد غير العربية ( البحث - المقال النقدي )

FEMINISM, ... the False Freedom .. Re - appraisal After 50 Years

Dr . Hussein A. Amin,

د. حسين أمين

حرية المرأة بين الحقيقة والخيال

Rondean et Kharrat : deux visions de Ia vill d'Alexandrie Mo

hamed El Kordi

Dr . Mohammed El kordi

د. محمد علي الكردى تجليات مدينة الإسكندرية عند الخراط وروندو

## فكر وإبداع

البحوث والدراسات والإبداعات المنشورة بالعدد (١) لسنة ١٩٩٩

الناشر مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد (القاهرة) ت : ٢٩١٤٣٢٧

- |                     |  |
|---------------------|--|
| د. وفاء إبراهيم     | د. محمود تيمور، المسرح والتجديد                      |
| د. جيسودة أمين      | د. إشكالية التحديث في الشعر العباسي                  |
| د. عبد الحكيم حسان  | د. مفهوم الشعر في التراث العربي بين التقليد والتجديد |
| د. محمد بلتاجي      | د. حاجة العلوم الإسلامية إلى التجديد                 |
| د. محمود فهمي حجازي | د. المصطلحات في عصر تقنيات المعلومات                 |
| د. نعيم عطية        | د. التزام جديد في الفن التشكيلي                      |
| د. زين فصار         | د. دور آلة العود في تطور الموسيقى الأوربية.          |
| حامد طاهر           | د. اللحظات النادرة ، (قصيدة)                         |
| محمد حماسة          | د. الحنين إلى النبع (قصيدة)                          |
| وفاء وجسدي          | د. قصاصات حب (قصيدة)                                 |
| أحمد سويلم          | د. إشرافات (قصيدة)                                   |
| جمال الفيضاني       | د. هاتف (قصة قصيرة)                                  |
| محمد جبريل          | د. الأفق (قصة قصيرة)                                 |
| رفعت الفرنواني      | د. الحقل (قصة قصيرة)                                 |

آموزش زبان فارسی در دانشگاه های مصر

د. تعليم الفارسية بمصر

د. محمد السعيد جمال الدين

Problemation de la traduction du discours linguistique

By Dr . Camelia Sobhy

د. كاميليا صبحي

إشكالية ترجمة النص اللغوي

Discours de paix et de violence dans le livre de Marie Cardinal Au pays de mes Racines

By Dr . N'efissa Eleiche

د. نفيسة عليش

السلام والعنف عند ماري كاردينال

The Novel As Documentary The Descisive Battle in World War II

As Seen by Olivia Manning in The Levant Trilogy

By Dr . Fadila Fattouh

د. فضيلة فتوح

د. ثلاثية الشرق لأوليفيا ماننج





## يطلب من

مركز الحضارة العربية  
٤ ش العلمين - صمات الأوقاف  
ميدان الكيت كات - الجيزة . ج . م . ع  
٢٤٤٨٣٨ ت

## مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ ش محمد فريد القاهرة  
٢٩١٤٢٢٧ تليفون

مكتبة زهراء الشرق

١١٦ ش محمد فريد - القاهرة

٣٩٢٩١٩٢ / ت

نور للكمبيوتر

إخراج هي وصف كمبيوتر، حسن عبد الحليم  
٦٥٠٢٥٢٢ ت

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٩٩/٦٧٥٤

I.S.B.N . 977 - 291 - 154 - X

مطبعة العمرانية للأوقاف

الجيزة ت : ٥٨١٧٥٥٠

## فكر وإبداع

من مواد العدد القادم

- الإسكندرية شاعرة.
- دلالات الحكى بين شهرزاد.. وزهرة الصباح.
- شيبانى خان وتأسيس الدولة الأوزبكية.
- قراءة نقدية فى كتاب (فتح العرب لمصر).
- دور التعليم العالى فى مواجهة التحديات العلمية والتكنولوجية
- أسلوية الرؤية المعاصرة فى إضاءة التراث النقدى

# FIKR WA IBDA'

- QUALITY TEACHER EDUCATION  
IN AN INTERCONNECTED WORLD
- Enfance Vieillesse

No . (4)  
Dec 1999



Markaz  
AL HADARAH  
AL ARABIAH